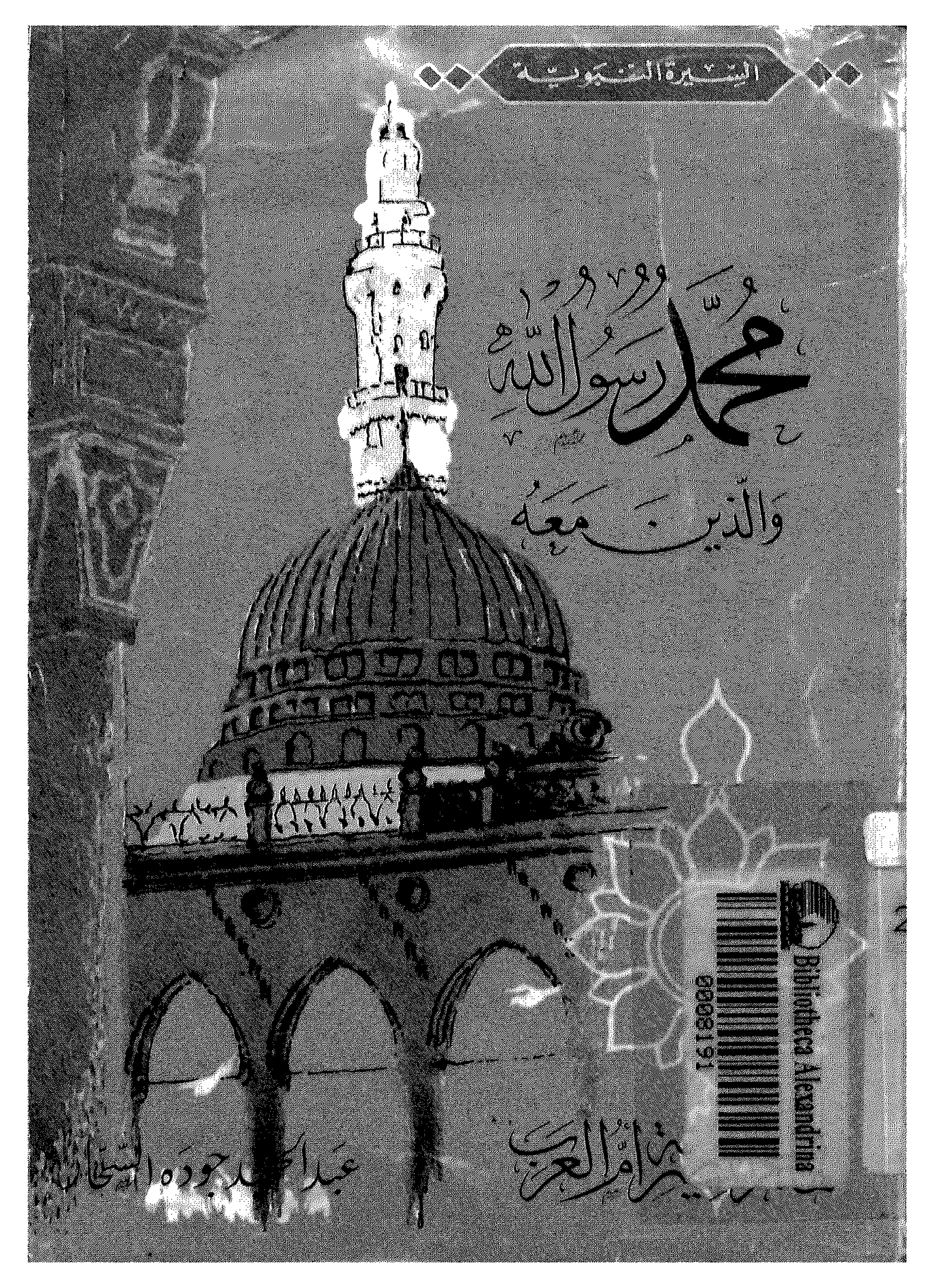

السيرة النبوية
محمد رسول الله ﷺ
والذين معه
عبد الحميد جودة السحار
Bibliotheca Alexandrina
0008191


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السيرة النبوية



هاجر المصرية أم العرب

عبد الحميد جودة السحار

١

مدينة منف ، العرش العظيم ، مخازن الغلال المقدسة .. تقدست مذ غرق في فيضانها أزريس إله الخضرة والخصب . منف سيدة كل الحياة من استمدت مصر منها حياتها . منف التى تدخل السرور على قلوب الآلهة فى بيت رب الأرباب « بتاح » العظيم . منف المتألقة أبدا بالبهجة والسرور رانت عليها الكآبة وارتسم على محياها الوجوم ونزل بقلبها حزن ثقيل ؛ فقد سقطت « عين شمس » فى أيدى الهكسوس ، وطرد كهنتها من معابدهم ، وتعطلت فيها عبادة « رع » إله الشمس ، وفرضت على الناس عبادة « ست » الإله الشرير !

سقطت عين شمس فى أيدى الغزاة ، ودنست المدينة المقدسة فلن تصير بعد اليوم مكان ولادة كل إله !

وراح الناس يبذرون الحبوب ويحصدون الغلال ويسوقون الماشية شاردى الألباب ، وفى عيونهم قلق وفى صدورهم ضيق ، يكادون أن تنفجر حنوبهم من العيظ ، فقد بات أعداء البلاد على بعد فراسخ قليلة . إنها كرة واحدة ثم تسقط منف العظيمة فى أيدى الغزاة علاظ القلوب الذين وثبوا على الملك واستولوا عليه لما دب الضعف فى قصور الفراعين .

وفى حوانيت التجار ومصانع النحاس وأماكن صنع الفحار ، وفى الأسواق والدور والقصور ، كانت الأحاديث تدور حول الحطر

المتربص بمنف الذى سيطبق عليها من الشمال من عين شمس ، حيث يتأهب العدو للزحف على قلب البلاد ، العرش العظيم !

وراح الجنود يهرعون من كل مكان فى منف إلى الحدود الشمالية ، إلى حصن الجدار الأبيض ، وراح أمير منف يجوس خلال جنوده يحمسهم بأفضل ما فيهم ويدعوهم للاستماتة فى الدفاع عن شرفهم وشرف أرضهم وشرف إلههم « بتاح » العظيم .

وامتلأت معابد بتاح الصانع الأعظم خالق العالم ، بالكهنة الذين راحوا يحرقون البخور ويرتلون :

« إن النار تُهيأ والنار تضىء .

إن البَخور يوضع على النار والبخور يضىء .

وشذاك يأتى للآلهة يأيها البخور .

وشذا الآلهة يأتى إليك يأيها البخور .

إننا معكم يا آلهة .

وأنتم معنا يأيها الآلهة .

إننا نحبكم يأيها الآلهة .

فأحبونا يأيها الآلهة » .

وراح بعضهم يقدم القرابين لتمثال الإله « بتاح » ويبتهل :

« إلهنا بتاح العظيم !

يا قلب الآلهة ولسانهم .

أيها العقل المدبر .

يا من سكنت كل صدر على هيئة القلب ،

وكل فم على هيئة اللسان .

يا قلب جميع الآلهة وألسنتهم .

يا قلب كل الناس وألسنتهم .

يا قلب كل الدواب والزواحف وكل الأحياء .

يا من تفكر فيما تشاء .

وتفعل ما تريد .

يا من في فمه كل الآلهة .

ونطق بأسماء كل الأشياء .

إن الآلهة جميعا إن هم إلا صورك ، وما خلقوا بصر العين وسمع الآذان وتنفس الآناف إلا لتصل جميعا إليك ، فأنت قلب كل شيء .

يا من خلق إله الشمس ، وأوجد الآلهة جميعا وصورهم ونحت تماثيل لأجسامهم كما تهوى قلوبهم ، ليحلوا فى أجسامها المصنوعة من كل نوع من الخشب ومن كل صنف من المعادن ومن كل نوع من الطين .

يا من تفوق قوى الآلهة جميعا .

انصرنا على أعدائنا وأعدائك .

إن نهزم غدا فلن تعبد في منف ، ولن يدخل السرور بعدها على قلوب الآلهة الذين فى بيتك » .

ووقف بعضهم عند تمثال أزريس الذى يرقد فوق الأرض وقد نبت القمح من جسده . وارتفع البخور حتى كاد يحجب تمثال إله الخضرة والخصب ، وأخذوا يبتهلون فى حرارة :

« يأيها الإله الطيب .

يا أزريس يا بن نوت إلهة السماء .

يا من ينبع النيل من عرق يديك .

بل أنت النيل حقا ، عظيم فى الحقول فى باكورة الفصول .

إن الآلهة والناس يعيشون بالندى الذى فيك .

إنك تنفث الهواء من فمك الطاهر إلى آناف الناس ، فتهب القداسة لما يعيش عليه الناس .

يا من توجد فى أنفك الشجرة وخضرتها ، والأعشاب والنباتات والشعير والقمح وشجرة الحياة .

أنت الحياة الدائمة التى لا تعرف الفناء .

يا من هزم أعداءه وذبح مناهضيه بساعد قوى ، وجعل خوفه يدب بين خصومه .

يا من كان أخوك « ست » يرتجف منك رعبا ، وإن كان قلبه يفيض بالطمع فى عرشك .

لم يجرؤ يوما على أن يقف فى وجهك فاغتالك غدرا .

وأخذت أختك وحبيبتك المخلصة إيزيس تنقب عنك وهى تبكى أحر البكاء .

حتى إذا ما عثرت عليك اضطجعت إيزيس المخلصة معك أيها السيد ، واحتضنتك فوضعت فيها — وأنت ميت — حور ، ووريثك الذى تغذى بالإخلاص لك .

واشتد ساعده وكان أول ما فعله أن ثأر لك من أخيك الشرير « ست » .

فإن كان « ست » قد هزم « رع » فى عين شمس ، فإننا سننتقم من « ست » فى منف ، العرش العظيم ، كما انتقم منه حور الوفى

الأمين .

يأيها الإله الطيب .

يا من قمت من الأموات .

يا من ورثت « جب » إله الأرض الذى أسلمك قيادة البلاد لتسير بها فى طريق الرشاد ، ووضع فى قبضتك هذه الأرض وماءها و هواءها وخضرتها وكل ما يدب عليها ويرفرف فى سمائها ويسبح فى مائها ، أيدنا بنصرك وأرسل معنا « حور » المنتقم لأبيه ليهزم « ست » كما هزمه من قبل .

يأيها الإله الطيب .

أيدنا بنصرك حتى لا يعبد « ست » الشرير فى العرش العظيم ، فى مخزن الآلهة ، وفى منف التى تقدست يوم امتزجت فى مائها الجديد ، فى فيضانها المبارك » .

كانت الابتهالات حارة والأمل فى النصر يداعب قلوب كهنة منف ، فإن كان الهكسوس قد انتصروا على عين شمس بتأييد الإله « ست » فإنهم يأملون النصر بتأييد بتاح الذى خلق الآلهة جميعا ، وتأييد حور الذى انتقم بأبيه وأذاق « ست » ذل الانكسار .

وعلى مقربة من المعبد كان البيت الكبير قصر أمير منف ، وكان من اللبن المجفف فى الهواء ، له باب ضخم زين برسوم فرعونية زاهية الألوان ، خلف الباب فناء على جانبيه تماثيل أبى الهول تزينه أعمدة البردى ، وراح الخدم ينظفون أرض الفناء ويتحدثون عن أمير القصر الذى خرج للدفاع عن منف .

وفى حديقة القصر قام جوسق تزينه أكاليل الزهور ، أمامه بحيرة

كبيرة تسبح فيها الأسماك وتنبت في مياهها أزهار اللوتس ، وعلى جوانب البحيرة غرست نباتات مختلفة الأنواع ، راحت الفراشات تهيم في الفضاء وتنتقل من زهرة إلى زهرة .

كان السكون يخيم على المكان والكون يتألق بالجمال ، بيد أن سيدة القطرين عظيمة الفضل عظيمة الرشاقة كانت تجلس في الجوسق باسرة الوجه تكاد تتمزق في الغيظ ، وكانت تجلس قبالتها وصيفتها ترنو إليها في عطف وإشفاق .

كانت الأميرة هاجر شابة جميلة سمراء عيناها سوداوان واسعتان تنفثان سحرا ، ترتدى ثوبا بسيطا أبيض بلا ثنايا ولا زخارف ولا تهاويل يلتصق بجسمها التصاقا وينحدر من أسفل الثديين حتى رسغى القدم ، ويحمله شريطان يمران فوق الكتفين ، ويزين الحاملين زهرات تنتشر فوق الثديين لتحجبهما عن الأنظار .

هبت الأميرة هاجر واقفة وقالت في ثورة :

ــ لو كنت أعرف أين الإله لقدمت إليه قربانا .

وهرعت إليها وصيفتها وقالت في حوف :

ــ مولاتى إن الآلهة في معابدها ترعانا .

ــ أهي نائمة ! أهي عنا غافلة ؟ إنه لا بأس لها يرى .

ــ مولاتى رفقا بنفسك ، إن بتاح العظيم لن يتخلى عنا وسينصرنا على أعدائنا .

ونظرت هاجر إلى وصيفتها نظرة قلقة مفعمة بالشك وقالت :

ــ ألبس بتاح هو إله الأرض ؟

ــ بلى يا مولاتى .

ـ كيف سمح إذن أن يطأه الغزاة بأقدامهم ؟ كيف قبل أن يدنس الهكسوس وجهه ؟

ولاح فى وجه الوصيفة فزع وقالت وهى تتلفت فى خوف :

ـ مولاتى ! إن بتاح العظيم لم يبطش بالمعتدين لأنه محب للسلام .

ـ أيقبل هذا العار ؟ أيقبل قلب الآلهة ولسانهم ، العقل المدبر للكون ، من يأمر بما يريد ، أن يطرد من معبد ليعبد فيه ست ! ليت الناس يفنون فلا حمل ولا ولادة ، ليت السماء تنطبق على الأرض قبل أن يحيق بنا هذا الذل .

وراحت هاجر تغدو وتروح فى قلق والغضب فى عينيها ، ثم التفتت إلى وصيفتها وقالت :

ـ لو انتصر الهكسوس علينا لكفرت ببتاح وبالآلهة جميعا .

ـ مولاتى ! إن تخلت الآلهة عنا فبما قدمت أيدينا . إن من لم يكن يملك زوجا من الثيران صار الآن صاحب قطيع ، ومن لم يكن يملك غلالا صار الآن صاحب صوامع من القمح . حقا إن السرور قد مات ولم نعد نتذوقه ، ولم يعد فى الأرض إلا الأنين الممزوج بالحسرات .

قالت هاجر فى يأس :

ـ أنصت يا قلبى وانع الأرض التى فيها نشأت ، أكتبت الآلهة على العرش العظيم الخراب ؟ اذرفى الدمع يا عين وابكى سيدى وحبيبى ومولاى كما بكت إيزيس حبيبها أزريس..

فخفت الوصيفة إليها وقالت :

ـــ كفكفى يا مولاتى دموعك ، فمولاى هناك فى حصن الجدار الأبيض يشرف من أفقه على الكون .

ـــ قلبى يحدثنى أنى لن أراه .

ـــ إنه فى رعاية الآلهة وستنصره ، وتعود العدالة إلى مكانها وينفى الظلم من الأرض .

ـــ هنيئا لمن يرى ذلك اليوم .

ووقعت عينا هاجر على المقبرة الهائلة التى بناها الأمير لتكون مثواه ، فهاجت شجونها وعادت إليها مخاوفها وقالت :

ـــ لو قتل مولاى لأقتلن نفسى .

فقالت الوصيفة فى إشفاق :

ـــ مولاتى ارحمى نفسك ، فإن مولاى فى رعاية آبائه .

فعادت هاجر تقول فى إصرار :

ـــ لأقتلن نفسى ..

ـــ أنت يا مولاتى شابة ، وحرام أن تقضى بيدك على هذا الجمال .

ـــ لأقتلن نفسى إن تخلت عنا الآلهة .

ـــ اطمئنى يا مولاتى فلن تتخلى عنا آلهتنا .

وشردت هاجر وراحت تهمس كأنما تخاطب نفسها :

ـــ إن فى الموت شفاء نفسى .

إنه كرائحة بخور مر ، أو كالجلوس تحت الشراع فى يوم اشتدت ريحه .

إنه كأريج زهرة السوسن .

مثل مجرى الماء العذب ، مثل عودة المرء إلى داره بعد رحلة

مضنية .

إنه كسماء صفت بعد أن غامت بالسحاب .

إن شوقي إليه كشوق إنسان يتوق إلى بيته بعد أن أمضى سنين في الأسر . ترى أآجد رع في سفينته حقا عندما أذهب إلى هناك ؟!

٢

ـ يعتقد المصريون أنهم الناس وحدهم .

ونظر سنان بن الأشل بن عُبيد ملك الهكسوس إلى رئيس وزرائه وقال :

ـ ونحن ؟

قال رئيس الوزراء :

ـ أيسمح لى مولاى أن أقول ما يقوله المصريون فينا ؟

ـ قل .

ـ يقولون إنهم الناس وحدهم ، أما نحن فبرابرة قساة غلاظ الأكباد .

وضحك الملك وقال :

ـ هذا رأيهم فينا فما رأيهم فى سائر البشر ؟

ـ إنهم يعتقدون أن الآلهة اصطفتهم وأحبتهم فهم وحدهم الناس ، أما سائر الشعوب فمن نسل أعداء الآلهة ؛ فإنه عندما هزم الإله رع أعداءه فى إدفو تمكن بعضهم من الهرب ، فمن فر منهم إلى الجنوب كان منهم النوبيون ، ومن فر منهم إلى الشمال كان منهم الآسيويون ، ومن هرب منهم إلى الغرب كان منهم الليبيون ، ومن هرب منهم إلى الشرق كان منهم أسلاف البدو .

وساد الصمت برهة ثم قال الملك :

— إن المصريين يسخرون من قولى إنى ابن رع وإنى فرعون مصر لأنى لم أولد ولادة إلهية . حدثنى كيف يخرج الفراعين من صلب الآلهة ؟

— يعتقد المصريون أن اجتماعا يعقد فى السماء يعلن فيه الإله رع سائر الآلهة بقرب ولادة الملك الجديد ، فيقوم تحوت إله الحكمة والتاريخ ذو رأس الأبيس بذكر اسم الملكة التى ستكون أما للحاكم المقبل ، وهى أجمل النساء جميعا .

— وإن لم تكن أجمل النساء جميعا ؟

— أليست آلهتهم بقادرة على أن تجعلها أجمل النساء جميعا فى هذه اللحظة المباركة ! وعندئذ يتخذ رع هيئة الملك ويدخل على الملكة فيجدها مضطجعة والجمال يحف بقصرها ، بيد أنها تستيقظ فجأة عندما تشم رائحة الإله فتبتسم لجلالته ، وتتهلل بالبشر عندما تستمتع برؤية جماله فيخترق حبه شغاف قلبها ، ثم يذكر لها رع اسم الملك المقبل . ويعدها بأنه سيصبح ملكا على البلاد جميعا .

ويصدر رع أمره إلى خنوم إله الفنيين الخالق ذى رأس الكبش أن يشكل على عجلة الفخار جسم الطفل وروحه الحارس (الكا) ، فإذا ما تم ذلك نفخت إلهة الولادة « حقت » ذات رأس الضفدع روح الحياة فى جسم الطفل المصنوع من الصلصال ، وفى روحه الحارس .

ويشترك خنوم وحقت فى معاونة السيدة الحبلى على ولادة الملك وابن الإله الذى تتهلل له السماء بالفرح الفياض . وما إن يخرج المولود إلى عالم النور حتى يهرع إليه رع فيضم ابنه الحبيب إلى صدره

الحنون ، ومن ثم يعهد به إلى الإلهة حتحور البقرة المقدسة لترضعه وتغذيه .

قال الملك فى حماس :

— على كهنة أواريس أن يجدوا لنا ميلادا إلهيا فخما كهـذا الميلاد .

قال رئيس الوزراء :

— ليس ما يمجد فرعون ميلاده الإلهى وحسب ، بل ما أكثر أمجاده . فقد ازدرد علم كل إله ، ومدة حياته الأبد ، إذا أراد شيئا كان ، وإذا لم يرد لم يكن ، إنه إله يعيش على أكل آبائه ويتغذى بأكل أمهاته . وهو رب الحكمة ومجده فى السماء ، يأكل الرجال ويتغذى بالآلهة ، رب الرسل وباعث الرسالات وفى جوفه أرواح الآلهة .

وقبل أن يفيق الملك من دهشته دخل عليه رئيس الديوان الملكى ، ورفع ذراعيه محييا وقال :

— إن كل شىء يجرى كما يشاء قلب جلالتكم ويهوى ، وإن قولكم ينفذ كل يوم ، وإن أفكار قلبكم تتحقق كأفكار قلب بتاح عندما يصوغ قطعة فنية .

وراح الملك يصغى إلى رئيس ديوانه وهو سعيد ، فهو يخاطب كما كان يخاطب الفراعين ، وإنه ليأمل أن يأتى اليوم الذى ينسى فيه الناس أنه من أولئك الرعاة الذين اغتصبوا الملك من الفراعنة . واستمر رئيس الديوان فى حديثه :

— أيها الملك يا من أنت مولانا ، لقد عاد قائد الحملة التى بعثها مولانا إلى أرض كنعان لتأديب المعتدين الذين نزلوا بأرض عبيد مولانا

من الكنعانيين يسوق الأسرى والغنائم ، وهو يلتمس شرف المثول بين يدى مولانا .

قال الملك :

ـــ لقد أذنا له بالدخول .

ودخل القائد إلى حيث يجلس الملك ، وقبل أن يمد إليه عينيه خر ساجدا وقبل الأرض بين يديه ، وظل فى سجوده إلى أن أمره الملك أن ينهض وأن يتكلم فقال :

ـــ يأيها الملك يا من أنت مولانا ، لقد مكنتنا آلهتنا العظام من أعداء مولانا فهزمناهم شر هزيمة ، وسقنا نساءهم سبايا .

وصمت القائد قليلا ثم قال :

ـــ وبين السبايا يا مولاى امرأة ينبغى ألا تكون إلا لجلالتك .

فأشرق وجه الملك بابتسامة وقال :

ـــ اذهب وأت بها .

وانحنى القائد وخرج وهو يتقهقر حتى لا يولى الملك ظهره ، ثم انطلق إلى حيث كان الأسرى وأمر سارة أن تتبعه .

سارت سارة فى ردهات القصر مرفوعة الرأس ثابتة الجنان يملأ قلبها يقين فى رعاية رب العالمين ، ولم تبهرها الأعمدة السامقة ولا روعة النقوش والتهاويل وفخامة الرياش ، ولم تسر فى بدنها رعدة خشية بطش الجبارين ، فقد ذابت روحها فى الله وأسلمت له وجهها .

وانطلقت وهى غائبة عن كل ما حولها بالتسبيحات التى تتردد بين جنباتها وبالسكينة التى تنزل بفؤادها وبالنسائم الروحية التى تـهب عليها ، ولم تشعر بالعيون التى تعلقت بها لتسعد بجمالها الفتان .

وأشرفت على غرفة الملك فإذا الجميع يخرون سجدا بين يديه ، وظلت هى شامخة فى كبرياء . ونظر الملك ورئيس وزرائه إليها وقد فغرا فميهما من الدهشة ، فيا طالما رأيا ألوانا من الجمال بيد أنهما لم يريا من قبل بمثل هذه الفتنة الطاغية .

قال الملك :

ــ إن سنا جمالها يبهر كل الأنوار .

قال رئيس الوزراء :

ــ إن شروقها أروع من شروق رع فى أفقه .

وقال الملك فى سرور أشبه بسرور الأطفال :

ــ خذوها إلى الحريم فأنا أريدها الليلة .

وتلقفها المشرف على الحريم الملكى ، وسار بها فى جناح الحريم بين حراس شداد واقفين على الأبواب . وجاءت رئيسة الحبيسات المخدرات محظيات الملك ورحبت بسارة وهى تبدى إعجابها بجمالها الآسر الذى سيسعد به الملك الليلة .

وانطلقت سارة إلى حجرتها وأعين الفتيات الجميلات اللاتى كن يعزفن على آلاتهن الموسيقية أو يمارسن الرقص تنظر إليها وقد امتلأت قلوبهن حسدا ، وإن ندت من بعضهن آهات إعجاب على الرغم منهن ، وقالت إحداهن :

ــ ليضعنَّ الملك على رأسها حيات الأريوس المقدسة .

وقالت أخرى :

ــ وليطلقن عليها اسم : الحاكمة الجميلة .

وقالت ثالثة :

— وسرعان ما تمسى المحظية الملكية الوحيدة .

ودخلت سارة غرفتها واستغرقت فى صلاة حارة فأحست كأن نورا أضاء جوفها وأن طمأنينة عجيبة غشيتها .

وراحت رئيسة الحبيسات المخدرات تهيىء الجو الشاعرى فى الغرفة التى سوف يلتقى فيها الملك بأسيرته الجميلة .. راحت تنسق أوانى النبيذ وتنثر العطور على الفراش الوثير وتعد كل شىء ليكون على ما يشتهى الملك ويهوى .

وجاء الليل وأخذت سارة إلى غرفة الشراب ، وما لبث الملك أن دخل فقبلت رئيسة المحظيات الأرض بين يديه ، وأمرت الخادمات أن يدخلن عليهما بكئوس النبيذ .

وقدمت إحدى الخادمات كأسا إلى الملك فتناولها منشرحا ، وقدمت أخرى كأسا إلى سارة فأبت أن تمد يدها إليها ، فقالت الخادمة :

— فى صحتك !

اشربى حتى تثملى .

واحتفلى بهذا اليوم الجميل .

وابسطى ذراعيك للسرور .

ورأت رئيسة الحبيسات المخدرات إحجام سارة عن مشاركة الملك فى شرابه فوجهت الخطاب إلى الساقية لتذهب عن سارة روعها :

— أعطينى ثمانى عشرة آنية من النبيذ ،

انظروا ! إنى أحب أن أشرب حتى النشوة ،

فجوفى يابس كالهشيم .

ولم تسمع سارة مما تقول شيئا فقد كانت روحها تهيم لتتصل بسر الوجود ، كانت تحاول أن ترى الله بعين بصيرتها لتأنس به وتتفيأ ظلال رحمته وتحتمى بحصنه .

وارتفع صوت مغنية تشدو :

حينما تستقر يدك على يدى ،

ينعم قلبى بالسرور .

إن سماع صوتك يسكرنى .

وراح الملك يرنو إلى سارة فى وله .. إنها جميلة أجمل من ندى الصباح ، يفوح منها عبير أطيب من البخور المقدس ، وأشار برأسه لرئيسة المحظيات أن تنسحب .

وأسدلت الستر ولم يبق فى الغرفة إلا الملك وسارة ، وقبل أن يتحرك من مكانه نهضت سارة وانتبذت ركنا من الغرفة وشخصت ببصرها إلى السماء وراحت كل جارحة من جوارحها تصلى لله فما لبثت أن أحست أنها روح هفهافة تخلصت من سجن الجسد ، ولم تعد تحس قلقا ولا خوفا ولا رهبة ، بل طمأنينة وأمنا وسلاما .

وقام الملك وهو مأخوذ بجمالها ليبسط إليها يده ، فإذا به لا يجد فى نفسه حركة ، وامتلأ قلبه رهبة ، وغشيه رهق ، ولم يملك إلا أن يفر من ذلك النور الطاهر الذى يترقرق فى الوجه الجميل ، فدار على عقبيه وغادر الغرفة لا يلوى على شىء .

وجاءت الليلة التالية وانفرد الملك بسارة ، وقام ليبسط إليها يده فقبضت يده قبضة شديدة ، فنزلت به رهبة زلزلته زلزالا ، ووجد أن

خير ما يفعل أن يفر من الغرفة .

وفى الصباح اجتمع برئيس وزرائه وقال له :

ــ ائتنى بالكهنة والعرافين والسحرة .

وخرج رئيس الدين يدعو كهنة أواريس ، والملك يقول لنفسه :

ــ إنها شيطان وليست بشرا .. لم يأتونى بإنسانة .

وجاء الكهنة والعرافون والسحرة وقص عليهم الملك ما كان بينه وبين سارة ، فقاموا إلى معابدهم وقربوا القرابين لآلهتهم ، ثم عادوا إليه فقالوا :

ــ هذا من غضب الآلهة إذ هممت بامرأة رجل غريب .

فقال الملك فى دهش :

ــ أو هذه أول امرأة لرجل غريب أغتصبها ؟

فقال الكهنة :

ــ إنه رجل ذو سلطان .

وجاء المساء وانطلق الملك إلى الحريم وهو فى شك مما قال الكهنة والعرافون مريب ، فما كان يسعه أن يصدق أن الآلهة فى السماء تغضب لامرأة كسائر النساء ، فإن كانت ذات حظوة لدى الآلهة فلماذا تركتها تقع أسيرة بين يديه ؟

وقادته رئيسة الحبيسات المخدرات إلى غرفة سارة وقد خرست الألسنة وسكنت آلات الطرب وامحت الضحكات الخليعة الماجنة ، وراحت أعين الجميلات تقفو أثر الملك الذى شغف حبا بالجارية التى أمعنت فى صده وإذلاله .

وفتح باب الغرفة ودخل الملك ، ونظر فرأى سارة مستغرقة فى

الصلاة لم تشعر بإقباله ، فقد كانت متوجهة بكل كيانها إلى الله متصلة به ، تتهلل بفرح فياض مذ أنزل السكينة على قلبها لتزداد إيمانا .

ووقف يعجب من نفسه القلقة التى باتت تهاب امرأة ، ويقنع نفسه أن ما به إن هو إلا من أثر ما قال الكهنة والعرافون ، فأصم أذنيه عن وسوسات التخاذل التى أخذت تفح فى جوفه وتقدم خطوة ، فإذا بسارة قد أتمت صلاتها وأدارت وجهها نحوه فقال لها :

ـ ماذا كنت تفعلين ؟

ـ أصلى لله .

ـ ومن هو الله هذا ؟

ـ ربى وربك ورب الناس جميعا .

وأحس الملك تخاذلا يدب فى أوصاله ورهبة تغشاه ، وعزم على أن يقضى على خوفه فأطلق ضحكة ساخرة يشد بها أزر نفسه ، ومشى إليها وبسط يده ليضمها إليه فقبضت يده قبضة شديدة ، فقال لها فى توسل :

ـ ادعى الله أن يطلق يدى ولا أضرك .

فرفعت سارة عينيها إلى السماء ودعت الله فأطلقتْ يده ، فسولت إليه نفسه أن يبسط يده إليها كرة أخرى ففعل ، فقبضت يده قبضة أشد من الأولى .

ونظر إليها فى رجاء وقال :

ـ ادعى الله أن يطلق يدى فلك عهد الله ألا أضرك .

ففعلت وأطلقت يده ، ومد بصره إليها فرأى كأنما ينظر إلى عمود من نور يبده القلب ويغسل إفك النفس ويشيع فى الروح طهرا ، فقال

في خشوع :

— من أنت ؟

— امرأة من عباد الله كانت آمنة فى كنف زوجها قبل إغارة جنودك على خيامه .

— ومن زوجك ؟

— إبراهيم عبد الله ورسوله ، أرسله الله ليدعو إلى عبادته وحده لا شريك له .

— ما دمت زوجة رسول الله فلماذا تخلى الله عنك وعن رسوله وتركك تسقطين فى الأسر وتساقين سوقا مع السبايا ؟

فقالت سارة فى إيمان أذهل الملك :

— ما كان الله ليطلعنا على الغيب ، إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدرا .

٣

كلف المصريون بالنواح مذ راحت إيزيس تبكى حبيبها أزريس فى طول البلاد وعرضها وهى تنقب عنه بعد أن غدر به أخوه « ست » ، فراحت هاجر تذرف الدمع السخين على أميرها وحبيبها الذى تقضت الأيام دون أن تراه أو تبلغها أنباؤه .

المعركة دائرة هناك بينه وبين الهكسوس على الحدود الشمالية فى حصن الجدار الأبيض ، ترى لمن يكتب النصر ؟ أينتصر زوجها أمير منف صاحب الحق الشرعى أم ينتصر الظلم والطغيان ؟ أينتصر « ست » الشرير على « بتاح » الصانع الأعظم الذى خلق العالم ، قلب الآلهة ولسانهم ؟ إن بتاح قد انتصر فى عين شمس على « رع » إله الشمس ، حور الأفق ، من أبعد العواصف وأزجى المطر وحطم السحاب ، ومن يشرف على الآلهة ولا يشرف عليه إله .

ترى أيحارب الآلهة حقا ؟ أينتصر أحدهم وينهزم الآخر ؟ يقول كهنة منف إن بتاح انتصر على رع أيام كان كل منهما ملكا فى الأرض ؟ كان ذلك قبل أن يعود إلى السماء ، ترى أتدور المعارك هناك أيضا كما هى دائرة على الأرض ؟ إن كان ذلك حقا فأين السلام ؟

إن كان « ست » قد انتصر على « رع » وهزمه فلا بد أن تتوقف رحلة إله الشمس الأبدية ، ولكن ذلك لم يحدث ، فما يزال « رع » يجدف فى سفينته الملكية الفاخرة عبر المستنقعات السماوية .

ورفعت الأميرة هاجر عينيها إلى السماء فرأت الشمس ترسل نورها إل الكون كما اعتادت أن تراها مذ فتحت عينيها على النور لا أثر فيها لهزيمة ولا يبدو عليها الانكسار . إنها متألقة كأشد ما يكون التألق . فهبت هاجر منتصبة وصوت يدوى فى جنباتها :

— أوهام !

ونظرت نحو الغرب حيث هرم سقارة ومقابر العظماء . السكون يلف كل شيء لا حركة ولا نأمة . إن أصحاب هذه القبور قد أوقفوا الضياع ومحاصيلها لتقيهم فى قبورهم شر الجوع والعطش والبرد ، وعينوا الكهنة لتلاوة الصلوات ليسعدوا فى الحياة الأخرى ، وها هى ذى أوقافهم قد ذابت والكهنة قد كفوا عن الصلاة ، وقبورهم موحشة وحشة الموت .

وأخذت ترن فى كيانها مناجاة الكهنة للميت : « إن عظامك لن تفنى ولحمك لن يمرض وما أعضاؤك ببعيدة عنك . إن الآلهة تعيد لك رأسك وتجمع لك عظامك وتضم لك أعضاءك وتضع قلبك فى جوفك . قم لحبزك هذا الذى لن يجف ، وجعتك التى لن تتسنه ، إذ بهما تصبح روحا » .

وأحست هاجر أنها تتمزق وراح صوت يدوى فى جنباتها :

— أوهام !

وتذكرت الأحاديث الطويلة التى كانت تدور بينها وبين وصيفتها ! كانت كلها تدور حول الموت وما بعد الموت والحياة الأخرى . كانت أمنيتها أن تدفن فى أبيدوس حيث مقبرة أزريس إله العالم السفلى ، وقد أوصت وصيفتها إن تعذر دفنها هناك أن تقيم لوحا

حجريا فى رحاب قبر أزريس حتى يقبلها سيد أبيدوس فى مملكته السعيدة .

كان أزريس يعيش فى منف كما نعيش ، وقد قال الكهنة إن أخاه ست غدر به وقتله ، وأنه قام من بين الأموات وأصبح قاضى الموتى له ميزان يزن به أعمال البشر ، أيمكن أن يكون ذلك حقا ؟

وأحست هاجر أنها تتمزق وأن الشك يكاد يقتلها ، وراح صوت يدوى فى جنباتها :

ـ أوهام .. محض أوهام .

وراحت تقلب وجهها فى السماء والشجر والزرع والطير فإذا بها تحس لأول مرة حقيقة طالما سمعتها من الكهان : إن الإله يحل فى كل شىء : فى الشمس والقمر والنجوم والشجر والدواب والطير وفى كل ذات كبد رطبة ، إنه فى كل الناس ، إنه فيك .. يسرى مسرى الدم .

ورنت كلمة الناس غريبة فى أذنيها ، أحقا أن المصريين وحدهم هم الناس ومن عداهم ليسوا ناسا ؟ فماذا يكونون ؟ أليس الإله فيهم ؟ ألا يحل الإله إلا فى المصريين وحدهم ؟ إن الكهنة يقولون إن المصريين من نسل الآلهة أما الآخرون فذرية أعداء الآلهة . إن كان « بتاح » هو الذى خلق الخلق وهو الذى خلق الآلهة فمن الذى جعل شعبا فوق شعب ؟

أحست هاجر أنها تتمزق وربا الشك فى نفسها وراح يدوى فى جنباتها :

ـ أوهام .. أوهام .

وارتفع صوت بالغناء كان أقرب إلى العويل ، فأصاخت السمع :

إن المقدر الجميل قد وقع
تمضى الأجيال فتفنى أجساد .
وتبقى أخرى .
كان ذلك منذ عهد الأجداد .
الآلهة الذين وجدوا فى غابر الزمان
يستقرون فى أهرامهم .
وكذلك الأشراف والمبجلون قد رحلوا
ودفنوا فى أهرامهم .
وأولئك الذين بنوا مزارات لقبورهم .
وشيدوا الدور لم يعد لديارهم وجود .
ماذا حدث لهم ؟
لقد سمعت كلمات « أمحتب » و « حردادف »
— من يترنم الناس بأقوالهما فى كل مكان —
كيف حال ديارهما ؟
تهدمت جدرانها .
ولم يعد لديارهما وجود
كأن لم تغن بالأمس .
لا أحد يأتى من هناك ليحدثنا عن حال من رحلوا
ويخبرنا عن مآلهم ،
حتى تطمئن قلوبنا
إلى أن نرحل إلى هناك

إلى حيث قد رحلوا .
شجع فؤادك على أن ينسى ذلك
ومتع نفسك باتباع رغبتك
وأنت على قيد الحياة ،
وضع الطيب على رأسك
وارتد ملابسك من الكتان الرقيق
وضمخها بالعطور العجيبة ؛
فهذه أشياء الإله الأصيلة .
وزد كثيرا فى مسراتك
ولا تجعلن قلبك ييئس ،
واتبع ما تشتهى وما يطيب لك ،
فهذه شئونك على الأرض
حسبما يمليه عليك قلبك
إلى أن يأتى يوم مغيبك ،
حينما لا يسمع صاحب القلب الساكن نعيهم .
ولا الذى فى القبر يصغى للعويل .
اغتنم التمتع باليوم السعيد
ولا تجهدن نفسك فيه .
أصغ ! لم يأخذ إنسان متاعه معه
ولا تجهدن نفسك فيه .
وما من أحد ممن ذهبوا يعود .

وسمعت هاجر ضجة وصراخا وعويلا وصيحات وجلبة ، فدق

قلبها رعبا . إن ما تسمعه نذير قتال عند أبواب القصر يدور ، ولم تفكر في الفرار . وأين المفر إن كان أميرها وحبيبها قد قتل أو وقع أسيرا ؟

وجاءت الوصيفة من أقصى القصر تسعى وقد اتسعت عيناها رعبا تنتفض كحمامة وتقول وهي خائفة تترقب :

— الهكسوس .. الهكسوس ...

ثم فرت لا تلوى على شيء . وسارت هاجر صوب الجلبة وهي مأخوذة حزينة حتى الموت ، ترجو أن تصيبها طعنة خنجر أو يستقر في قلبها سهم لتستريح من ألم الروح وعذاب النفس ، فقد أبغضت الحياة وكرهت الناس وامتلأ قلبها مقتا لآلهتها جميعا أولئك الذين تحلوا عنهم ومكنوا الآسيويين منهم .

وتراءى لها جنود الهكسوس وهم يتقدمون منها وقد ثبتوا أنظارهم على ثعبان الأريوس المقدس الذى يزين رأسها ، وصاح صائح منهم :

— الأميرة .. الأميرة .

وأطبقوا عليها وأخذوها أسيرة ، وسارت بينهم مطأطئة الرأس كسيرة الفؤاد ، فلقد كتب عليها الهوان وأصبحت جارية ذليلة .

وأصدر قائد الحملة أوامره بإرسالها فيما أرسل من غنائم وأسلاب وأسرى إلى أواريس ، إلى البيت الكبير ، إلى الباب العالى ، إلى الملك .

ووقعت عيناها على القصر وعلى العرش العظيم وعلى معبد « بتاح » فغامت مآقيها بالدموع ؛ إنها تودع منف مخازن الغلال المقدسة الوداع الأخير .

وانطلقت قافلة اليأس بين الحقول إلى المجهول ، وراح فلاح

يغنى :

ألا إن اسمى أشد مقتا من رائحة الطير فى أيام الصيف
عندما تكون السماء حارة .
ألا إن اسمى أشد مقتا من مصايد السمك فى يوم صيد
السماء فيه حارة :
ألا إن اسمى أشد مقتا من رائحة الطير فوق الصفصاف
المملوءبالوز .
ألا إن اسمى أشد مقتا من رائحة الصيادين على شواطىء
المستنقعات بعد الصيد .

وجاشت العواطف فى صدر هاجر وودت لو تبكى حتى تتصدع كبدها من البكاء لتنفس عن الحزن الذى يضيّق أنفاسها ، ولكنها أحست بالعيون الشامتة ترصدها فلم تشأ أن تتخاذل أمام أعدائها ، فرفعت رأسها فى كبرياء وأصرت على أن تظل أميرة جديرة بإمارة منف العرش العظيم .

ودخلت مدينة أواريس يتألق على رأسها تاج الوجهين البحرى والقبلى وقد أحاط بها جنود الهكسوس . كانت شابة سمراء جميلة لم تتجاوز الخامسة والعشرين زادها جمالا مسحة الأسى التى ارتسمت على وجهها النبيل وأنفها الشامخ وجبينها المرفوع . كانت تحاول جاهدة أن تبدو فى أعين أعدائها — كما كانت دائما — أميرة مصرية من نسل الآلهة ؛ السيدة الجميلة سيدة القطرين وزوجة الإله وحبيبته .

كانت أواريس مدينة حديثة قامت فيها مسلات وتماثيل وحدائق وقصور ومعابد شامخة ومقابر هائلة ، إلا أنها كانت حديثة عهد

بالنعمة . أين هى من منف العريقة ، منف المقدسة ، منف درة الآلهة ومخازن غلالهم ؟ وهان القوم فى عينيها ، أين هم منها ؟ إنها من الناس وهم ليسوا ناسا ؟ إنها من نسل الآلهة وهم من نسل أعداء الآلهة . إنها من بيت الملك المقدس وهم من الأفاقين الرعاة المغتصبين .

ودخلت على الملك وعلى رأسها التاج وبين جوانحها ثورة عارمة ، وخرجت من عنده وقد نزع عنها التاج ونزل فى قلبها يأس مرير . قال لها الملك فى قسوة إن أميرها وحبيبها قتل ، لقى مصرعه على أيدى جنوده . وقهقه قهقهة وهو يقول إن هذا مصير كل من يقف فى سبيله . وقالت له إنه قاس مثل إلهه ست . يحب سفك الدماء كحب إلهه سفكها ، وسيلته الغدر كما هى وسيلة إلهه ، فإن زوجها سيقوم من الأموات كما قام أزريس وسينتقم منه ومن كل من اشترك فى سفك دمه .

وتلقفتها رئيسة الحبيسات المخدرات وانطلقت بها إلى الحريم لتكون محظية . وسارت هاجر معها مطرقة الرأس كسيرة الفؤاد ، وشغلت عن كل ما حولها بصوت المغنى الذى كان ينوح فى جنباتها :

أصغ ! لم يأخذ إنسان متاعه معه .

وما من أحد ممن ذهبوا يعود .

ولأول مرة انهمرت من مآقيها الدموع .

ودخلت غرفتها وأغلقت الباب خلفها فخيل إليها أن باب حياتها قد أقفل عليها ، انتهت أيام منف ولياليها وانقضت أيام عزها وسلطانها ومضت أيام مجدها كأمس الدابر ، تلاشى كل شيء كما يمضى الحلم الجميل .

أفل نجم هاجر سيدة القطرين الأميرة الجميلة زوجة الإله وحبيبته ، صار كل ذلك ذكرى فى جوف الزمن ، لم تعد هناك إلا هاجر الجارية المصرية .

ورنت كلمة الجارية فى أذنيها وفى ضميرها رنينا موحشا بغيضا فأجهشت بالبكاء .

٤

كان إبراهيم ولوط وإليعازر الدمشقى وبعض أتباع إبراهيم يطوون الأرض هابطين إلى مصر ، وكان إبراهيم رابط الجأش لم تذهب نفسه شعاعا لأسر سارة ، كان على يقين من أن سقوطها فى أيدى الهكسوس لم يكن غضبا من الله إنما كان خطوة من خطوات قدره لتتم كلمته . إن الله يفعل ما يريد .

وتجاوزوا الحدود التى تفصل مصر عن سيناء ودفعوا ما طلب منهم من مكوس ، ثم انطلقوا من جوشن بين النخيل والأعناب والأشجار الوارفة الظلال حتى بلغوا منديس ، فإذا قطط محنطة وتماثيل كثيرة لقطط وإذا الناس ينظرون إلى هذه القطط نظرات تقديس ، فلاح الدهش فى وجوه القادمين من فلسطين . ثم دخلوا معبد « باسنت » ينظرون فإذا برجال ونساء يعربدون ويطلقون ضحكات المجون .

ورأوا تمثالا لإلهة المعبد « باسنت » إلهة المرح ، وكان رأسها رأس قطة ففطنوا إلى سر تقديس القوم للقطط ، ولم يكن ما يجرى هناك غريبا على أعينهم فقد رأوا مثله فى معابد « عشتار » إلهة اللذة المنتشرة فى بلاد ما بين النهرين وسورية وفلسطين .

إن ما كان يجرى فى معبد باسنت هو عين ما كان يجرى فى معابد عشتار : كان النساء يقدمن أنفسهن قربانا على مذابح الشهوة إرضاء لإلهة اللذة وكن سعيدات بتضحياتهن ، وكان الناس فى منديس

يهيمون فى متاهات الضياع كإخوانهم فى أور وبابل ودمشق وإيليا وفى كل بقعة فى بقاع الأرض أقيم فيها معبد لإلهة اللذة تمارس فيه الدعارة باسم الدين .

رأى إبراهيم والذين معه تماثيل رجال لها رءوس عجول وكباش ، وتماثيل نساء لها رءوس قطط ، وتماثيل تماسيح وثيران وثعابين مقدسة ، وعلموا أن القوم يرمزون إلى كل إله من آلهتهم بحيوان من الحيوانات التى تمرح فى أرض مصر .

كان القوم فى بابل يعبدون الشمس والقمر والنجوم ومياه البحار والرياح والزوابع ويرمزون إلى هذه الظواهر بتماثيل ينحتونها على هيئة البشر ، أما المصريون فقد عبدوا آلهة الشمس والقمر والأرض والسماء والخضرة والخصب والخلود والحكمة ، وكانوا يرمزون إليه بأجسام بشرية ورءوس عجول وكباش وقطط وثعابين ، ويقولون إن أرواح الآلهة تحل فى أجسام تلك الحيوانات المقدسة !

وشد إبراهيم والذين معه الرحال إلى أواريس فلما بلغوها اتخذوا طريقهم إلى قصر الملك ، فمروا بمسلات وتماثيل ومعابد وكهنة ورجال يرتدون الكتان ، ويحملون الأثقال على رءوسهم ، ونساء يمارسن التجارة فى الأسواق ويحملن الأثقال على أكتافهن أو يحملن سلال القرابين على رءوسهن وهن فى طريقهن إلى المعابد .

كان عبير البخور ينتشر فى المعابد ، بينا كان عبير الدين يسرى فى جنبات وادى النيل فى الحقول والدور والقصور والقبور ، وفى كل مكان تتردد فيه أنفاس البشر .

ولاح لهم قصر الملك بأعمدته الفرعونية وحدائقه الغناء وشرفاته التى يشرق منها جلالته من أفقه ، وقد وقف الجنود على جانبى الباب

الكبير بملابسهم الفرعونية وفى أيديهم الرماح ، وانتشر فى فناء القصر بعض الضباط على صهوات جيادهم .

كان القصر رائعا يأخذ بالألباب إلا أن روعته لم تبهر إبراهيم فقد هانت الدنيا فى عينيه بعد أن تاقت نفسه إلى ما عند الله .

دخل إبراهيم ومن معه القصر مرفوعى الرءوس وطلبوا مقابلة الملك ، وجاء رئيس الوزراء وسأل عن سبب التماس المقابلة فقيل له إن جنود الملك أغاروا على خيامهم فى إيليا وأسروا سارة ، وإنهم إنما جاءوا ليفدوها من الأسر .

وسأل رئيس الوزراء عما يدفعونه للملك لقاء إطلاق سراحها ؟ فقيل له لو طلب الملك وزنها ذهبا لدفعناه .

وغاب رئيس الوزراء فى القصر ساعة ، ثم عاد ليقود إبراهيم ومن معه إلى قاعة العرش ، فلما دنوا منها التفت إليهم رئيس الوزراء وقال :

— إذا أشرق عليكم جلالته فخروا له ساجدين .

— إنا لا نسجد إلا لله .

ودخلوا على الملك بخطى ثابتة وقد انتصبت هاماتهم وفى أعينهم قوة وعزم ، يترقرق فى محياهم صفاء الإيمان وتنعكس على وجوههم طهارة القلوب .

كانت مفاجأة للملك فما دنا من جلالته إنسان إلا وقبل الأرض بين يديه وما رفع رأسه إلا ولاح فى لفتاته الهلع وارتعدت فرائصه ، فما بال هؤلاء القوم لا يرتجفون فرقا من جلالته ؟

استاءت نفسه بيد أنه جاهد ليكتم عواطفه وقال :

— أيكم إبراهيم ؟

فاتجهت أعين القوم إلى إبراهيم وراح الملك يمد إليه بصره ..
رجل مهيب تهفو إليه النفوس وتتفتح له القلوب ، جدير بكل احترام .

وأجلسه الملك بالقرب منه ودار بينهما حديث طويل ، ثم قال الملك :

ــ لا . لا أقبل فدية ممن صانها الله . إنها لك وما ينبغي أن تكون إلا لك .

ثم التفت إلى رئيس وزرائه وقال :

ــ إنهم ضيوفي فلينزلوا القصر على الرحب والسعة .

ودخل إبراهيم غرفة من غرف القصر وسرعان ما جاءت إليه سارة يتألق النور فى محياها ، فلما رأته غامت عيناها بالدموع وخفت إليه فهرع إليها وقال :

ــ ما خبرك ؟

ــ خيرا ، كف الله يد الفاجر .

فقام إبراهيم عليه السلام يصلى لله .

وفى الليل اجتمع الملك وإبراهيم ورئيس أسرار السماء والكاهن الأكبر ورئيس خزانة الإله ست وكاتب بيت الإله والزعيم الأول للفنانين ــ وكان يخدم الإله بتاح الفنان الأعظم ــ والمشرف على قطعان ثيران الإله وكاتب المذبح ، وكان الكهنة جميعا قد حلقوا رءوسهم بالموسى وارتدوا ثيابا بسيطة من الكتان إلا الذى يرى سر السماء فقد كان عن يسار الملك يرتدى جلدا تزينه النجوم .

كان الجو حارا فجلسوا فى جوسق فى حديقة القصر ينعمون بنسيم

الليل ويتطلعون إلى النجوم التى تتلألأ فى السماء الصافية الزرقاء .

وراح رئيس أسرار السماء ينظر فى النجوم ويتحدث ، ثم أشار إلى الشعرى وقال :

— هى روح أزريس .

ثم قال عن نجم الكلب إنه روح إيزيس ، وأن روح حوريس هى الجبار (الأوريون) ، أما سائر النجوم فهى أرواح ترتبط بالشمس فى دورانها ، وأنه عهد إلى النجوم الستة والثلاثين المنتشرة فى رقعة السماء حماية ساعات الليل والنهار .

ثم راح يتحدث عن مواقع النجوم وتقسيم الزمن حسب دورة الشمس لا دورة القمر ، وكيف أن الشهر مقداره ثلاثون يوما ، ولما كانت السنة الشمسية ثلاثمائة وخمسة وستين يوما وربع اليوم فقد أكملت السنة المصرية بخمسة أيام النسىء أضيفت إلى نهاية السنة . ثم راح يتحدث عن السنة الزراعية وكيف قسمت إلى ثلاثة فصول : الفيضان والبذر والحصاد ومقدار كل فصل أربعة أشهر . وأن فصل الفيضان يبدأ ببزوغ نجم الشعرى ، ولما كان أزريس هو الفيضان وهو النيل وهو إله الخصب ومن علم المصريين الزراعة ، فقد قالوا إن نجم الشعرى هو روح أزريس .

وراح إبراهيم يتحدث عن النجوم فقد تعلم الفلك من جده ناحور ومن أور وأبراجها التى شيدت عالية لرصد الكواكب ، وكان القوم فى أور يعبدونها ويقدمون إليها القرابين . وأذهل حديثه الكهنة وأدهش الملك ، إن السنة التى أكملت بخمسة أيام النسىء تجعل السنة تتخلف بمقدار يوم كامل كل أربع سنوات . إن سنتهم هذه متغيرة لا تتفق

فصولها ولا شهورها مع السنة الطبيعية ، فإن أرادوا أن تكون سنتهم غير متغيرة فعليهم أن يعتبروا اليوم الذى يظهر فيه نجم الشعرى فى السماء صباحا هو بدء السنة وبدء الفيضان .

وتحدث رئيس أسرار السماء عن أيام السعد وأيام النحس ، عن حسن الطالع وسوء الطالع ، فقال إن اليوم الأول من أمشير واليوم السابع والعشرين من هاتور يومان كلهما سعد وبركة ، ففى الأول رفعت السماء وفى الثانى عقد الصلح بين الإلهين ست وحور واتفقا على اقتسام العالم بينهما ، أما اليوم الرابع عشر من طوبة فهو يوم نحس مستمر ، ففيه بكت إيزيس وأختها نفتيس أخاهما أزريس .

وأفاض رئيس أسرار السماء فيما ينبغى عمله فى أيام السعد وما ينبغى تجنبه فى أيام النحس ، وذكر الأيام التى يكره فيها أكل السمك والأيام التى ينبغى فيها تجنب رؤية الفيران ، وأخذ يروى أساطيره فى إيمان شديد كأنما كان يقص وحيا أوحى إليه من السماء .

وقال إبراهيم عليه السلام :

ـــ الله الذى خلق السماوات والأرض ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، وما من إله إلا الله ، لا إله إلا هو الحى القيوم .

وراح يحدثهم عن تطيرهم : عن أيام السعد وأيام النحس ، فقال لهم : طائركم عند الله ، إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا ، له مقاليد السماوات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، وما كان

الله ليطلعكم على الغيب ، عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، إن الله عالم غيب السماوات والأرض إنه عليم بذات الصدور . ،

واستمر فى حديثه وقد تعلقت به أعين الملك والكهنة ، وقد سحرهم بيانه ، وراح الملك يتبادل النظرات والكاهن الأكبر كأنما يقول له : ترى ماذا تفعل معه غدا ؟ فقد كان من المقرر أن يزور الملك وإبراهيم الذى يأتى بأخبار السماء معابد الآلهة ، ليشاهد المراسيم المقدسة .

٥

راح الملك وإبراهيم والكهنة ورجال القصر يقطعون الطريق المقدس الذى يقود إلى معبد الإله ست وهو طريق مرصوف على جانبيه صفان من تماثيل أبى الهول . وبلغ الركب المقدس بوابات المعبد الضخمة وكانت ترتفع بميل مع الأبراج الحجرية المحيطة بها وتقوم عندها ساريات الأعلام عالية خفاقة ، واصطف الجنود فى أكمل زينة لاستقبال الملك وضيفه .. كان مشهدا فخما يهز المشاعر ويبهر النفوس .

وانطلقوا إلى الفناء الكبير وكانت أعمدته ضخمة غاية فى الروعة ، ومن ثم إلى باب فى جدار المعبد الخلفى دخلوا منه ، فإذا تراتيل الكهنة تتردد والمكان يعبق بالبخور .

وأطرق الملك فى خشية وراح إبراهيم يتلفت ، إنها قاعة واسعة بها أعمدة كثيرة ومذابح وموائد للقرابين وتماثيل للإله غريبة . بينها تمثال قرد ذى شعر أبيض وشكل سمح هو تحوت إله العلم وكاتب رسائل الآلهة . قال الكاهن الأعظم :

ـ على العاقل الحكيم أن يظل مخلصا للعلم وأن يصلى لتحوت إله العلم ليهبه المعونة وينير له الطريق . إنه لا ينسى زملاءه الأرضيين إذا دعوه .

ـ وكيف يدعونه ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـــ « تعال إلى حتى تهدينى ، واجعلنى حصيفا بارعا فى مهنتك ، فمهنتك أجمل المهن جميعا .

تعال إلى وأرشدنى فإنى خادم فى دارك .

دعنى أتحدث عن قوتك أينما حللت حتى يقول الناس جميعا : ما أعظم ما يفعله تحوت ، ثم يأتون إليك مع أولادهم ليصبحوا كتبة ، مهنة الحامى القوى النبيلة ، إن من يشغلها يتهلل بالفرح ويفعم بالسرور ويصبح قرين العين » .

ورأى إبراهيم على الجدار صور الملك بين آلهة كثيرة ، والإله ست يقدم إلى أنفه علامة الحياة ، على حين تباركه الإلهة بوضع يدها على كتفه ، بينا يسجل تحوت كاتب الآلهة ملايين السنين التى وهبتها الآلهة للملك .

وقال الكاهن الأعظم :

ـــ الآلهة تشكر جلالته على هذا المعبد الجليل .

وراح الكاهن الأعظم يقرأ ما كتب على لسان ست :

ـــ « إنى أهبك السنين حتى الخلود ، وحكما على القطرين فى سرور . ما بقيت أنا حيا فستبقى أنت حيا على الأرض ، متألقا كملك على الوجه القبلى وملك على الوجه البحرى على عرش حوريس الخاص بالأحياء ، وسيبقى اسمك ما بقيت السماء ، خالدا أبدا جزاء وفاقا على هذا الأثر الجميل الكبير الطاهر المكين الذى أقمته لى حتى تسعد بحياة الخلود .

أى بنى الحبيب ، إن قلبى ليبتهج عندما أرى بهاءك ، لقد جددت لى بيتى المقدس كأفق فى السماء ، لهذا فإنى أمنحك حياة رع

الأبدية » .

ورأى إبرهيم أن المعبد أقيم تمجيدا للملك لا تمجيدا للإله بيد أنه لم ينبس بكلمة وأخذ يتفرس فى التماثيل الأخرى الغرية ، ووقف أمام تمثال رجل له رأس الأبيس فقال الكاهن الأعظم :

ـــ إلهنا بتاح إله الفنانين والصناع ، من خلق الناس من الطين ونطق بالأسماء كلها .

وشرد إبراهيم ، إنهم يعرفون أن الإنسان خلق من طين وأن هناك من عرف الأسماء كلها ، ففى علمهم بذور الحقيقة ، إنهم يؤمنـــون بالخلود وبالبعث بعد الموت وبالحساب وبالثواب وبالعقاب ، جاءتهم هذه الحقائق عن رسالة كريمة إلا أنها طمست بفيض من الحزعبلات والأساطير .

ووقف إبراهيم أمام تمثال رجل له رأس ابن آوى .

فقال الكاهن الأعظم :

ـــ الإله أنوبيس ، وهو ابن غير شرعى لأزريس من أخته نفتيس .

ولاح فى وجه إبراهيم الدهش ؛ حتى آلهتهم لهم أبناء غيـــر شرعيين ، وحسب الملك أن إبراهيم لم يفهم مقالة الكاهن الأعظم فقال له :

ـــ كان أزريس متزوجا أخته إيزيس ، وكانت نفتيس أخته أيضا . وكانت تحبه حب إيزيس إياه وإن كانت زوجة لأخيها ست إلهنا العظيم . إن هذا فى صحفنا المقدسة ، وسيتلو عليك بعضها الكاهن الأعظم الليلة .

وراح إبراهيم يتفرس فى الكباش والقردة والقطط والعجول التى

زينت رءوسها تماثيل الآلهة ، وفطن الكاهن الأعظم إلى خيبة الأمل التى لاحت فى وجهه فقال له :

ــ قدسنا هذه الحيوانات لأن أرواح الآلهة تحل فيها .

أيقول لهم إبراهيم « لستم على شىء » ؟ كان إبراهيم فطنا حليما فآثر أن يتريث حتى تنتهى الزيارة وتبدأ بينه وبين الكهنة المناقشات والمناظرات التى اشتعلت مذ وطأت أقدامه قصر الملك فى أواريس .

ونحرت الذبائح وأطلق البخور وتكدست على موائد القربان الأطعمة من لحوم وفواكه وشراب الجعة ، وراح المرتلون العمى يرتلون للآلهة على هزات ا لسستروم (الشخشيخة) .

ودخل الملك والكاهن الأعظم وإبراهيم مقصورة مظلمة كان بها مغنيات الإله ست ، وكن يرتلن أناشيد الإله ويرفعن أصواتهن الجميلة بالابتهالات .

ولاحت المقصورة الوسطى ، قدس الأقداس ، حيث يوضع الإله ست إله الحرب ، من رفعه الهكسوس فوق آلهة البلاد جميعا .

وكتب على مدخل المقصورة : « أنا طاهر ... أنا طاهر .. أنا طاهر .. أنا طاهر » وما كان ينبغى أن يدخل « قدس الأقداس » إلا من كان طاهرا .

وراح الكاهن الأعظم يحرق البخور ويقرأ :

لقد صعدت إليك .

وطهورى فوق يدى .

ولقد مررت على الإلهة تفنوت فطهرتنى تفنوت .

أنا كاهن هذا المعبد وابن كاهنه .

أنا كاهن حضرت لأعمل ما ينبغى على المرء عمله ،
ولم أحضر لأعمل ما لا ينبغى عمله .

وتقدم هو والملك وإبراهيم إلى مقصورة الإله ، وبدأت رئيسة حريم الإله الجميلة اللطيفة ذات اليدين الطاهرتين والصوت المحبوب تغنى وتهز بيدها السستروم « الشخشيخة » .

تقدم الكاهن الأعظم إلى مقصورة الإله وحل رباطها وهو يقول :

ـ طرحت أرضا كل ما علىّ من شرور .

وفتح الكاهن الأعظم الباب وراح يبخر بالطيب حية الأوريوس المقدسة حامية الإله ، وتقدم نحو قدس الأقداس فى خشوع فلما وقعت عيناه على تمثال الإلهة خر ساجدا وقبل الأرض ، ثم انطرح على بطنه وعاد يقبل الأرض ، ثم أخذ يحيى الإله بأنشودة .

ركع الملك للإله أما إبراهيم فظل منتصبا وراح يسبح بحمد الله ويقدس له ويستغفره .

وقال الكاهن فى نبرات مرتجفة عامرة بالإيمان :

ـ سيزدان عرشك وتسمو أرديتك ويقف آلهة السماء العظام بين يديك . سيأتون من السماء وينزلون من الآفاق ليلقوا إليك السمع .

وأخذ يدنو من المقعد الكبير حيث يقوم تمثال ست ، ويقول دون أن يرفع رأسه :

ـ سلام على الإله ، سلام على الإله ، الروح الحية التى تقهر أعداءها . إن روحك معك وعصاك إلى جانبك .

وإنى لطاهر .

وأخذ فى إلباس الإله وهو يقول :

ـــ الثوب الأبيض يأتى .. الثوب الأخضر يأتى ..

وزين الكاهن تمثال الإلـه بالصولجـان وعصا الحكـم والسوط والأساور والخلاخيل ، ووضع فوق رأسه ريشتين وهو يقول :

ـــ لقد انتصرت على أعدائك وصرت أبهى الآلهة والأرواح المبيرة جميعا .

وقلد تمثال الإله قلادة وتميمة وشريطين أحمرين وآخرين أخضرين وثالثين أبيضين .

ثم راح الكاهن يتقهقر دون أن يولى الإله ظهره . وغادر الملك وإبراهيم قدس الأقداس ، وأغلق الكاهن الباب خلفه وهو يقول :

ـــ تحوت يحضر .. تحوت يحضر .. تحوت يحضر .. تحوت يحضر .. ما من شرير أو شريرة يدخل هذا المعبد . سيغلق بتاح الباب ويحكم إغلاقه تحوت ، سيقفل الباب ويحكم إغلاقه بالرتاج .

وانتهى الاحتفال الدينى ، وعاد إبراهيم إلى غرفته يفكر فى دين القوم ويسترجع صور تماثيلهم العجيبة وأساطيرهم ، إنه يرى بعين خياله إلهة الحرب « سخمت » ذات رأس اللبؤة ، إنها مثل عشتار عند البابليين عندما تكون إلهة الحرب ؛ قاسية متعطشة إلى الدماء لا يعرف قلبها الرحمة .

إن عشتار هناك فى بابل تجمع بين الحرب والحب واللذة ، أما هنا فى مصر فإن « سخمت » للحرب و « باسنت » للمرج واللذة ، و « بس » مقوس الساقين للحب ، فما أكثر الآلهة عند المصريين . إن لكل شىء إلها ، حتى الحبالى لهن إلهة تحميهن وهى على هيئة فرس نهر تسير منتصبة على ساقيها الخلفيتين وفى إحدى يديها علامة

هيروغليفية ترمز للحماية !

وآلهة المصريين يتزوجون وينجبون وأحيانا يأتون بأبناء غير شرعيين ، وقد يسر قبول هذه المعتقدات أن القوم يعتقدون أن آلهتهم كانوا من قبل ملوكا يحكمون على الأرض قبل أن يذهبوا إلى السماء .

السماء ؟ إنها مرة كامرأة انتثرت على جسدها الكواكب والنجوم ، ومرة كبقرة يحملها الإله « شو » وتسندها أرواح أخرى وعلى بطنها المزين بالنجوم تسير سفينة الشمس مرتين !

كيف تستقيم مثل هذه السذاجة مع اعتقاد الناس بالخلود والبعث والحساب والثواب والعقاب ! إن فى دين القوم ملامح عقيدة سماوية قيمة طغت عليها الأساطير لما طال على الناس الأمد وقست قلوبهم .

وتذكر إبراهيم أن الملك قال له مرة : « إن وحى الإله فى كل الناس » وقال له الكاهن أكثر من مرة : « أصغ إلى الإله الذى فيك » و « اتبع وحى الإله الذى فيك » . كيف يجتمع مثل هذا الفهم مع الآلهة الكثيرة التى تستعير رءوس العجول وأفراس البحر والقطط واللبؤات والقردة والتماسح ؟

وجاء الليل ودخل الكاهن الأعظم يغتسل قبل أن يحمل الكتاب المقدس وينطلق به إلى إبراهيم ، وراح يفكر فى الآيات التى يختارها ليتلوها على ذلك الرجل الفطن الحليم الذى يتمتع بمنطق سليم ، والذى تتدفق الحكمة من فيه كسلاسل الذهب .

ودخل الكاهن الأعظم على إبراهيم يحمل الكتاب المقدس بين يديه فى إجلال وتوقير ، ثم قال :

ـــ كنت أغتسل فإن الآلهة تغتسل سبع مرات إذا أرادت أن تقرأ فى

الكتاب المقدس .

وصمت إبراهيم ، آثر أن يتريث حتى يعلم ما عند القوم وإن أنكر فى نفسه أن الآلهة تغتسل وتقرأ ، وأن ثم آلهة غير الله ، تعالى الله عما يصفون .

وجلس الكاهن الأعظم وقال :

ـــ سأقرأ لك الآيات التى تروى كيف احتالت إيزيس حتى عرفت الاسم الأعظم للإله ، إن من يعرف الاسم الأعظم تسخر له قوى الكون وتتهتك أمام عينيه حجب الغيب ويستطيع أن يفعل ما يريد .

وصمت الكاهن قليلا ، ثم راح يقرأ :

ـــ فى العصور الغارقة فى القدم ظهر إله الشمس « رع » على الأرض ليحكم العالم ، فثار عليه الآلهة والناس ، ولكن « رع » انتصر عليهم وحكم زمنا طويلا فى أمن وسلام كملك على الناس والآلهة جميعا .

واستتب له الملك طالما كان مستمتعا بجميع قواه ، بيد أن شبابه لم يكن خالدا فدبت فيه الشيخوخة ، فيبست أعضاؤه واستحالت عظامه إلى فضة ولحمه إلى ذهب وشعره إلى لازورد .

وثارت عليه رعيته ، وكان من الثائرين عليه الإلهة إيزيس وكانت أوسع حيلة وأدهى من ملايين البشر وملايين الآلهة وملايين الأرواح ، كانت تعرف كل ما فى السماء وكل ما فى الأرض مثل الإله « رع » نفسه ، ما عدا شيئا واحدا لم تكن تعرفه وكان ذلك يحد من قوتها ، ألا وهو الاسم الأعظم : الاسم السرى للإله رع .

كان رع ذا الأسماء الكثيرة يحتفظ باسمه الأعظم سرا إذ كانت

قوته مستمدة منه ، وكانت إيزيس تحاول جاهدة أن تعرف هذا الاسم ، حتى إذا بلغ الإله من الكبر عتيا وسال لعابه من فمه وسقط لهيبه على الأرض ، عجنته إيزيس بيدها مع التراب الذى امتزج به وصاغت منه دودة مكرمة .

وأقبل « رع » الكريم وهو يتألق تحف به آلهة القصر وراح يسير كعادته كل يوم ، فألقت إيزيس الدودة المكرمة فى طريقه فلدغته ، فصرخ الإله المقدس فمه وشق صوت جلالته أجواز السماء ، وصاح مجمع آلهته « ماذا ؟ ماذا ؟ » وصاحت آلهته : « ما الخبر ؟ ما الخبر ؟ » فلم يجد لسانه ليجيبهم وأخذت شفتاه تختلجان وأعضاؤه ترتعد واحترق السم لحمه كما يخترق النيل ملكه .

ولما عاود قلب الإله العظيم هدوءه نادى حاشيته قائلا : « تعالوا إلىّ أنتم يا من خرجتم من جسمى ، أيها الآلهة الذين خلقتم منى ، لكى أحيطكم خبرا بما حدث : لقد لدغنى شىء فاجع مؤلم لم يعرفه قلبى ولم تره عيناى ولم تصنعه يداى ولا أعرفه من بين كل ماصنعته . إنى لم أذق أبدا ألما شبيها بهذا الألم ولا يوجد ما هو أشد إيلاما منه .

أنا عظيم ابن عظيم ، أنا ماء الحياة الذى تدفق من إله ، أنا ساحر ابن ساحر ، لقد ابتدع أبى اسمى وإن لى لأسماء كثيرة وأشكالا عدة ، وإن شكلى فى كل إله .

لقد حدثنى أبى وأمى باسمى بيد أنه مخبوء فى جسمى حتى لا يتغلب علىّ ساحر أو ساحرة ، لقد خرجت أنظر ما صنعته يداى وأختال فى القطرين اللذين خلقتهما وإذا بشىء لدغنى لا أعرفه . ليست هى النار وليس هو الماء . إن قلبى مفعم باللهيب المتقد وجسمى يرتعد

وجميع أعضائى تسرى فيها البرودة .

والآن أدعو إلىّ أبناء الآلهة الذين يستطيعون الكلام بما ينفع ويفيد ، والذين لهم فم ذو معرفة وحكمة ، من بلغت حكمتهم عنان السماء .

عند ذلك حضر إليه أبناء الآلهة كل منهم مفعم بغمه ، وحضرت إيزيس بحكمتها وفمها الذى هو أنفاس الحياة وحديثها الذى يطرد الآلام ، وأخذت تقول : « ماذا .. ماذا أيها الأب الإلهى ؟ ما خطبك ؟ أدودة سببت لك كل هذا الألم ؟ أشق عصا طاعتك ابن من أبنائك ؟ إذن لأنتقمن منه بسحر مستمر ، ولأجعلنه يتلاشى أمام رؤية أشعتك .

خبرنى باسمك أيها الأب الإلهى . فمن يرق باسمك يبقى حيا إلى الأبد .

ـــ أنا الذى خلقت السماء والأرض وأرسيت الجبال وأنشأت ما عليها ..

أنا الذى خلقت الماء ووهبت العجل للبقرة . أنا الذى خلقت السماء وأسرار الأفقين ووضعت أرواح الآلهة فيها .

أنا الذى إذا فتحت عينى كان النور ، وإذا ما أغمضتهما كان الظلام ، أنا من يجرى ماء النيل بأمرى ، أنا من صنعت الساعات فكانت الأيام .

ولم يخرج السم ولم يتعاف الإله فقالت له إيزيس :

ـــ إن اسمك ليس بين ما ذكرت من أسماء ، فانطق به حتى يخرج السم من جسدك ، فإن من ينطق بالاسم الأعظم يحيا .

واشتد سريان السم فكان أنكى من لهيب النار ، ولم يعد رع بقادر

على أن يتحملَ الآلام فقال لإيزيس :

— قربى أذنك منى يا أختى حتى ينتقل اسمىَ من جسمى إلى جسمك .

وباح رع لإيزيس بالسر الخطير .

وراح الكاهن الأعظم يقرأ فى كتبه المقدسة وإبراهيم يصغى ويتعجب فإن فى تلك الأساطير بصيصا من نور الحق ، لمحات من قدرة الله الخالق الذى بنى السماء وطحى الأرض وجعل فيها رواسى وجبالا ، وخلق الليل والنهار وجعل الشمس والقمر حسبانا ، بيد أن ذلك البصيص من الحق ضاع فى زحمة ما جاءت به عقول الكهنة !

واجتمع المَلك وإبراهيم والكهنة ، ودار الحوار حول الآلهة والقرابين فقال إبراهيم :

— يا قوم اعبدوا الله ما لكم منْ إله غيره . وما من إله إلا إله واحد هو خالق كل شىء .

— أتأمرنا أن نعبد « رع » وحده الذى أبعد العواصف وأزجى المطر وحطم السحاب ؟ من يشرف على كل الآلهة ولا يشرف عليه إله ما ؟ من سوى الناس بأصابعه و ...

فقال إبراهيم :

— إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار .

— و « بتاح » و « أزريس » و « ست » وآلهتنا الأخرى ؟

— ولا تجعلوا مع الله إلها آخر ، إنى لكم منه نذير مبين .

— أتجعل الآلهة إلها واحدا ؟ آلهة السماء وآلهة الأرض ؟

— لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا . وما كان معه من إله إذن لذهب

كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون .·. إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين . ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها ؟..

ــ أإلهك يا إبراهيم خير من آلهتنا ؟ أيستطيع وحده أن يرعى السماء والأرض ، ويزجي السحاب ، وينزل من السماء ماء ، ويرسل الضياء ، ويشرف على الفنانين ويقود الجيوش فى الحرب ويزن أعمال البشر بعد الموت ؟.

ــ أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ؟ أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون . أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا ؟ أإله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون . أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإله مع الله ؟ قليلا ما تذكرون . أمَّن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرى بين يدى رحمته ؟ أإله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون . أمَّن يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ أإله مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . قل لا يعلم من فى السماوات والأرض الغيب إلا الله وحده وما يشعرون أيان يبعثون .

ــ إذا كان إلهك وحده لا شريك له فمن الذى يرفع السماء معه ؟

ــ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ... الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس

والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون .

ـــ وكيف تتقرب إلى ربك ؟ إنك مذ كنت بيننا لم تقدم له طعاما ولا شرابا ولم تنحر له قربانا .

ـــ أتقرب إلى الله بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ـــ والذبائح ؟

ـــ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم .

واستمر الحوار حتى انتصف الليل ، فقام الملك والكهنة وانصرفوا وهم فى حيرة من أمرهم .

٦

لم يستقر إبراهيم فى أواريس بل استأذن الملك فى أن يسافر إلى عين شمس ومنف ليقابل كهنة « رع » و « بتاح » ، ولو كان الأمر استتب للهكسوس فى مصر العليا لاستأذن فى الذهاب إلى طيبة لمقابلة كهنة « آمون » ، فقد كان يرجو أن يبلغ رسالات ربه إلى الكهنة وأن يدعوهم إلى عبادة رب العالمين .

كان إبراهيم يطمع فى إسلام القوم ، فقد استطاع بنفاذ بصيرته أن يجد فى عقائدهم التى زخرت بالخرافات ونبضت بالأساطير بقايا عقيدة سماوية تعرف أن لهذا الكون إلها خلق الناس جميعا ، إلها يدعو إلى مكارم الأخلاق ويثيب المحسن على إحسانه ويجازى المسيء على إساءته ، إلها قادرا على بعث من فى القبور ، وهو مالك يوم الدين .

أطلقوا على ذلك الإله « آتوم » ثم « رع » ثم « بتاح » ، وقالوا إنه خلق الإنسان من طين ، ورمزوا إليه بالشمس المجنحة مرة ، وبالصقر فى الجنوب مرة ، فقد خيل للقوم أن الصقر رفيق الشمس فى علوها ، وأنه لا بد أن تكون الشمس صقرا مثله ، تطير عبر السماوات كل يوم ، وأطلقوا على ذلك الإله اسم « حور » وصوروه على هيئة قرص الشمس ذى الجناحين المنشورين .

كان القوم يعتقدون أن ثم إلها ، أيا كان اسمه ، قد خلق الناس

والشمس والقمر والنجوم وإن كانت الأساطير قد جعلت من صفاته آلهة تارة أو جعلت الآلهة صورا منه تارة أخرى ، فقد كان الآلهة جميعا صورا لبتاح ، وإن أوجدوا بصر الأعين وسمع الآذان وتنفس الآناف لتصل جميعها إلى القلب الذى يصدر كل قرار ، ليقوم اللسان بإعلان فكر القلب .

كان بتاح هو القلب فى كل صدر واللسان فى كل فم ، وكان أزريس هو الذى يرعى الموتى ويحاسب البشر يوم البعث . إن القوم يؤمنون بالقيامة ، بالحياة بعد الموت ، بينا كان البابليون لا يؤمنون إلا بالعالم السفلى . فالأمر أيسر فى وادى النيل منه فى بلاد ما بين النهرين فى إقناع القوم أن الله خالق كل شىء وأنه قلب المؤمن ولسانه وأنه قادر على أن يبعث من فى القبور دون إقامة تماثيل لهم ، أو بذل جهد للمحافظة على أجسامهم بالصلوات والقرابين والسحر .

وركب إبراهيم وسارة ولوط وإليعازر الدمشقى ومن معهم من المؤمنين قوارب فى النيل ، وكانوا على علم بالأنهار ولكن هذا النهر بدا لهم غريبا ، فهو يجرى من الجنوب إلى الشمال بينا كانت كل الأنهار التى عرفوها تجرى من الشمال إلى الجنوب .

كانت زهور اللوتس تغطى سطح الماء والتيار يحرف أمامه أجمات البردى ، والطيور المائية ترفرف بأجنحتها فى السماء والشمس ترسل أشعتها فتملأ الكون سنى وضياء .

ومد إبراهيم عينيه إلى الأرض السوداء الممتدة على جانبى النيل . كانت أشجار النخيل على مدى البصر ، وقامت هنا وهناك أشجار الجميز والسنط والتين والليمون واكتسى الوادي بحلة خضراء ، فسبح

إبراهيم لله رب العالمين .

وبلغ ومن معه أهرام الجيزة وكان كل شيء هادئا ، كان المعبد خاويا وما كانت الذبائح تنحر ولا الصلوات تتلى ولا الابتهالات ترتل . إن الملوك العظام الذين بنوا هذه الأهرام لصيانة أجسامهم من البلى قد أوقفوا على قبورهم ريع كل ما كانوا يملكون ، وعينوا كهنة جنازيين يصلون عليهم حتى قيام الساعة لتقيهم صلاتهم شر الجوع والعطش والبرد في الحياة الآخرة ، وتمكنهم من الاشتراك في أعياد السنة والاحتفالات الدينية . كانوا لا يريدون أن يحرموا في الآخرة ما كانوا ينعمون به في الدنيا .

وسأل سائل ممن كانوا مع إبراهيم :

ــ لماذا بنيتم هذه الأهرام ؟

فرد عليه كاهن كان يرافقهم :

ــ لكيما تخلد أجسام الملوك وتبقى سليمة حتى تعود إليها الروح يوم يبعثون .

ــ إن من خلق السماوات والأرض قادر على أن يبعثنا خلقا جديدا إذا كنا عظاما ورفاتا .

قال الكاهن :

ــ وقد أقيم الهرم فوق جثمان الملك ، ليحيي فرعون أباه إله الشمس عندما يبزغ من أفقه ، وليتمكن من رؤية رب الأفق عندما يقلع في عرض السماء .

قال إبراهيم :

ــ لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

قال الكاهن :

ـ إن الفراعين لا يموتون بل يأتون معظمين فى الأفق ، وما سافروا أمواتا بل سافروا أحياء ، سافروا ليعيشوا ، فهم يفرون من الموت ، ويتحدون بإله الشمس إذ هم من نسل الآلهة .

ـ إذا كان هذا حال الملوك ؛ فما مآل الناس ؟

ـ يصبحون بعد الموت فى رعاية أزريس .

ـ ومن يقدم القرابين لأرواحهم ؟

ـ أسرهم ومعارفهم وجيرانهم .

ـ وإذا انقرضت أسرهم وذاق معارفهم الموت وغاب جيرانهم فى القبور ؟

فشرد الكاهن قليلا ثم قال :

ـ لا بد أن للخلود طريقا آخر غير طريق القرابين .

فقال إبراهيم :

ـ من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا .

وانطلقوا إلى « عين شمس » وكانت أشبه بمعبد كبير ، ولا غرو فهى المدينة المقدسة التى ولد فيها الآلهة . كانت المسلات قائمة فى كل مكان ترمز لرع إله الشمس ، فذكرت إبراهيم وسارة ولوط بأبراج أور التى شيدت لسين إله القمر ـ وقد غصت الشوارع بالكهنة والمصلين .

وأشرف إبراهيم ومن معه على معبد الشمس الكبير ، وكان يقوم

وسط فناء واسع ويحيط به ممر حجرى . كان عبارة عن مسلة حجرية فوق قاعدة عالية ، وتتألق قمة المسلة المدببة المموهة بالذهب فى أشعة الشمس المشرقة . وأمام المسلة كان المذبح الضخم ، وكانت القرابين تقدم إلى الشمس فى الهواء الطلق .

دنا إبراهيم ومن معه من المعبد فإذا بجنبه سفينة كبيرة بنيت جدرانها من اللبن . إنها السفينة التى يعتقد القوم أن إله الشمس يسبح بها فى السماء كل يوم .

وعندما تطلع الشمس من المشرق فى الصباح وتطرد الظلام ، تهلل الكائنات الحية ، وتعلن القردة وهى حيوانات تحوت إله الحكمة ، تعلن برفع أيديها شروق الكوكب ذى النعم .

وفى جانب من الممر الذى يفضى إلى قاعدة المسلة رأى إبراهيم نقوشا ذات ألوان زاهية على الجدران تعرض ما يجرى فى فصول السنة المختلفة من تكاثر النبات وتناسل الحيوان ومن أعمال الناس . .

وأصغى إبراهيم ومن معه إلى تمجيدات « رع » إله الشمس من كهنة عين شمس :

ـــ الصلاة لك يا رع عند الشروق وأتوم عند الغروب ، إنك تشرق وتشرق وتسطع وتسطع متوجا كملك الآلهة . أنت رب السماء ورب الأرض من خلق الكائنات العليا والسفلى والنجوم والبشر .

أيها الإله الأحد الذى كان منذ البدء ، من أنشأ العالم وخلق البشر ، من أنزل من السماء ماء وأجرى النيل ، من خلق الماء وأحيا ما فيه ، من أرسى الجبال وخلق الإنسان والدواب .

أصغى إبراهيم وهو يعجب من أمر هؤلاء القوم كيف قبلت عقولهم

التى سمت إلى مثل هذا التوحيد أن تعبد العجل والقرد والحية والتمساح ، وأن تعتقد أن أرواح الآلهة تحل فيها ؟

كيف تصورت هذه العقول أن الإله يركب سفينة فاخرة يعبر بها السماء ؟ وأن للإله زوجة وابنا وأنه يعيش بين أسرته كما يعيش الناس ؟

واجتمع إبراهيم وصحبه بكهنة عين شمس ودار الحوار واحتدمت المناقشات ، قال إبراهيم :

— ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء .. ما تعبدون من دون الله إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه .

وقال كبير كهنة « رع » :

— إننا نعبد « رع » الذى خلق السماوات والأرض والذى كان منذ البدء وخلق الناس .

— الله الذى خلق السماوات والأرض .. والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين .

— إن رع يشرق علينا من أفقه ، فمن أين يشرق ربك ؟

— ربى لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير .. لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل .

وتدفق إبراهيم فى الحديث وكان قوى الحجة يجذب القلوب وألقى إليه الكهنة أسماعهم ولم يثوروا فقد تفتحت نفوسهم لدعوته ومالوا إلى دين التوحيد .

ثم انطلق إبراهيم ومن معه إلى منف والتقى بكهنتها وسمع صلواتهم

التي يرفعونها إلى « بتاح » الذى خلق إله الشمس وبرأ الآلهة وعرف الأسماء كلها .

ودارت المناقشات بين إبراهيم وصحبه وبين كهنة منف ، ولم تحتدم المناقشة ولم يثر الكهنة فإن دعوة إبراهيم كانت ترفعهم من الطبيعة إلى ما فوق الطبيعة ، كانت تدعوهم إلى التحرر من عبادة أصنام لا تضر ولا تنفع إلى عبادة إله واحد .. له ما فى السماوات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى .. وسع كل شيء علما .. لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة .

وذاع أمر إبراهيم بين الناس وإنكاره القرابين . إنه يقول إن الله لا يأكل ولا يشرب ، وأن التقرب إلى الله إنما يكون بالتقوى ، فامتنع الناس عن إرسال الهدايا إلى المعابد ، وأحس الكهنة خطر هذه الدعوة على مصالحهم فتأهبوا لمناجزتها .

ولما بلغت دعوة إبراهيم كهنة آمون قالوا للناس إنها دعوة وفدت عليهم من بلاد الأعداء من أواريس ، وما قصد بها إلا النيل من آمون والتمكين لـ « ست » إله الهكسوس .

كان كهنة آمون مترفين يملكون الضياع ويكنزون الذهب والفضة ، وكان لهم على الناس سلطان ونفوذ ، فإذا انتشرت دعوة إبراهيم التى تقول إن المرء يستطيع أن يعبد ربه دون وساطة كاهن ودون تقديم الهدايا للمعبد أو نذر النذور للإله ، فستذهب ريحهم ويتقوض سلطانهم .

بذر إبراهيم بذرة التوحيد وبذر معها بذور الثورة على كهنة آمون ، فراح الكهنة فى أواريس وعين شمس ومنف يجمعون الآلهة المتناثرة

فى إله واحد فجعلوا بتاح ورع وأزريس إلها واحدا ، إلا أنهم لم يعتنقوا دين إبراهيم خشية أن تدول دولتهم .

رحب الشعب بالتوحيد ورحب ملك الهكسوس بالدين الجديد ، إلا أن مصائر الأمة كانت كلها فى قبضة يد الكهنة ، وما كان الكهنة ليفرطوا فى سلطانهم أو يتنازلوا عن نفوذهم بنفوس طيبة .

واستأذن إبراهيم فى الرحيل بعد أن أيقن أن الدين فى وادى النيل آل إلى سلطان الكهان ، وأن مصر ليست مهدا صالحا للرسالة وإن كان فى ديانة القوم بعض ما فى عقيدة التوحيد .

وأعطى الملك إبراهيم أنعاما وهدايا وخيرات وفيرة ، ووهب لسارة هاجر التى كانت بالأمس أميرة منف عظيمة الرشاقة سيدة القطرين .

وانطلقت قافلة إبراهيم من أواريس ، وكانت الأنعام والأغنام والجمال والحمير تثير الغبار والعبيد يسيرون خلف القافلة . كانت قافلة تنم عن ثراء عريض ، وما دار بخلد إبراهيم فى تلك اللحظة أن أثمن ما عاد به من مصر هى تلك الجارية التى وهبها الملك لسارة ، تلك الجارية السمراء الجميلة ، هاجر المصرية التى أراد الله أن يربط بينه وبينها الأسباب ليتم نوره ، إن هذا لشىء يراد .

وسار إبراهيم على رأس القافلة يسبح لله . إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ، شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم .

٧

خرجت هاجر من أواريس وهى تحس أنها تتمزق من الحزن ، فقد تخلت عنها الآلهة جميعا فسقطت فى الأسر وتركت قصورها ومجدها وعزها لقوم آخرين .

أعرض عنها بتاح ولم يحم عرشها رع ولم ينافح عنها حور المدافع عن أبيه ، وساقها أعداؤها أسيرة ذليلة إلى أواريس . لقد كانت تتمنى الموت ولكن أزريس لم يرحب بها فى مملكته ، إنها لم تتمن يوما أن تدفن فى أبيدوس ولكنها فى هذا اليوم تتلهف على أن تدفن فى أرض مصر .

رفعت عينيها إلى السماء فحبس لسانها فى حلقها وخرس ضميرها ، فما كانت تدرى لأى إله تبتهل وقد خاصمتها الآلهة ، حتى « ست » الإله الشرير طردها من أواريس .

كانت الشمس ساطعة ترسل أشعتها الذهبية فتنير السبل وتبدد الظلام ، بيد أن هاجر كانت لا ترى شيئا .. كانت مشغولة بالتيه الذى تضرب فيه ، مشغولة بالضياع الواسع العريض ، كانت كالغريق الذى لا يجد من ينتشله ولا ينعم بالراحة فى أحضان الموت .

وانسابت القافلة فى أرض جوشن ، ثم حطت رحالها فقام إبراهيم للصلاة واصطف المؤمنون خلفه . ونظرت هاجر أول الأمر فى غير

اكتراث وسرعان ما وجدت نفسها ترقب القوم فى اهتمام ، إنهم يصلون فى الخلاء لا معبد ولا مذبح ولا كهان ولا إطلاق بخور ، إلا أنها أحست إحساسا عميقا أن الأسباب قد اتصلت بينهم وبين السماء .

ترى أى إله هذا الذى يعبدونه ويقفون بين يديه هكذا خاشعين ؟ إنها لم تر تمثالا يخرون له ساجدين ، ولكنها رأتهم يركعون ويسجدون ويجهرون بالدعوات وقد تألق فى وجوههم نور لم تر مثله فى وجوه الكهنة العظام ولا رؤساء أسرار السماء .

ودخلت هاجر على سارة فى خيمتها وسألتها عن ذلك الإله الذى يعبدون ؟ فقالت لها سارة :

— إنه الله الذى لا إله إلا هو خالق السماء والأرض ، يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير .

— ومتى حكم على الأرض ؟

— ما كان ملكا أرضيا فى زمن من الأزمان . إنه قديم قدم الأزل ، إنه الأول لا أحد قبله والآخر لا أحد بعده . الله الذى خلق السماوات ومن فى الأرض .. يعلم ما فى السماوات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون .. والله عليم بذات الصدور .. ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم .. والله يرزق من يشاء بغير حساب .. وإن الله لهو الغنى الحميد .. وأن الله يبعث من فى القبور .. ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب .

— أتعبدون إلها لا ترونه ؟

— إن كنا لا نراه فهو يرانا . إنه معنا فى كل وقت وهو معنا فى كل مكان يسمع سرنا ونجوانا . ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا

خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شيء عليم .

ــ أيرعى وحده السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والعواصف والرياح والأنهار ومن يغربون فى الغرب ؟

ــ من يغربون فى الغرب ؟

ــ من يذهبون ولا يعودون .

ــ تقصدين الموتى ؟

ــ إننا نقول إنهم أحياء كأزريس الذى قام بعد الموت .

ــ ونحن نقول : إنهم أحياء عند ربهم يرزقون .

ــ أيرعى وحده هذا الكون الواسع العريض ؟

ــ ما هذا الكون فى ملك الله إلا كذرة رمال فى صحراء شاسعة . لله ملك السماوات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير .

ــ إن لم يكن إلهكم ملكا على الأرض ولم تروه ولم تسمعوا صوته فكيف عرفتموه وآمنتم به ؟

ــ إن الله يصطفى رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

ــ أو تصدقون الرسل ؟

ــ إنهم يحسنون الحسن ويقبحون القبيح ويقولون لنا .. سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشيء النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير .. انظروا ما فى السماء والأرض . أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت .. سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى

أنفسهم .

إنهم يفتحون أبصارنا وبصائرنا على آيات الله وعلى قدرته وعلى بدائع صنعته حتى نحس الله فى أنفسنا .

وأذن بالرحيل وانطلقت العير وإبراهيم على رأس القافلة تتردد أنفاسه تسبيحا فى معبد الكون . كانت القافلة تموج موجا بالإماء والعبيد والأنعام والأغنام والجمال والحمير ، وكانت الهدايا الفاخرة والذهب والفضة على ظهور الدواب . كانت قافلة قوية غنية بيد أن قلب إبراهيم لم يتعلق بمتاع الدنيا لحظة ، بل كان يتجه بكل كيانه آناء الليل وأطراف النهار إلى الله رب العالمين .

وانسابت القافلة فى سيناء فى الفضاء العريض وأخذت هاجر تقلب وجهها فى الكون فخيل إليها أنها ترى هذه الدنيا لأول مرة ، إنها تستشف جمالا رائعا فى قصور منف وعين شمس وأواريس . امتلأت جوانحها خشوعا لم تحس مثله فى معابد رع وبتاح وأزريس والآلهة الأخرى ، وكان صفير الرياح أوقع فى نفسها من تراتيل المرتلين وغناء المغنيات وصلصلة « الشخاشيخ » .

لقد كان الكاهن الأعظم يحدثها عن الإله الذى فى نفسها والبحور يتصاعد والقرابين تقدم على المذابح وتماثيل الآلهة أمام عينيها . فلم تحس يوما أن الله فى أعماقها كإحساسها فى تلك اللحظة التى خلت من الكاهن والبخور والمذبح والتماثيل .

إنها قريبة من الله تشعر بوجوده أكثر مما كانت تشعر بوجود رع وبتاح وأزريس وإن كانت ترى تماثيلهم ، وإن كانت القرابين تقدم إليهم ، وإن كان الكهنة يضمخونهم بالعطور المجلوبة من الأرض

المقدسة !

ونامت هاجر فرأت فى المنام رؤى مجنحة ، رأت نفسها روحا هفهافة تسبح فى بحر من النور ، ورأت أن ماء طاهرا غسل صدرها وأزال الأدران عن قلبها ، و أن طيبا مس جسدها له عبير يفوق عبير عطور الأرض طرا .

و قامت من نومها وهى سعيدة بما رأت ، ولكن سعادتها انقلبت إلى دهشة عندما أحست رائحة الطيب التى شمتها فى حلمها تملأ أنفها ، وراحت تشم نفسها وهى فى حيرة من أمرها . إنها لم تتطيب منذ غادرت أواريس ، منذ وضعها الملك جارية فى يد سارة ، وحتى إن كانت تطيبت فشذا هذا العطر الذى تشمه الآن يفوق شذا كل العطور التى عرفت طريقها إلى أنفها طول حياتها .

« ترى أما أزال أحلم ؟! أهذا الشذا الذكى وهم من الأوهام ؟ أيبلغ تأثير الحلم أن أظل أشم ما كنت أشمه فى منامى حتى بعد يقظتى ؟ » .

وسارت هاجر وهى فى حيرة من أمرها إلى حيث كانت سارة ، حتى إذا قالت لها سارة : « ما أطيب ريحك اليوم يا هاجر ! » أيقنت أن ما رأته فى منامها إن هو إلا رؤيا صادقة .

وقضيت الصلاة وجلس إبراهيم يفقه من معه فى أمر دينهم ، فراحت هاجر تصغى إليه متفتحة النفس حاضرة القلب تحس إحساس الفرح الذى أحسته عندما رأت فى منامها أنها تسبح فى النور ، وأن ماء طاهرا صب فى جوفها فغسل صدرها وأزال أدران فؤادها .

إنها تشعر أنها خلقت خلقا آخر ، أنها ولدت من جديد . وراحت تفكر فى أمرها ؛ لقد حسبت أن الآلهة أرادت بها شرا لما تركتها

تسقط أسيرة فى أيدى أعدائها ، فإذا بها ترى الآن أن الله أراد بها الرشد ، أراد لها الهداية ، أراد لها أن تكون مؤمنة فى قافلة الإيمان .

أحست أنها كانت سجينة فى قصر منف وأن الله أطلق سراحها . أنها كانت أسيرة أوهام وأن الله حرر روحها وأزال عن عينيها غشاوة الضلالة .

كانت تغتسل قبل أن تذهب إلى المعبد فكان الماء يطهر جسدها ، أما روحها فتبقى غارقة فى الدنس ، أما اليوم فإن قليلا من الماء يجعل روحها تتألق بالنور .

كانت تصغى إلى الكاهن وهو يتلو صلاته وإلى المرتلين وهم يرتلون تمجيدات الآلهة وإلى المغنين والمغنيات وهم يترنمون بعظمة الأرباب دون أن تنفعل أو يرتجف قلبها . كانت حاضرة ثم بجسدها أما ذهنها فكان يجرى وراء الموائد التى سوف تقيمها لأصحابها ووراء رحلات الصيد والمرح التى سوف يخرجون إليها .

كانت سيدة القطرين عظيمة الفضل عظيمة الرشاقة ، كانت فارغة لا تحس سموا وإن قالوا لها إنها من نسل الآلهة . أما اليوم فهى عظيمة بالله قوية بإيمانها عزيزة بالروح الجديد الذى سرى فى جنباتها . إنها تتهلل بالفرح وتغمرها سعادة عارمة كلما وقفت بين يدى الله وأحست بفيض نوره يغمر قلبها .

أن تكون جارية تنعم بالأنس بالله ويتجلى لها نوره ويدخلها فى رحمته ويجزيها جزاء المحسنين أحب إليها من أن تكون أميرة على القطرين تخبط فى الضلالة ، جزاؤها فى الآخرة جزاء الجاهلين .

وانطلقت القافلة فى طريقها إلى « بيت إيل » وراحت ترقى

مرتفعات جنوب فلسطين . كان الليل حالك الظلام وكانت النجوم تتلألأ في السماء، وكان الهواء يهب برخاء ، وكان كل شيء خاشعا لا يعكر الكون إلا خوار الثيران وثغاء الغنم وحنين الإبل ، وأحست هاجر أن الله يتجلى على الكون فنادت فى الظلمات أن لا إلــه إلا أنت سبحانك ، إنى كنت من الظالمين .

٨

دخلت القافلة « بيت إيل » وعلى رأسها إبراهيم ، فسجد على قتب بعيره شكرا لله على ما أولاه من نعم . فها هو ذا يعود إلى محرابه ليستأنف دعوته ويبلغ رسالات ربه .

كان إبراهيم مع الله منذ نظر في النجوم في أور ثم منذ خرج إلى حاران ومنها إلى الأرض التي بارك الله فيها للعالمين . فإن كانت سارة قد وقعت أسيرة في أيدي الهكسوس فقد كان ذلك لحكمة لا يعلمها إلا الله ، وقد تقبل ما نزل بسارة بقلب مؤمن يثق أن الخيرة فيما اختار الله .

إنه يعود من مصر راضيا مرضيا . لقد ذهب إليها بقلب سليم لم يراوده شك في أن الله إنما قاده إلى هناك لتتم كلمته . لقد أسلم وجهه لله يوجهه حيث يشاء ، أسلم له وجهه مذ أمره بالخروج من أور ثم من حاران .

كان إذا نزغه نزغ من الشيطان استعاذ بالله وتوجه إليه بقلبه وروحه ووجدانه ، إنه لم ينس الله لحظة في الليل والنهار ، في الصحراء المترامية والحقول الخضراء ، في قصور الملوك ومعابد البابليين والسوريين والمصريين ، في البر والبحر ، في السر والعلانية ، فأينما كان فإن الله معه ينير له بصيرته ويرشده إلى الهدى ، ولا غرو فهو خليل الرحمن .

ونظر الكنعانيون إلى القافلة وفى عيونهم دهش وفى قلوبهم خوف ، لقد فزعوا إلى ملك مصر لينقذهم من ذلك الشيخ الذى جاء يدعو إلى دين غير دين آبائهم، يفرق به بين المرء وزوجه والأخ وأخيه والأب وبنيه، فإذا بملك مصر يكرم وفادته ويعطيه العبيد والإماء والأنعام والأغنام والإبل والحمير ، ويسلح رجاله بأسلحة الفراعين الحديثة .

كانت رحاله فى عدة القتال كثيرا عديدهم ، والأنعام والماشية والإبل تسير فى قطار طويل لا يعرف أوله من آخره . إن لإبراهيم اليوم لملكا عظيما ، ولكنه كان يسير متواضعا لله شاكرا لأنعمه . ولم يتسع قلبه لهذا الغنى العريض فقد كان الله يملأ أقطار قلبه ، وكان هو على يقين من أن هذه الأموال إن هى إلا عرض زائل وأن ما عند الله خير وأبقى .

كانت المراعى الخضر تمتد إلى مدى البصر فراحت الأنعام ترعاها ، وخف النسوة إلى الآبار يملأن سقاة القوم وهاجر معهن . لقد كان النيل يجرى تحت شرفتها والمغنون يرتلون له الأناشيد تمجده وتسبح بحمده ، إلا أنها لم تكن تحس نحو النيل ذلك الشعور الغريب الذى يملأ نفسها وهى تلقى بدلوها فى البئر . إنها تحس كأن بينها وبين البئر ألفة وأن إحساسا غريبا أخاذا كله نشوة يربط بينهما .

عادت هاجر تحمل جرتها وهى سعيدة وسارت بين الإماء وهى تضحك ، فقد أنسيت أنها كانت أميرة . إنها الآن مؤمنة بالله الذى يملأ نفوس عباده عزة وكرامة وآمالا عراضا تسمو بصاحبها فوق هذا الكون وفوق ماديته التى تشد الناس إلى الأرض وتمنعهم أن يحلقوا فى السماء .

كانت هاجر راضية لأن الله أراد لها الرشد وهداها إلى عبادته ، وكانت لا تفتأ تحمده على هذه النعمة ، كانت إذا قامت للصلاة جرت على خديها الدموع وإذا سجدت أطالت السجود ، وما دار بخلدها أن الله ما بعث برسوله إبراهيم إلى مصر إلا ليعود بها . فهى الدرة الغالية فى قافلة الإيمان ، وهى الجوهرة التى بارك الله فيها والنى نعدها ليوم عظيم .

وراحت هاجر ترقى الجبل ، فهناك تحت ظلال غابات البلوط نصب إبراهيم خيامه بالقرب من المحراب . فلما بلغت القمة نظرت شرقا فإذا وادى الأردن الخصيب على ضفتى النهر . كان كوادى النيل يزهو بخضرته ، كان فى وسط الصحراء جنة فيحاء تسر الناظرين ، إلا أن هاجر لم تتهلل بالفرح فقد أعرضت عن الدنيا وزينتها . كانت نفسها تتوق إلى حنة الله التى تجرى من تحتها الأنهار خالدة فيها أبدا .

والتفتت وراءها فإذا البحر العظيم الذى تقع على شاطئه بلادها المحبوبة تتلاطم أمواجه ، فلم تهف روحها إلى وادى النيل فإنما هى فى شوق إلى الله الذى وهبته نفسها .

ومدت بصرها إلى الأفق البعيد حيث أطبقت السماء على الأرض وقرص الشمس الأحمر يعوص فى الماء ، وتلون الكون بلون الشفق وصبغت حواف السحب الفضية بلون وردى أخاذ . .

وأخذ المنظر العجيب يتشكل ويتلون ويتبدل فى تتابع يسبى العقول ويهز المشاعر وتتهلل له النفوس بالفرح الفياض ، وتهيم فى روعته الأرواح لتذوب فى ملك الله ، وهتفت كل خلجة من خلجات هاجر :

ــ ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك !

ودخلت الخيمة وجلست إلى جوار سارة وأخذتا بأطراف الحديث ، فقد أحبت كل منهما الأخرى وراحتا تتنافسان فى عبادة الله .

وشردت هاجر فاحترمت سارة صمتها ولم تنبس بكلمة وإن راحت ترقب الانفعالات التى كانت ترتسم على وجهها . ورفت على شفتى هاجر بسمة وسرعان ما انطلقت ضحكة ، فقالت لها سارة :

ــ ما الذى أضحكك ؟ أضحك الله سنك .

ــ تذكرت أنى كنت أعبد العجل والقرد والقطة والتمساح والثعبان وفرس البحر ، وأنى كنت أعتقد أن روح الآلهة تحل فى أجساد هذه الحيوانات فضحكت .

وفى الليل التف الرجال والنساء حول إبراهيم وألقوا إليه سمعهم فراح يحدثهم عن الله من له ما فى السماوات والأرض الغنى الحميد . من يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ويسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى ، العلى الكبير . كان حديثه أخاذا يأخذ بمجامع القلوب ، وكانت هاجر تصغى إليه بنفس متفتحة تحس كأن فيضا من الحكمة يسكب في وجدانها فيملأ بصيرتها نورا .

وانفض الجمع وقام كل إلى خيمته .

ثم خشع الكون وهبت نسائم ندية وغمر المكان نور لطيف ، وسرت همهمات كتسبيح الملائكة ، وبدا أن الأرض تتلقى وحى السماء .

وتألق النور فى خيمة لوط وغشيها أمن وسلام ، وانشرح صدر لوط

ورقت مشاعره وسمت روحه وتفتح فؤاده ، فقد كان يتلقى ما نزل به الروح الأمين .

وتنفس الصبح فانطلق لوط إلى إبراهيم ، من آمن له وهاجر معه إلى الله ليهديه سواء السبيل ، وقال :

ـــ أرسلت إلى أهل سدوم .

ـــ فاصدع بما تؤمر ، وبلغ رسالة ربك .

وراح لوط يجمع أهل بيته ورجاله وعبيده وإماءه وأنعامه وإبراهيم يرقبه فى فرح وحب ، فقد اصطفاه الله وأرسله ليدعو أهل سدوم وعمورة إلى الصراط المستقيم وفضله على العالمين .

وحانت ساعة الرحيل فخفق قلب إبراهيم رقة ، فقد تبنى لوطا ولم يفترقا أبدا منذ خرجا فى سبيل الله من أور ، لم يفارقه فى حاران ، وهاجر معه إلى الأرض التى بارك الله فيها للعالمين ، وهبط معه إلى مصر ، وعاد معه إلى بيت إيل ، وكانا أبدا على أهبة الرحيل ليطلقا إلى حيث يشاء الله .

لم تكن لهما إرادة فالإرادة كلها لله ، ولم يكونا ليعلما أين مكانهما فى الغد فالغد من غيب الله ، وهو وحده علام الغيوب . لقد أسلما وجهيهما لله والله يحكم بما يريد .

وتعانق النبيان ، وراح الرجال يودعون الرجال ، وحمل لوط روحه وابنتيه وسار على رأس القافلة إلى الأردن إلى حيث أمره الله ليدعو الناس إلى الهدى والرشاد .

وأوغلت القافلة فى الأفق البعيد وإبراهيم يرصدها من فوق الجبل ، حتى إذا غابت عن عينيه دخل محرابه وراح يصلى لله ، وأحس أنه صار

فردا بعد أن تركه لوط ، وتحركت الأبوة فى أحشائه فأخذ يدعو الله :

— رب هب لى من الصالحين .

وسمعت سارة نداءه فسرى فى جنباتها حزن عميق ، إنها عجوز عقيم فأنى يكون لها ولد ؟ وزاد أساها أن زوجها الحبيب يشتاق أن يكون له ذرية وهى تعجز أن تحقق له ما يتمنى .

فعادت إلى خيمتها كسيرة الفؤاد يترقرق الدمع فى عينيها ، ليتها تستطيع أن تهتدى إلى ما يرجوه خليل الله ، لقد دعت الله سرا وعلانية فى الليل والنهار أن يهب لها من تقر بهم عين زوجها الكريم ، إلا أن الله لم يستجب دعاءها إن الله عليم خبير .

ومن خلال دموعها رأت هاجر تصلى لله فى خشوع وعبراتها تسيل على خديها ووجهها يتألق بنور الإيمان العميق . فى تلك اللحظة طافت بذهن سارة فكرة ؛ إن كانت هى تعجز أن يكون لها ولد فهى تستطيع أن تهب لزوجها جارية من جواريها ، فإن أنجب منها تحقق له ما يرجوه واتخذت هى من المولود ولدا لها .

وعادت تنظر إلى هاجر فى إمعان وشرد ذهنها : « ولماذا هاجر ؟ لماذا لا تهب زوجها جارية أخرى ؟ » :

« إن هاجر شابة وضاءة مؤمنة تعبد الله مخلصة له دينها وتقيم الصلاة لذكره » .

« بين الجوارى الأخر عابدات خاشعات مؤمنات ومنهن من تفوق هاجر حسنا » .

« عاشت هاجر فى بيت الملك فهى ذات فضل ، وهى خير من تكون أما لابن صالح من ذرية إبراهيم رسول الله وخليله » .

وهمس فى جوفها هامس : « لعل الله أوقعها فى الأسر وساقها أسيرة إلى أواريس لتوضع فى يدى فأهبها إلى الخليل ، لعل الله اصطفاها لتكون أما للوارثين » .

ولم تطمئن سارة إلى هواجس نفسها وآثرت أن تنتظر أمر الله فى هاجر ، فإن أمرها أن تهبها له فعلت وهى راضية النفس مستريحة الضمير ، وإن أمرها أن تعرض عن هذا فعلت ، إنها لا تعصى لربها أمرا .

٩

دخل لوط وزوجه وابنتاه الصغيرتان وعبيده وإماؤه ورجاله ومواشيه مدينة سدوم وكانت تغص بالناس ؛ الرجال والنساء والولدان والجوارى فى الأسواق يموج بعضهم فى بعض كأنهم جراد منتشر ، والدور على جانبى الطريق تزهو بتهاويلها وزخارفها ، وامتدت وراء المدينة وعن يمينها ويسارها حقول خضراء بثمرات مختلفة ألوانها تسر الناظرين .

كان كل ما فى المدينة ينطق بالثراء العريض ، فانطلق لوط وهو يسبح لله لا يمد عينيه إلى ما تزخر به المدينة من غنى ولا يدنس قلبه الطمع فى متاع الدنيا . فقد هاجر إلى ربه منذ خرج من أور ، وكان كل ما يطمع فيه أن يهديه الله سواء السبيل ، فإذا بالله يصطفيه ويرسله إلى أهل سدوم وعمورة الذين شاعت فيهم الفاحشة ، لئلا يكون للناس على الله حجة .

وراح يتلفت وهو يعجب لأمر الناس ، فلم يقابل كاهنا ولم تقع عينه على معبد . لقد رأى المعابد والأبراج العالية فى أور ، ورأى الكهان ومعابدهم فى بيت إيل ودارت بينهم وبين إبراهيم ومن معه المناقشات ، ورأى معابد المصريين الفخمة ومسلاتهم وعباداتهم وصلواتهم . كان يجد الناس فى كل مكان مر به فى سياحته الروحية يعبدون الله على حرف أو يجعلون لله أندادا ، أما هؤلاء الذين أرسل

إليهم فما كانوا يعرفون الله وما كانوا يحثون عنه ، فقد ضلوا ضلالا بعيدا .

ومرت القافلة على أناس فى ناديهم فإذا هم يسخرون من القافلة وكل من فيها وارتفعت ضحكاتهم . ولم يكتفوا بالهزء بل أراد بعضهم أن يعبث بيده ليضحك القوم فقام إلى العبيد يعبث فى وجوههم وظهورهم ، فازدادت الضحكات الماجنة ارتفاعا وانطلقت الكلمات الفاحشة فى وجوه القوم كالحجارة أو أشد قسوة .

وانتهز بعضهم غفلة من العبيد وانشغالهم بسورة الغضب التى هزت كيانهم فسرقوا بعض الأغنام وولوا هاربين ، وأهل سدوم ينظرون ويضحكون مستبشرين .

وتواصى لوط الصبر وسكت عنه غضبه وراح ينظر إلى القوم وهو يحرص على هداهم يرجو أن يحرجهم من الظلمات إلى النور ، أن يرفعهم من مهاوى الجسد إلى رفرفات الروح .

إن كانوا سلقوهم بألسنة حداد أو كانوا أشحة على الخير فما جاءهم من قبل رسول ولا نذير ، وقد أرسله الله إليهم ليرشدهم إلى الخير ، ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيما .

وضرب لوط خيامه خارج أسوار المدينة وراحت مواشيه ترعى فى المراعى الخضر الممتدة على ضفتى نهر الأردن ، وأخذ يقلب وجهه فى المكان ؛ كان بحر الملح يتخفض عن كل ما حوله انخفاضا هائلا ، وكانت الآبار الحمر تنتشر هنا وهناك ، وكانت سدوم أمام عينيه تنتظر مصيرها لا تدرى أشر أريد بها أم أراد بها ربها رشدا ؟

ورأى لوط أن يذهب إلى ملك سدوم ليستأذنه في النزول بأرضه ويعاهده على أن يكون حربا على من حاربه ، فهو يذكر ما كان من الكنعانيين لما نزلوا « بيت إيل » فقد ذهبوا إلى ملك مصر وحرضوه على المؤمنين فأرسل حملة دهمتهم بليل فقتلت مواشيهم وأسرت سارة وعاثت في خيامهم فسادا ، وهو لا يريد أن يقع لهم فى سدوم ما وقع لهم فى بيت إيل .

انطلق لوط إلى القصر وكان الناس فى ناديهم يشربون ويضحكون ويستهزئون بكل من يمر بهم . كانوا غارقين فى الدنس يأتون المنكر على أعين الناس !

امتلأت نفس لوط بالشجن وأحس أن الأسى يمزقه ، إنه لم يشهد فى كل البلاد التى مر بها مثل هذا الفساد . لقد رأى العاهرات المقدسات فى معابد عشتار يقدمن أنفسهن قربانا على مذبح الشهوة باسم الدين ، ورأى احتفالات تمور بالخلاعة والتهتك والمجون باسم « باسنت » إله المرح رأس القطة فى منديس ، فى الدلتا الشرقية لنهر النيل ، رأى فى كل بقعة من بقاع الأرض التى ساح فيها أناسا غارقين فى الخطايا ، ولكنه لم ير الرجال يأتون الرجال على أعين الناس إلا فى سدوم !

فسار وهو يتألم . كان يعلم أنهم قوم مفسدون ولكنه ما كان يحسب أن الفساد استشرى فيهم إلى هذا الحد ، إلى حد أنهم لا يخافون يوما كان شره مستطيرا .

ورأى فى الأسواق ألوانا من الظلم والاضطهاد ، ورأى السادة يضربون العبيد بالسياط ، ورجال الدولة يسومون الناس العذاب .

والشهوات الدنيئة ترتكب في كل مكان ، والنساء يطلقن الزفرات حسرة على ما حاق بهن من ظلم عظيم .

ودخل قصر الملك وكان الجنود على جانبي الطريق يحملون أسلحتهم ، بيد أنهم كانوا كأعجاز نخل خاوية ، انطفأ بريق أعينهم أو كاد ، وذهبت نضارة شبابهم واصفرت جلودهم . فقد استخلصوا أنفسهم للشهوات .

وبلغ قاعة العرش فلم تأخذه روعة الزخارف والتهاويل بل أحس إشفاقا على هؤلاء الملوك نازلي القصور الذين يحسبون أنهم مخلدون ، وما دار بخلدهم أنهم يولدون للموت ويعمرون للخراب !

وتقدم من الملك ولم يخر ساجدا بين يديه بل ألقى عليه السلام ، ثم أفضى إليه بما جاء يطلبه وهو مرفوع الرأس . فهو يستشعر بكل جارحة من جوارحه أن الله معه يثبت أقدامه ، فقلبه لم يغفل لحظة عن ذكر الله فهو على نور من ربه أرسله بالهدى ودين الحق .

وخرج من قصر الملك وقد عاهده على أن يكون حربا على من يحاربه وأن ينصره على أعدائه ، وسار وهو يحمد الله رب السماوات والأرض ورب العالمين له الكبرياء في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم .

وبلغ مشارف المدينة فإذا أناس يقطعون السبيل يهجمون على القوافل فيسلبون الأموال ويسلبون الأولاد ويقتلون الرجال والنساء كأنهم الوحوش الضارية ، فقد غلظت أكبادهم ولم تعرف قلوبهم الرحمة ، أولئك هم شر البرية .

فذهب إلى خيامه وقام يصلي لله ويدعو ويطيل الدعاء ، ويستغفر

ويطيل الاستغفار ، يرجو رحمة ربه ويسأله أن يعينه على أداء رسالته ، فقد بعث إلى أشرار لا يفرقون بين الخبيث والطيب .

وتوكل على الله وانطلق إلى حيث كانوا يعاقرون الخمر ويرتكبون الفواحش ويطلقون ضحكات الخلاعة والمجون وقال لهم :

ــ ألا تتقون ؟ إنى لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون .

والتفت بعضهم إلى بعض يضحكون ، وقال لهم أخوهم لوط :

ــ وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين .

فقالوا له وهم يستهزئون :

ــ أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذًا لفى ضلال وسعر .

ــ إنى رسول الله إليكم ، ربكم رب السماوات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلك من الشاهدين .

ــ بل أنت كذاب أشر .

ــ أتأتون الذكران من العالمين . وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ؟ بل أنتم قوم عادون .

ــ لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين .

ــ إنى لعملكم من القالين .

ورفع عينيه إلى السماء وقال :

ــ رب نجنى وأهلى مما يعملون .

ومرت الأيام ولوط ينذرهم بطش الله فتماروا بالنذر ، إنه لا ينقطع عن استنكار ما يفعلون ، كان يذهب إلى ناديهم ويقول :

ــ أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ؟ إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون .

وأعرضوا عنه وهم يستهزئون وقالوا :

ـــ قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر .

وضاقوا به فآذوه فكان يقول لهم :

ـــ ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون .

ولم يقنط لوط . كان يدعوهم إلى الله ويخوفهم عذابه فكانوا يضعون أصابعهم في آذانهم ويفرون منه وهم يسخرون ، لا يصدقون أن الله قادر على أن يرسل عليهم الطوفان فيأخذهم كما أخذ قوم نوح .

ومرت السنون ولوط يدعو قومه إلى الهداية وتأبى قلوبهم ، إنهم كانوا قوم سوء فاسقين . وتاقت نفس إبراهيم إلى تسمع أخبار لوط الذى آمن له وهاجر معه وآتاه الله حكما وعلما ، فدعا إبراهيم إليعازر الدمشقي وكيل بيته وأمره أن ينطلق ليأتيه بخبر لوط وقومه ، فخرج إليعازر من بيت إيل قاصدا سدوم .

فبلغها مع هبوط الظلام فنزل عن ظهر حماره وربطه ثم دخل يبحث عن مكان يبيت فيه . وتقضى بعض الوقت وخرج فإذا به لا يجد حماره ، فأخذ يبحث عنه دون جدوى ويسأل هذا وذاك فلم يرشده إليه أحد ، بل وجدهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم ، نسوا الله فأنساهم أنفسهم إنهم قوم فاسقون .

وفي الصباح خرج إليعازر إلى السوق وكانت الحوانيت غاصة بالناس والدواب في غدو ورواح على الطريق ، فأخذ ينظر وهو يعجب فأنكر تصرفات القوم !

وحانت منه التفاتة فإذا به يرى حماره الذى سرق منه بالأمس وقد اعتلى ظهره رجل من القوم ، فهرع إليعازر إليه وأخذ بتلابيبه . والتف

حولهما الناس ينظرون ، وحاول أكثر من واحد منهم أن يطلق الرجل من قبضة إليعازر ، إلا أن إليعازر قبض عليه بيد من حديد وطلب أن يذهبوا بهما إلى من يقضى بينهما بالعدل .

ووقف إليعازر ومن سرق حماره أمام قاضى سدوم وراح إليعازر يقص على القاضى قصته ، ولما انتهى منها كان على يقين أن القاضى سيقيم الحد على السارق لا تأخذه فيه رحمة ، فالقضية واضحة لا لبس فيها ولا غموض .

ووقف سارق الحمار يقول للقاضى :

— وجدت الحمار فى الطريق فأخذته وآويته وأطعمته ، وإنى أطلب أجر إيوائه وثمن طعامه .

وتأهب القاضى لينطق بالحكم فأرهف إليعازر سمعه ، فلما نطق القاضى بحكمه ارتسم على وجه إليعازر الذهول ، إنه لا يصدق أذنيه ، فما كان ينتظر حتى من قاضى سدوم مثل ذلك الحكم ، فقد حكم القاضى بأن يدفع إليعازر للسارق أجر إيواء حماره وثمن طعامه !

سار إليعازر وهو مطرق حزين ، فقد رأى فى بلاد الله أشرارا مجرمين ولكنه لم ير قوما فاسقين ظالمين كافرين كقوم لوط ، ترى كيف يجادل لوط مثل هؤلاء المفسدين ؟ أيلقون إليه السمع أم يستهزئون به ؟

— وبلغ إليعازر خيام لوط فما إن رآه لوط حتى هرع إليه يستقبله ويرحب به ويسأله عن إبراهيم . وأخذ الرجلان يتناجيان بالمعروف ، ثم خرج لوط ومعه إليعازر ليدعو قومه إلى الله ، قال :

— يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، يا قوم اتبعونى أهدكم

سبيل الرشاد ، يا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ، يا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح ، يا قوم ما لى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار ؟ يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول رب العالمين .

وقال إليعازر :

ـ يا قوم اتبعوا المرسلين ، يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء .

ـ إنا بالذى آمنتم به كافرون .

ـ يا قوم إنى أخاف عليكم عذاب يوم شديد .

ـ ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين .

ـ إلا تؤمنوا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم .

ـ لئن اتبعناك إنا إذًا لخاسرون .

ـ إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ، أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر .

فما كان جواب قومه إلا أن قالوا :

ـ ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين .

١٠

قام إبراهيم ومن معه للصلاة على قمة الجبل فى بيت إيل وقد بدأ الظلام ينحسر عن الكون ، وأنفاس النهار الندية تتردد فى جنباته، ونجوم السماء الصافية تسبح لله مع المستغفرين بالأسحار ، وعبق المكان بروائح زكية لكأنما ملئ ما بين السماء والأرض مسكا .

وسكنت أبدان الأبرار ، واستغرقت القلوب بذكر الله واتصلت به واستنارت بأنواره ، وتفتحت الأفئدة تتلقى الحكمة التى تنسكب من السماء لتملأ الجوانح وتنير البصائر .

وقامت هاجر تصلى ووجهها يتهلل نورا فقد وهبت نفسها لله وذاقت حلاوة محبته ولم تعرف الوحشة بعد أن عرفته ، كانت تستأنس به وتطيل السهر معه فطهر قلبها وملأه محبة وأمنا .

صارت تحب الله وتحب من يحبه فاتسع فؤادها لكل المؤمنين وكل ما تقع عليه عيناها فى الأرض أو فى السماء : كانت ترى قدرته فى البحر إذا هدأ وفى البحر إذا تلاطمت أمواجه وارتفعت كالجبال ، فى السماء إذا صفت وتلألأت فيها النجوم وفى السماء إذا تلبدت بالغيوم ، فى الأرض إذا أنبتت زرعا مختلفا ألوانه وفى الأرض إذا قامت فيها الجبال الجرداء الشاهقة البيض والحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود .

كانت تستغفر الله آناء الليل وأطراف النهار ، حرمت على عينيها لذيذ النوم وكيف تنام وقد تعلمت من رسول الله أنما هى أنفاس تعد

وأيام تنقضى وعمر يفنى ، ثم لقاء الله .

إنها وصلت حبلها بحبل الله .. وباتت تخشى أن يطلع على قلبها فيجده مشغولا بسواه ، أعرضت عن الدنيا وزينتها ونسيت أيام كانت أميرة فى منف . ولم تعد تلك الأيام تخطر على قلبها أو تطوف ببالها ، وإن استرجع ذهنها ذكريات تلك الأيام لحظة سارعت بحمد الله الذى أخرجها من الظلمات وأنار لها سبيله .

كانت فى خيام إبراهيم تحس فى كل شىء رحابة : رحابة فى النفس ورحابة فى الروح ورحابة فى البصيرة ورحابة فى القلب . رحابة كادت تتسع للأرض والسماء . وغمرتها سعادة فياضة فقد تعلمت أن آدم لما عصى أوامر ربه كان سجين نفسه المعذبة وإن كان فى الجنة ، وأن إبراهيم لما ألقى فى النار كان فى سلام ، لأنه أسلم وجهه لله رب العالمين .

لا القصور الفاخرة ولا الرياض الزاهرة ، ولا المال الممدود ولا الجاه العريض ، ولا السلطان المبين ولا التحكم فى الرقاب يجلب السعادة ، إنما الجنة فى النفس المطمئنة الراضية المرضية ، فى أن تعيش فى سلام مع السلام .

وقامت هاجر تشرف على الإماء تشاركهن أعمالهن وترعاهن وتحوطهن بحبها الكبير ، وذهب إليعازر الدمشقى ليشرف على العبيد ، وآوت سارة إلى خيمتها لترعى شئون القبيلة وتعد العدة لاستقبال الضيف ، فما انقطع وفود الضيف ليلة إلى خيام رسول الله الكريم .

انصرف الرجال والنساء وبقى إبراهيم وحده فى المحراب يصلى لله

ودموعه تجرى على خديه ، ورق قلبه وصفت نفسه وسمت روحه لتتصل بالسماء ، فإذا به يحس ما كان يحسه عندما يتلقى وحى الله .

— ارفع عينيك وانظر إلى المشارق والمغارب . ولسوف يعطيك الله هذه الأرض ويورثها ذريتك .

ونظر إبراهيم من مكانه إلى مشارق الأرض ومغاربها ، إلى الهلال الخصيب وأرض الكنعانيين وأرض الحجاز ووادى النيل ، إنه قد ساح سياحته الروحية فى كل هذه الأرض إلا الحجاز ، ترى أيأمره ربه أن يخرج إليه ؟

ورن فى أذنيه صوت الوحى واضحا :

— وسيجعل الله فى ذريتك النبوة والكتاب . اضرب فىّ الأرض حيث يشاء الله .

— هذا رحمة من ربى .

وعده الله أن يعطيه مشارق الأرض ومغاربها ، وكان وعد الله حقا ومن أصدق من الله قيلا ؟ ووعده أن تكون الأرض لذريته من بعده ولا يخلف الله وعده . لقد قبل ربه صلاته ودعاءه ووعده أن يهبه من الصالحين .

وراح إبراهيم يفكر ممن تأتى ذريته وسارة عجوز عقيم ؟ لو أن ذريته الموعودة كانت من سارة لما تأخر وعد الله فهى معه منذ تزوجا فى أور قبل أن يؤمر بتبليغ الرسالة بسنين ، أيام كان يقلب وجهه فى ملكوت السماوات والأرض ليكون من الموقنين .

إنه أسلم وجهه لله وأطاعه منذ أمره أن يخرج من أور ثم من حاران ونجاه من نار المكذبين . ولم تذهب نفسه شعاعا يوم وقعت سارة فى

الأسر فقد كان على علم أن هذه إرادة الله ومشيئته وأن الله تعالى فعال لما يريد .

إن حكمة هبوطه إلى مصر لم تتضح بعد لعينيه إلا أنه كان على يقين أن ذهابه إلى مصر لم يكن عبثا ، فما ساقه الله إليها ليجادل كهانا لم يؤمنوا برسالته ولا ليعود بأموال وأنعام وعبيد ، بل لا بد أن يكون لوفوده عليها شأن أعمق من ذلك وعزم على ألا يفكر ممن تأتى ذريته وتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره .

لقد أوحى إليه أن اضرب فى الأرض وها هو ذا يكاد يستقر فى بيت إيل ورسالته لم تتم بعد . إن الله يأمره أن يخرج ليبشر دينه فى المشارق والمغارب فليس دين الله لأهل حاران وحدهم ، ولا لأهل سورية ولا لأهل فلسطين ولا لأهل مصر ، بل للناس كافة لا فضل لقوم على قوم إلا بالتقوى .

وراح يفكر فيمن معه من المسلمين ، إن منهم من خرج معه من أور ومنهم من آمن له فى حاران ، ومنهم إليعازر الدمشقى وهاجر المصرية ، إنهم مؤمنون من بلاد دخلها شرح الله صدرهم للإيمان فآمنوا وأتم نعمته عليهم ، فإن استقر فى بيت إيل فلن تبلغ رسالة ربه المشارق والمغارب ، وسيكون للناس حجة على الله فما بعث إليهم رسولا .

أمره الله أن يضرب فى الأرض ليدعو الناس إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والله يهدى من يريد .

وذهب إبراهيم إلى سارة وأبلغها ما أوحى الله إليه ، قال لها إن الله وعده أن الأرض يرثها ذريته من بعده فتهللت أسارير سارة بالفرح ، فقد

كانت تحسّ نياط قلبها تتمزق كلما سمعت زوجها الحبيب يبتهل إلى ربه ويدعوه بالأسحار ودلوك الشمس وغسق الليل : « رب هب لى من الصالحين » ، فإذا بربه يستجيب له ويعده بذرية بعدد نجوم السماء وذرات الرمال !

سيهب الله لزوجها من الصالحين ، سيكون له الولد الذى طالما اشتهاه فى أور وحاران وفى كل بقعة من بقاع الأرض وطئتها قدماه . لقد كانت تحس ما يقاسيه زوجها من حرمان كلما ارتفعت فى الخيام صرخات وليد ، وما أكثر الصرخات الحبيبة التى تحاوبت فى الفضاء لتملأ فراغ القلوب .

ونذرت سارة أن ترضع ألف طفل يوم ترضع غلامها . غلامها ؟! إنها عجوز عقيم . كيف تلد وهى عجوز عقيم ؟ إن الله بشر زوجها بالذرية ولم يقل له إن هذه الذرية منها ، من أبناء بطنها ، لعل هذه الذرية تخرج من بطن آخر ، بطن غير بطن الزوجة التى أمضت شبابها كله مع زوجها دون أن يقدر الله لها أن تحمل .

إنها هى العقبة فى تحقيق وعد الله ، فقد أبى إبراهيم أن يتخذ زوجة ثانية ، وإن كان من حقه ما دامت هى لم تلد أن يتخذ زوجة أخرى تمنحه الولد ويكون ذلك الولد ولده وولدها ، ولكنه يحبها وعزيز عليه أن يطعنها فى كبريائها .

إنها هى العقبة فى أن يكون لزوجها ذرية ، أنانيتها وحبها نفسها هما اللذان حرما زوجها ما يتمناه ، صار الأمر واضحا بعد أن أعلن الله وعده ، فإن كانت مؤمنة حقا وتحب الله ورسوله أكثر من حبها نفسها فلتهب له جارية من جواريها ليتحقق وعد الله .

كم يشق على نفسها أن تقدم بيدها امرأة أخرى إلى زوجها لينجب منها ذرية ترثه وتصبح تلك الذرية آل إبراهيم ، وإنه لآلم لنفسها وأوجع لقلبها أن تكون عقبة فى سبيل إرادة الله وهى المؤمنة التى وهبت روحها لرب السماوات والأرض رب العالمين .

لو أن الله أعلن مشيئته لصدعت لأمره راضية النفس مستريحة الضمير ، أما أن تقبل على عمل لا تعرف مغبته ولا تعرف إن كان الله يتقبله بقبول حسن أم أنه يرغب عنه فذلك ما يجعلها فى حيرة من أمرها لا تدرى أيان سبيلها .

ودخلت عليها هاجر يتهلل وجهها نورا فأخذت تحدجها طويلا ، إن قلبها ليهفو إليها ، وإنها لعلى يقين من أنها أصلح من تنجب لزوجها الذرية الصالحة إن كتب الله عليها ألا تكون الذرية منها . إن شعورا خفيا يهتف بها أنها الموعودة وأن الله ما ساق إبراهيم إلى مصر إلا ليعود بها لتتم إرادته ويكون وعد الله مفعولا ، إلا أنها أصمت أذنى سريرتها عن تلك الهتافات ، إنها تنتظر أن يعلن الله مشيئته واضحة كفلق الصبح لتنفذها وهى ناعمة البال ، فليس لها من الأمر شىء وإلى الله ترجع الأمور .

وأذن إبراهيم بالرحيل فرفعت الخيام ، وراح إليعازر الدمشقى يشرف على العبيد وهم يسوقون قطعان الإبل والماشية والغنم ، وراحت هاجر تشرف على الإماء وتسهر على راحتهن وكانت أرأف بهن من الأم الحنون .

وسار إبراهيم على رأس القافلة التى أمر الله أن تضرب فى الأرض لتعلن للملأ أن لا إله إلا الله ، وانسابت والفلوات تردد تسبيحها حتى

أشرفت على حبرون (الخليل) .

وكانت سارة تنظر إلى المشارق والمغارب ، إلى الأرض التى سوف ترثها ذرية إبراهيم وهى قريرة العين ، فقد راضت نفسها على الرضا سواء أكانت هذه الذرية الصالحة منها أم ممن يشاء الله من عباده .

ولاحت بلوطات ممرا بأوراقها الوارفة الظلال فأمر إبراهيم أن يحط الرحال تحتها ، ونصبت الخيام وذهبت سارة لتستريح وما لبثت أن دخلت عليها هاجر ووجهها يتألق بنور الإيمان ، فعادت همسات النفس تهمس : « إنها الموعودة ، إن الله أراد أن يشرفها وأن يربط بين بلادها وبين أنبيائه الأسباب » ، فرفعت سارة رأسها إلى السماء وقالت فى إيمان عميق :

ــ ستجدنى إن شاء الله من الصابرين .

١١

كانت سدوم تموج بالشباب إذا رأيتهم حسبتهم جنودا صناديد ، كانوا فارعي الطول مفتولي العضلات لا يكفون عن الصياح والشجار والقتال كأنهم وحوش فى غابة .

ونظر ملك سدوم إلى الشباب القوى الذى تموج به مدينته فخطرت له فكرة . إن الأشوريين قد هزموهم منذ اثنتى عشرة سنة وفرضوا عليه وعلى من حوله الجزية ، وإنه ليبعث بها إلى بلاد ما بين النهرين كل عام وهو صاغر ، فلماذا لا يثور هو ومن حوله من الملوك على هذا الخزى والعار ؟ ولكن أيسكت كدر لعومر ملك عيلام على هذا العصيان ؟ يسكت أو لا يسكت إن سدوم وعمورة فى منعة بفضل قوة رجالهما !

وأرسل بارع ملك سدوم إلى برشاع ملك عمورة وشآن ملك أدمة وإلى ملك صبوبيم ، وراح يزين لهم العصيان حتى تعاهدوا على أن يشقوا عصا الطاعة وأن ينفضوا عنهم ذلك الذل المهين .

ولأول مرة منذ اثنتى عشرة سنة لم تخرج الجزية من دائرة الأردن إلى بلاد الأشوريين ، وانتفخت أوداج الملوك الأربعة زهوا وراحوا يبثون روح الحماسة فى الشباب ويعبئونهم لموقعة حربية كبيرة إذا تحركت جيوش الأشوريين لتعيدهم إلى الخزى الذى ذاقوا مرارته سنين .

وغرق الشباب فى اللذة حتى آذانهم ، كانت سدوم تموج بالترف

والفسق فالخمور تجرى كالأنهار والفاحشة تمارس فى المجالس ما سبقهم بها أحد من العالمين ، كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء إنهم قوم فاسقون .

وراح لوط يجوس خلال المدينة ينهاهم عن الفحشاء التى فشت فيهم ويخوفهم الله وعذابه ويدعوهم إلى سواء السبيل ، فكانوا يستهزئون به .

كان يقول لهم إنهم يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، وأن النار مثوى لهم فما كان يزيدهم ذلك إلا كفورا .

ومسه التعب وضاق صدره واكتوى قلبه بالأسى ودب فيه اليأس ، لقد قال لقومه كما قال هود لقومه : ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون . يا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون ؟ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين ﴾ . فكذبوه كما كذب الرسل من قبله ، فبات يخشى أن يحيق بقومه ما حاق بقوم هود .

وبلغ الأشوريين أن ملوك الأردن أبوا أن يدفعوا الجزية ، فاجتمع كدر لعومر ملك عيلام وتدعال ملك جوييم وامرافل ملك شنعار وأريوك ملك الأسار يتشاورون فيما يفعلون لتأديب العصاة ، فاستقر رأيهم على إرسال جيش جرار لإخضاع ملوك سورية وضرب كل من تمرد على سلطانهم .

وخرج الجيش فى جنود لا عد لها ، واهتزت الأرض وانطلق الأشوريون يخضعون العماليق ويعيشون فى المدن فسادا ، فريقا يقتلون

وفريقا يأسرون .

ونظر إبراهيم من حبرون فرأى جنود الآشوريين يتدفقون كجراد منتشر ، كانوا فى طريقهم إلى سدوم ولكنه أخذ أهبته . فإن اعتدوا عليه فسيقاتل الذين يقاتلونه ولن يدهمه أحد على غرة كما فعل جنود مصر ليلة أغاروا على خيامه وساقوا سارة أسيرة إلى أواريس .

ــ إنه رسول السلام يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولكن إذا كتب عليه القتال فسيقاتل ، فالله يقول : ﴿ فإن قاتلوكم فاقتلوهم ، فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا ﴾ .

ومر الجيش دون أن يميل على خيامه ، وانطلق الجنود إلى الوادى حتى إذا بلغوا عمق السديم عسكروا فى حفرة القار على أبواب سدوم .

ولقد عاهد لوط ملك سدوم على أن يحارب من يحاربه ، وها هى ذى جيوش الآشوريين تقرع أبواب المدينة ، أيوفى بعهده وأهلها فاسقون يستحقون العذاب الغليظ ؟ أيخرج لنصرة أناس قد يكون الله قد سلط عليهم هذه الجيوش بذنوبهم ؟ أينقض عهده ويخلى بينهم وبين أعدائهم ؟

إن الله أرسله نبيا ليعلم الناس مكارم الأخلاق ، إن عاهد فعليه أن يصدق ما عاهد الله عليه ، أن يوفى بالعهد إن العهد كان مسئولا ، وانضم لوط ورجاله إلى ملك سدوم .

وخرج ملوك دائرة الأردن الخمسة لقتال ملوك الآشوريين وكانوا يأملون فى النصر ، فسدوم موقع حصين وهم أعرف بمسالكها ودروبها من الوافدين عليها للسلب والنهب واستعباد الشعوب .

ونظر ملوك الأردن إلى جنودهم فى زهو فقد كانوا أقوياء الأجسام يبدون كالليوث . ونظر لوط إليهم فى إشفاق فقد كان يرى تلك الأجسام القوية خلت من الروح ، نخر فيها سوس الفساد ، لا تحارب فى سبيل الله ولا تحارب فى سبيل الشيطان . إنها إنما تحارب خوفا من أن يتخطفها الموت وهى تريد أن تحيا لتستزيد من الخبائث والشهوات المنحرفة التى صارت لا تستطيع الفكاك من عبوديتها وسلطتها .

ومشى الجنود إلى الجنود ودارت رحى معركة رهيبة ، السهام تتطاير ، والحراب تغوص فى الصدور والقلوب ، والدماء تسيل أنهارا ، والخناجر ترتفع لتهوى تشق البطون ، وصرخات مفزوعة وأنين وحشرجة ، وأجساد ترتطم بالأرض وكرّ وفرّ ، وأوامر تصدر ، وشغل كل عن أخيه بنفسه التى يحوم حولها الفزع الأكبر .

ولى النهار وألقى فى قلوب سدوم الرعب ، وأخذ الآشوريون يزحفون ويتقدمون ويضيقون على السدوميين الخناق ، ولاحت الهزيمة لما فر بارع ملك سدوم وأطلق برشاع ملك عمورة ساقيه للريح فولى جنود الأردن الأدبار .

وثبت لوط ورجاله وراحوا يقاتلون فى ضراوة ، إلا أن الله لم يؤيدهم بنصره فما كانوا يقاتلون فى سبيله بل كانوا يقاتلون فى سبيل كرامتهم ، واستمرت المعركة دائرة بين لوط ورجاله وبين جيوش ملوك آشور ، ورجحت كفة الآشوريين وسقط لوط أسيرا فى أيديهم .

وفتحت أبواب المدينة أمام الغزاة بعد أن قتل حماتها أو فروا إلى الجبال مرعوبين . ودخل الغزاة وعاثوا فى مدينة الفساد فسادا فسبوا

النساء ونهبوا الدور وساقوا أمامهم الأنعام والأسرى والإبل والأغنام . ثم خرجوا من سدوم وقد ثار الغبار والناس يتدافعون بالمناكب ويموج بعضهم فى بعض كأنما جاء يوم النشور .

وسيق الأسرى زمرا ، وكان لوط يسير مطرق الرأس حزينا لا يدرى أن زوجه وابنتيه وقعن فى أيدى الآشوريين ، ولم يستسلم ليأسه فسرعان ما توجه إلى ربه يحمده ويسبح له فأحس قوة تسرى فى روحه ووجد لنفسه عزما .

وجاء رجل يسعى إلى حبرون ، رجل من رجال لوط فر من الأسر فهرع إلى إبراهيم وقال له :

ـــ النجدة النجدة ، لقد وقع لوط أسيرا فى أيدى الآشوريين .

وتحرك إبراهيم سريعا ، لم يدر بخلده لحظة أن يترك نبى الله فى أيدى أعداء الله ، إنه لوط الذى تبناه فى أور ، ابن أخيه الذى آمن به . إلا أنه كان فى تلك اللحظة أكثر من ابن أخيه ، إنه نبى أرسله الله ليبلغ رسالته فإن كان فى ضيق فحق عليه نصره .

وخرج إبراهيم فى ثلاثمائة وثمانية عشر من الرجال والعبيد فى عدة القتال ، وانطلقوا فى أثر الجيش الذى كان فى طريقه إلى بلاده بما حمل من أسلاب وغنائم وأسرى .

وطويت الأرض تحت أقدام رواحل إبراهيم ومن معه وانقضت خمسة أيام وأدبر النهار ، ولاح معسكر جيش الآشوريين فقد نزلوا يستريحون وسط الجبال التى ينبع منها نهر الأردن .

وانتظر إبراهيم حتى جن الليل فقسم رجاله قسمين ، قسما بقيادته

وقسما بقيادة إليعازر الدمشقى ، ثم أمر بالزحف باسم الله وعلى بركة الله فقد كان يعتمد على مفاجأة عدوه وعلى نصر الله .

كان الآشوريين يعربدون فى خيامهم وقد أدارت الخمر رءوسهم وسقط فريق منهم على فراشهم يغطون فى نومهم ، وكالأطياف انسل إبراهيم ورجاله إلى المعسكر وراحوا يذبحون السكارى ويكتمون أنفاسهم .

وأذهلت المفاجأة العدو ودب الذعر فى المعسكر فهام الملوك والجنود على وجوههم مفزوعين . فروا لا يلوون على شيء وإبراهيم ورجاله فى أثرهم حتى شمال دمشق ، وانتصروا عليهم نصرا مؤزرا .

وخلّص إبراهيم لوطا وزوجته وابنتيه والرجال والنساء من الأسر ، وعاد منتصرا يسوق المواشي والإبل والغنم ، فقد غنم أموال القوم وكل ما فى معسكرهم من متاع .

وطار نبأ انتصار إبراهيم إلى سدوم فخرج ملك سدوم لاستقبال المنتصر عند عودته المظفرة .

عاد ملك سدوم من الجبال التى فر إليها ليستقبل إبراهيم المنتصر ، كان فى زينة الدنيا وأبهتها يحوط به وزراؤه وكبار قومه الذين ولوا الأدبار إلى عمق السديم .

وبلغ إبراهيم ومن معه الوادى الملكى فإذا بملك سدوم يستقبله فى ترحيب ويقول له :

ــ أعطنى رعيتى وخذ الغنائم كلها لك .

ــ ما خرجت إلا لله ، كل شيء هو لك ، لم آخذ شيئا إلا ما أكله

العبيد .

— خذ الأموال ، خذ ما شئت ودع لى رعيتى .

— لا آخذ شيئا فقد أغنانى الله من فضله .

وعاد لوط وزوجه وابنتاه إلى سدوم مع من أنقذ من قومهم من الأسر ، وذهب إبراهيم إلى حَبرون ليتم الله نعمته عليه .

١٢

سجدت هاجر شكرا لله وأطالت السجود ، فوقوع لوط فى الأسر وتخليص إبراهيم الرجال والنساء والعبيد من أيدى ملوك الآشوريين أهاج لديها الذكريات . إن إطلاق سراح لوط ومن معه من أسرهم قد أعاد إليهم كرامتهم ، أما هى فقد أحياها الله بأسرها . كان الأسر نعمة عليها وبركة تستحق الحمد ، إذ أكرمها الله وهداها إلى الإيمان وجعلها من عباده ، وإن كل من فى السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا .

رفعت هاجر رأسها فإذا بالدموع تملأ عينيها ، فقد راضت نفسها على الأنس بالله ومناجاته والتسبيح له حين تصبح وحين تمسى وآناء الليل وأطراف النهار وبالأسحار وقبل الغروب ، كانت تحس أن الله يغمرها بنوره وأنه سميع قريب ، فتموج فيها مشاعر حب عظيم وخوف شديد وتجرى على خديها العبرات وينزل بقلبها خشوع عميق .

كانت تعبد الله لذاته لا تطمع فى عرض الحياة الدنيا ، إنها تريد الآخرة لا تريد أن تذل وتخزى يوم يجمع الله الناس ليوم لا ريب فيه ، بلى إن الله يجزى من شكر ، نعمة من عنده والله عليم بالمتقين .

خشع قلب هاجر لله وخشيت ربها فرضى الله عنها ورضيت عنه ، وأراد الله أن يجزيها جزاء الشاكرين وأن يرفع قدرها فوق نساء عصرها

فأوحى إلى سارة أن تزوج هاجر من خليله إبراهيم(١) .

أعلن الله مشيئته واضحة كفلق الصبح أن يتزوج إبراهيم هاجر ليتحقق وعده ، ليأتى النسل المبارك الذى يرث مشارق الأرض ومغاربها .

إنها لتضحية تفوق قدرة البشر أن تدفع زوجة عزيزة مكرمة بيديها امرأة أخرى إلى فراش زوجها الذى تحبه من أعماق فؤادها ؛ إنها لتضحية عظمى أن تتنازل عن مركزها السامى كزوجة وحيدة لرسول الله لامرأة أخرى أيا كانت تلك المرأة . إنها سيدة القبيلة وستشاركها فى زوجها جارية من جواريها ؛ ولكن سارة كانت كفئا للتضحية ، عرفت الله وآمنت به وتوكلت عليه وأسلمت وجهها ، فإن أمرها بأمر وجبت عليها طاعته وهى راضية ، فله الأمر وهو فعال لما يريد .

ولم تفكر لحظة أن تكتم ما أمرها الله به حتى لا يأثم قلبها ، فالإيمان نقى سريرتها وهيأها لأن تؤثر غيرها على نفسها دون أن تتبرم أو تضيق بما تفعل ، وذهبت إلى حبيبها وقد شرح الله قلبها وقالت :

— إنى أهب لك هاجر عسى أن يرزقنا الله منها ذرية .

وأبى إبراهيم فقالت له زوجته :

— إنى أهبها لك ليتحقق وعد الله .

وأبى إبراهيم فقد وعده الله أن يهب له ذرية ترث مشارق الأرض

(١) قال يوسيفوس المؤرخ اليهودى الذى عاش فى القرن الأول بعد الميلاد .
« وأحضرت سارة بأمر الله إلى فراشه إحدى جواريها المصريات المسماة هاجر عسى الله أن يرزق منها ذرية » .

ومغاربها وكان وعده مأتيا ، فالله لا يخلف وعده وهو قادر على أن يهب له من الصالحين من زوجه سارة التى شغف بها حبا .

وقالت له سارة :

ـــ وما تشاء إلا أن يشاء الله ؛ إن الله كان عليما حكيما .

وأيقن إبراهيم أن الله أمر بزواجه هاجر فأطاع أمر الله ، وبنى بهاجر ليرزق بالذرية التى وعده الله أن ترث المشارق والمغارب والله خير الوارثين .

وحملت هاجر فتهللت القبيلة بالفرح وراح إبراهيم يصلى شكرا لله ودموعه تغسل لحيته ، فقد صدق الله وعده ووهب له على الكبر ما فى بطن جاريته بعد أن عاش فردا مذ خرج من أور ، وإن ظل لوط الذى تبناه إلى جواره دائما قبل أن يرسله الله نبيا إلى أهل سدوم .

وفرحت سارة فقد تلقت عل يديها مئات الولدان الذين ولدوا فى القبيلة ، بيد أن ذلك الذى ستتلقاه وهو ينزل من بطن هاجر يختلف عن الولدان جميعا فهو ابنها وابن إبراهيم الحبيب .

هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر . وخرت سارة ساجدة لله رب العالمين ، ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد .

وراحت هاجر تقوم الليل تصلى لله ما استطاعت وتحمده حمدا كثيرا وتبتهل إليه أن يتقبل دعاءها ، فقد من الله عليها بنعمة كبرى ، نعمة ما كانت تجد نفسها قادرة على أن تفى الله حقه من الشكر عليها ، فكانت عيناها تفيضان بالدمع وهى تقول : رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ ، رب اجعله من الصالحين ، رب هب لى من

لدنك ذرية طيبة والحمد لله رب العالمين .

ونامت هاجر وهي قريرة العين تحمد الله أن اصطفاها لتنجب ذرية لخليله ، وإذا بهاتف يأتيها فى منامها ويقول لها :

— يا هاجر ! قد سمع الله ضراعتك وسيهب لك ولدا فسميه إسماعيل ، أى المسموع من الله ، لأن الله استمع لصلاتك وسيباركه الله ويكثر نسله تكثيرا .

وقامت من نومها خافقة القلب منشرحة الصدر فما زال الكلام الذى سمعته يرن فى أذنيها عذبا كتسبيح الملائكة ، وإذابروائح أطيب من المسك تنتشر فى الخيمة .

وتهلل وجهها بالفرح فقد بشرها الله بإسماعيل وبأنه سيكون مباركا لا يحصى نسله ، وخرت ساجدة لله شكرا ، إنها كانت شكورا ولكن أكثر الناس لا يشكرون .

كانت أميرة فى منف وكانت غاية أمانيها أن ينتصر زوجها على الهكسوس لتصبح سيدة القطرين تختال فى قصرها سنين ثم تذهب كما ذهبت مئات الملكات من قبلها كأن لم تكن بالأمس ، إلا أن الله أراد لها الهداية فأوقعها فى الأسر ودفعها إلى قوم مؤمنين ، فشكرت الله وفتحت له قلبها ليبدد ظلامه بنوره ، وسارت فى طريقه وأفعم فؤادها بمحبته وأمست تقضى الليالى تدعوه وتسبح بحمده وتأنس به ، فجزاها الله جزاء الشاكرين .

آتاها فى الدنيا حسنة فجعلها أما لابن رسوله الكريم الذى وعده أن يورثه المشارق والمغارب ، وسيؤتيها فى الآخرة حسنة فتكون مع المتكئين على الأرائك فى الجنة مع إبراهيم .

وجاء اليوم الموعود وأشرقت الدنيا بنور ربها ، وأحست هاجر بآلام الوضع فهرعت إليها سارة مستبشرة قد جعل الله قلبها فارغا من الحسد ، وكانت تحس إحساسا صادقا أنها ستتلقى ابنها الحبيب على يديها .

ونزل بالخيمة سكينة وأمن وسلام ، وراح إبراهيم يصلى لله فى محرابه ويدعوه دعاء حارا ويسجد له ويطيل السجود ، وانبعث من الخيمة صوت إسماعيل فإذا بقلب إبراهيم يفيض رقة وحبا ورحمة ، وإذا بالعبرات تطفر إلى مآقيه ، إن إبراهيم لحليم أواه منيب .

الحمد لله الذى صدقنا وعده ، الحمد لله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض ، له الحمد فى الدنيا وفى الآخرة وهو الحكيم الخبير . واندفع إبراهيم إلى الخيمة وهو يقول :

ــ رب إنى أعيذه بك وذريته من الشيطان الرجيم .

وحملت سارة إسماعيل بين يديها فى رفق وحنان وقدمته إلى الشيخ الجليل ، الشيخ الذى كان يدعو فى حاران وفى دمشق وفى بيت إيل وفى أواريس وفى منف وفى حبرون : رب هب لى من الصالحين ، فاستجاب له ربه ووهب له إسماعيل .

وألقى إبراهيم أول نظرة على ابنه الحبيب ، على ابنه الموعود ، فإذا بقلبه يتهلل بالفرح ، وإذا بينابيع الرقة تتفجر فيه ، وإذا بكل خلجة من خلجاته تلثم الوليد . وحانت منه التفاتة إلى هاجر فإذا وجهها يتهلل بنور عجيب .

وقال إبراهيم وهاجر وسارة :

ــ الحمد لله الذى فضلنا على كثير من المؤمنين .

وخروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون .

وفى ذات يوم جلس إبراهيم على باب خيمته ينتظر الضيفان كعادته وكان إسماعيل فى حجره ، وإذا بالهواء يرق وبروائح أطيب من كل طيب الأرض تفوح فى الجو ، وإذا بنفسه تصمو وإذا به يتهيأ لاستقبال وحى السماء .

وأوحى الله إليه :

ـــ قد سمعت لك فى إسماعيل ، إنى أباركه وأبارك ذريته ، يلد اثنتى عشرة أسباطا أمما وأجعله أمة عظيمة .

وقال إبراهيم وهو يضم ابنه إليه فى حنان :

ـــ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير .

١٣

انتصر إبراهيم على كدر لعومر وأبى أن يأخذ من ملك سدوم خيطا أو شراك نعل أو شيئا مما هو له فقد أغناه الله من فضله ، وما خرج للغزو ابتغاء الغنائم والأسلاب بل خرج غاضبا لله لينقذ نبيه من الأسر .

كان خليل الرحمن يمثل مشيئة الله على الأرض ، عاش مع من حوله من الملوك فى ود وسلام وجنح إلى السلم لما جنحوا لها ، أما من جاءوا معتدين فقد حق عليه قتالهم إن الله لا يحب المعتدين ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين .

وعاد لوط إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله لا إله إلا هو ويحذرهم غضب الله إن عذاب الله شديد . كذبت عاد فكيف كان عذاب الله ؟ أرسل عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر . وكذبت ثمود بالنذر ، فأرسل عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر .

وعكف لوط يدعوهم إلى الرشاد وألا يجحدوا بآيات ربهم وألا يعصوه وألا يتبعوا شهواتهم ، إنه يخاف عليهم أن ينزل بهم ما نزل بقوم نوح وقوم هود وقوم صالح ، فاتخذوه هزوا فقال لهم :

— استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون .

دعاهم فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارا ، وأنذرهم فما زادهم إلا نفورا ،

وضاقوا به فقالوا :

— ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين .

لطالما قالوا له ائتنا ما تخوفنا به ، ائتنا عذاب الله ، ولطالما قالوا مهددين: أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون. بيد أن لوطا كان يرجو لهم الهداية ، يرحو أن يتوبوا من الفساد وأن يعودوا إلى الله متطهرين ، إلا أن القوم كانوا مفسدين ، فلما يئس لوط من هدايتهم قال :

— رب انصرنى على القوم المفسدين .

كان ذلك فى سدوم ، أما فى حبرون فقد كان إبراهيم وهاجر وسارة يشكرون الله كثيرا أن منّ عليهم بإسماعيل واستمع لدعائهم فيه وبشرهم بأن يجعله أمة عظيمة وأن يلد اثنتى عشرة أسباطا أمما ، وما كان يكدر صفو أبى الضيفان إلا أن الضيفان لم يفدوا إلى خيامه فقد حبسوا عنه خمس عشرة ليلة فشق ذلك عليه .

ورأى إبراهيم رجالا قادمين فسر بهم ، ولما دنوا منه قالوا :

— سلاما !

قال :

— سلام !

ورأى ضيفا لم يضف مثلهم حسنا وجمالا تتهلل وجوههم بالنور ، فراغ إلى أهله وقال :

— لا يخدم هؤلاء القوم أحد إلا أنا بيدى .

وجاء بعجل سمين فذبحه ثم شواه وحمله إلى الضيف وقربه إليهم وجلس ليأكل معهم ، وقامت سارة تخدمهم فأمسكوا أيديهم عنه

فقال لهم :

— ألا تأكلون ؟

— يا إبراهيم إنا لا نأكل طعاما إلا بثمن .

— فإن لهذا ثمنا .

— وما ثمنه ؟

— تذكرون اسم الله على أوله وتحمدونه على آخره .

فنظر أحدهم إلى الآخر فقال :

— حق لهذا أن يتخذه ربه خليلا .

فلما رأى أيديهم لا تصل إلى العجل الحنيذ الذى حنذه وشواه على الحجر المحمي إكراما لهم ، نكرهم وأوجس منهم خيفة حين لم يأكلوا من طعامه ، ونظرت سارة إلى إبراهيم وضحكت لتخفف من روعه وقالت :

— عجبا لأضيافنا هؤلاء ، إنا نخدمهم بأنفسنا تكرمة لهم وهم لا يأكلون طعامنا .

وقال الأضياف لإبراهيم :

— لا تخف إنا رسل ربك أرسلنا إلى قوم لوط .

استنصر لوط ربه ، دعاه لينصره على القوم الفاسدين فبعث الله رسله لنصرته ، والتفت رسل الله إلى سارة وبشروها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب .

قالت :

— ياويلتى ! أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ؟ إن هذا لشيء عجيب .

قالوا :

— أتعجبين من أمر الله ؟ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد .

فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى بإسحاق وأمن ما كان يخاف قال :

— الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق ، إن ربى لسميع الدعاء .

وراح يجادل فى قوم لوط ، كان قلبه يفيض رحمة حتى على العصاة ، إن الله يريد أن يأخذهم بذنوبهم وهو يرجو رحمة الله . إن إبراهيم لحليم أواه منيب .

قالوا :

— إنا مهلكو أهل هذه القرية ، إن أهلها كانوا ظالمين .

— أرأيتم إن كان فيهم خمسون من المسلمين ؟

قالوا :

— وإن كان فيهم خمسون لن نعذبهم .

— وأربعون ؟

— وأربعون .

— وثلاثون ؟

— وثلاثون .

— وعشرون ؟

— وعشرون .

— وعشرة ؟

— وإن كانوا عشرة .

قال إبراهيم :

— ما من قوم لا يكون فيهم عشرة فيهم خير .

فراح رسل الله يؤكدون أن قوم لوط ليس فيهم عشرة مؤمنون وقالوا :

— يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود .

وأشفق إبراهيم على لوط فقال :

— إن فيها لوطا .

— نحن أعلم بمن فيها ، لننجينه وأهله إلا امرأته كانت فى الغابرين .

ومضت رسل الله نحو سدوم ، وبلغوا باب المدينة ونظروا فرأوا ابنة لوط عند النهر تستقى من الماء لأهلها . كان النهار قد انتصف والشمس ترسل أشعتها الحامية والآبار الحمر منتشرة فى المدينة وحولها بعض ما نفثت من القار ، فانطلق رسل الله إلى ابنة لوط وقالوا :

— يا جارية هل من منزل ؟

— نعم .

نظرت إليهم وكانوا شبانا لم تر أحسن منهم منظرا فخشيت عليهم من قومها ، إنهم كانوا قوم سوء مفسدين ، فقالت لهم :

— مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم .

وأتت أباها فقالت :

— يا أبتاه أرادك فتيان على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم هى

أحسن منهم ، لا يأخذهم قومك فيفضحوهم .

وذهب لوط إليهم فقالوا له :

— إنا متضيفوك الليلة .

فانطلق بهم وهو يتلفت ، فسألوه عما يريبه فقال :

— ما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية ؟

— وما أمرهم ؟

— والله ما أعلم على ظهر الأرض أناسا أخبث منهم ، أشهد بالله أنها لشر قرية فى الأرض عملا .

وبلغ لوط وأضيافه داره ودخل لم يعلم بهم إلا أهل بيته ، وانسلت امرأة لوط إلى قومها فى ناديهم وقالت :

— إن فى بيت لوط رجالا ما رأيت مثلهم ومثل وجوههم حسنا .

فجاء قومه يهرعون إليه فلما رآهم قال :

— هذا يوم عصيب .

وخرج لقومه فإذا بهم يراودونه عن ضيفه وقالوا له :

— ألم ننهك عن أن تضيف الرجال ؟

— يا قوم إن كنتم تريدون الزواج فهؤلاء بناتى هن أطهر لكم ، فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد ؟

قالوا :

— لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق . وإنك لتعلم ما نريد .

فقال لوط :

— لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد .

لو أن له انصارا ينصرونه عليهم أو عشيرة تمنعه منهم لحال بينهم

وبين ما جاءوا يريدونه من أضيافه ، ولكنه لا أنصار له ولا عشيرة تمنعه . ليس معه إلا الله والله ذو بأس شديد .

ودخل لوط وأغلق الباب خلفه لما ضاق بهم ذرعا ووقف خلف الباب يحاول أن يمنع القوم من الدخول على ضيفه ، وتكاثر القوم وكادوا يحطمون الباب واستولى على لوط الجزع فقال له الضيفان :

— يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك . يا لوط إنا مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين .

فقال لوط :

— أهلكوهم .. أهلكوهم الساعة .

— إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ؟

وفتح الباب ودخلوا يتصايحون ، وطمس الله أعينهم فجعلوا يلتمسون الحيطان وهم لا يبصرون .

وقالوا للوط :

— فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد .

وفى السحر أسرى لوط بأهله وأخذ معه زوجته عل كره منها ، إنها لا تصدق أن الله سيأخذ سدوم بذنوبها . وفى الصبح جاء أمر الله فثارت الآبار الحمر وألقت حممها وجعل الله قرى سدوم عاليها سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود .

والتفتت امرأة لوط تنظر وكان قلبها مشدودا إلى القوم الفاسدين ، إنها ترى وعد الله يتحقق وكانت من الساخرين ، وأصابتها حجارة السماء إنها كانت من الهالكين .

ووقف إبراهيم ينظر ، إن الله يجعل عالى سدوم سافلها ..

والمؤتفكة أهوى . فغشيها ما غشى .. هذا نذير من النذر ، صارت سدوم عبرة كعاد الأولى وثمود وقوم نوح من قبل .. إنهم كانوا هم أظلم وأطغى .

ورأى إبراهيم لوطا وأهله قادمين إلا امرأته كانت من الغابرين ، كانوا تسعة . إنه كان يجادل ربه فى قوم فاسقين ، قوم لا خير فيهم ، لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

١٤

لم يبن إبراهيم بيتا لله منذ بعث فى أور ، كانت المعابد فى بلاد ما بين النهرين فى أيدى كهنة سين ومردوخ وشماس وعشتار ، وكانت الهياكل فى سورية فى أيدى كهنة بعل والآلهة الأخرى وكانت المعابد فى مصر فى أيدى كهنة ست وبتاح وأزريس وباسنت وآمون . لقد كان يبنى فى كل بقعة من بقاع الأرض تطؤها قدماه محرابا ، وإنه ليخشى أن يضل المؤمنون بهذه المحاريب فيحسبون أن كل محراب أقيم لإله فيجعلون لله أندادا ، كما ضل الذين من قبلهم لما حاولوا تجسيد صفات الله فأصبحت كل صفة من صفاته إلها يعبد لذاته ، فجعلوا لله شركاء !

كان يدعو إلى عبادة الله الواحد القهار أينما كان ، وكان الناس يقيمون فى قلوبهم هياكل لله ، بيد أن الله لم يكن له بيت تقام فيه الشعائر بينا أقام المشركون لآلهتهم معابد وهياكل انتشرت فى الأرض ، إن الله لا بد أن يكون له منار يهدى المؤمنين الضاربين فى بيداء الحياة سواء السبيل .

أتنتهى رسالة إبراهيم بدعوة الناس إلى عبادة رب السماء والأرض رب العالمين ؟ أيكتفى بالمحاريب التى أقامها على قمم الجبال وفى السهول والوديان ؟ ألا يكون لله بيت يسبح له فيه بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ؟

وإن أراد أن يبنى هذا البيت أيسمح له كهنة حبرون أو كهنة بيت إيل أو كهنة أى إله من الآلهة المنتشرين فى المدن والبلاد ما بين النهرين إلى وادى النيل أن يقيم بيتا لله ليقضى على نفوذهم وعلى الثراء الفاحش الذى ينعمون به ؟

أمره الله أن يضرب فى المشارق والمغارب ، أن يضرب فى الأرض التى سترثها ذريته . والمشارق والمغارب ليست بيت إيل ولا حبرون ولا بابل ولا مصر وحسب فالجنوب لا يزال مفتوحا أمامه . إنه لم ينطلق فى سياحته الروحية إلى الحجاز وهو الذى أمر أن يجوب الآفاق يدعو لله رب العالمين .

لماذا يستقر فى حبرون ؟ أليرعى شئون المؤمنين ؟ أليكون إلى جوار سارة ؟

إن شئون المؤمنين يمكن أن ينهض بها لوط بعد أن عاد إلى حبرون ، وسارة لن تشده إلى الأرض وقد وهب نفسه وذريته لله . إنه هاجر إلى ربه منذ خرج من أور وستستمر هجرته ما استمرت أنفاسه تتردد بين جنبيه .

وأوحى الله إليه أن خُذ هاجر وإسماعيل واخرج إلى حيث أريك ، فحمل هاجر وإسماعيل وهو رضيع وانطلق إلى الجنوب ، إلى الأرض التى أراد الله أن يبارك فيها للعالمين .

ونزل خليل الله وهاجر وإسماعيل بواد غير ذى زرع يطل عليه جبل قبيس ، لا ماء ولا شجر ولا دوحة ولا ظل ولا أنفاس حياة ، لم يكن بالوادى أحد إلا الله والذين أمر بخروجهم ليعلى كلمته ويتم نوره .

ونظر إبراهيم فإذا بربوة ؛ إنها بيت الله المحرم قد أتى عليه الطوفان(١) فأنزل هاجر وإسماعيل فوق الربوة وراح يصنع لهما سكنا . ومكث إبراهيم معهما ما شاء الله له أن يمكث ثم وضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاة فيها ماء وذهب منطلقا ، فتبعته هاجر وقالت :

— يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا فى هذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولا شىء ؟

وسار إبراهيم لا يلتفت إليها ، إنه يوسع من خطوه فقلبه يكاد ينفطر . إن الله وهب له إسماعيل على الكبر ، وها هو ذا الله يأمره أن يتركه فى هذه الفلاة التى لا يطير فى سمائها طير ولا يدب على أرضها إنس ولا حيوان ولا ينبت فيها زرع ولا يحلب فيها ضرع . إن الله قد ابتلاه فصبر على ما أصابه إن ذلك من عزم الأمور .

وراحت هاجر تهرول خلفه وتقول :

— يا إبراهيم أين يذهب وتتركنا فى هذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولا شىء ؟

ولم يحر إبراهيم جوابا فهو ذاهب إلى الله وإنه يتركها لله لتتحقق مشيئته ، إن الله فعال لما يريد .

وانطلق إبراهيم لا يلوى على شىء . كان قلبه يفيض بالرحمة وهاجر تحرك شجونه وهى تهرول فى أثره وتقول له :

— يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا فى هذا الوادى الذى ليس فيه أنيس

---

(١) يعتقد الصابئة أن إدريس أول من بنى بيت الله الحرام فى مكة ، وأن الطوفان أتى عليه « انظر التذييل » .

ولا شيء !

أنيس ؟! أليس الله أنيسك يا هاجر ؟ ألم يملأ عليك خيمتك أنسا ؟ ألم يملأ بصيرتك نورا والكون غارق فى الظلام ؟ أيكون بلا أنيس من كان الله أنيسه ؟ أيشكو الوحدة من كان الله معه ؟ ما هذا الفزع يا هاجر ؟ ألا يطمئن قلبك بذكر الله ؟ إن كان هذا الوادى ليس فيه شيء فإن الله قادر على أن يفتح عليكم بركات من السماء والأرض .

وجعل إبراهيم لا يلتفت إليها حتى إذا ما عاد نور الله إلى فؤادها قالت :

ـــ آلله أمرك بهذا ؟

قال :

ـــ نعم .

فاطمأن قلب هاجر ، إن كان الله قد أمره بأن يحملها هى وابنها إلى هذا الوادى فإن الله يريد أن يتم نعمته عليها وعلى ابنها ، فقالت فى ثقة :

ـــ فإذا لا يضيعنا .

وذهب عنها الروع وعادت إلى العريش مرفوعة الرأس لم تذرف دمعة ولم ترتعد فرائصها من الخوف ، كانت الجبال من حولها شامخة هائلة تبعث الوحشة فى النفوس إلا أن هاجر نزل بقلبها أمن وسلام .

وانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يريانه استقبل بوجهه البيت ورفع يديه وقال :

ـــ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون .

وجلست هاجر ترضع ابنها وتمد عينيها إلى ما حولها ؛ كانت الجبال تطل عليها من كل مكان ، جبل قبيس .. الصفا .. المروة .. السماء فوقها .. والأرض حولها ما جت ببحار من الرمال .

وخيم على المكان سكون عميق وانثالت على ذهنها الذكريات ، إنها كانت فى قصرها فى منف ومن حولها الوصيفات والخدم ودنيا صاخبة إلا أنها كانت دنيا بلا روح ، دنيا بلا أمل ، لا يملأ فراغها إلا الطعام والشراب وأناشيد المغنين وترتيلات الكهان ، أما هنا وهى وحيدة بلا خدم ولا وصيفات ، ولا أنيس ولا جليس ، ولا أغانى ولا ترتيلات ، فهى تحس تعاطفا مع الكون ، يملأ الله حياتها أنسا ويجيش صدرها بآمال عريضة مشرقة ، فقد وعدها الله أن يجعل إسماعيل أمة عظيمة وأن يولد له اثنا عشر رجلا .

إن كان الله قد جاء بها من قصور مصر إلى هذا الوادى المقدس فإنه أراد أن يشرفها ، وأن يحقق ما وعدها به ، أن يكون ما شاء ، إن الله فعال لما يريد .

وإن كانت نشأت فى القصور فما ذلك إلا لتتعلم كيف تربى ابنها الذى اصطفاه الله ليكون أبا لأمة عظيمة ، وإن كانت وقعت فى الأسر وتحملت الشدائد فما ذلك إلا لتعلم ابنها كيف يصبر على الشدائد . إن الله قد كيَّف حياتها لتنهض بعبء عظيم ، عبء تنشئة إسماعيل .

وراحت هاجر تأكل من جراب التمر وتشرب من الماء ، حتى إذا نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها وراح يتلبط .

ونظرت إليه وهو يتلوى من العطش فأحست نياط قلبها تتمزق وكاد عقلها يطيش ، إنها لا تستطيع أن تنظر إلى حبيبها وهو يبكى من الألم ،

إن كبدها تكاد أن تنفطر .

وجعلت تتلفت فوجدت الصفا أقرب جبل إليها فهرعت إليه وقامت عليه ، ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا ؟ فلم تر أحدا فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدا ؟

وراحت تسعى بين الصفا والمروة سبع مرات تتلهف على رؤية أحد ينقذ ابنها من الموت عطشا ، وما دار بخلدها فى تلك اللحظة التى استولى عليها فيها الجزع أن ملايين المؤمنين على مر السنين سيسعون بين الصفا والمروة سبعة أشواط ، تخليدا لذكرى ما كان فى ذلك السعى من بركة .

ولما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت :

ـــ صه !

تريد نفسها ، ثم أصاخت السمع فسمعت الصوت أيضا ، فانطلقت إلى حيث كان ابنها فإذا بالماء قد ظهر عند قدميه ، فجعلت تخوضه فى فرح وتغرف الماء فى سقائها .

وشربت وأرضعت ولدها وإذا بالملك عند زمزم فقال لها :

ـــ لا تخافى الضيعة فإن هذا بيت الله الحرام ، يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله .

وتهللت هاجر بفرح فياض فقد حملها الله إلى بيته الحرام ، إلى بيته المبارك الذى سيبنيه ابنها وخليل الرحمن ، إنها تعيش فى البقعة الطاهرة ، فى الأرض التى بارك الله فيها للعالمين .

ونزلت رفقة من جُرهم فى طريق أسفل مكة ، ورأوا طائرا يحوم فى

الجو فقالوا :

ــ إن هذا الطائر ليدور على ماء ، لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء .

وأرسلوا من يرى الخبر .

وأقبل غلامان من العماليق يريدان بعيراً لهما قد أخطأه وقد عطشا ، وكان أهلهما بعرفة فنظرا بطير يهوى قبل الوادى فاستنكرا ذلك وقالا :

ــ أنى يكون هذا الطير على غير ماء ؟

ــ كما ترى . هذا الطير يذهب إلى غير ماء .

قال الآخر :

ــ فأمهل .

ونظر فإذا الطير يرد ويصدر ؛ إنه يرد الماء ويصدر عنه ، فاتبعا الواردة منها حتى وقفا على أبى قبيس فنظرا إلى الماء وإلى العريش فإذا بهاجر عند الماء .

وجاء رسول جُرهم إلى هاجر وقال لها :

ــ أتأذنين لنا أن ننزل عندكم ؟

فقالت فى ترحيب وحزم :

ــ نعم ولكن لا حق لكم فى الماء .

ــ نعم .

وهبط الغلامان من فوق جبل قبيس إلى الوادى وانطلقا إلى هاجر وقالا :

ــ لمن هذا الماء ؟

قالت :

— لى ولابنى .

فقالا فى دهش فعهدهما بالوادى قريب وليس به ماء :

— ومن حفره ؟

قالت :

— سقيا الله .

الله ؟ ونظر أحدهما إلى الآخر فما كانا يعرفان الله ، بيد أنهما أحسا إحساسا جليلا ملأ قلبيهما خشية وقالا :

— أتأذنين لنا أن ننزل عندكم ؟

— نعم ولكن لا حق لكم فى الماء .

وجاءت جرهم برجالها ونسائها وأطفالها وإبلها وبعيرها وغنمها ، وجاء العماليق برجالهم ونسائهم وأطفالهم وإبلهم وغنمهم ، وإذا بالوادى الذى ليس فيه زرع ولا ضرع ولا أنيس ولا شىء ينبض بالحياة قد فتح الله عليه بركات من السماء والأرض .

وخرت هاجر ساجدة لله وكل خلجة من خلجاتها تحمده وتسبح له : إن ربى رحيم ودود .

١٥

لم يستقر إبراهيم فى حبرون فقد أمره الله أن يضرب فى مشارق الأرض ومغاربها ليدعو الناس إلى عبادة الله وحده ، وقد كان الناس أمة واحدة يتكلمون لغة واحدة وما كان الاختلاف فى اللغة إلا كاختلاف اللهجات فى القبائل فى الإقليم الواحد .

لم ينظر إبراهيم إلى عشيرته على أنها أفضل عشائر الأرض طرا ، و لم يتفتح قلبه لمدينة دون مدينة ، فالناس أمام الله سواسية لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، والأرض كلها لله . وقد تعلق قلبه بربه وامتلأ بمحبته فكان سواء لديه أفى حبرون كان أم كان فى بيت إيل أم فى أواريس أم فى مسقط رأسه أور .

كان قلبه لا يهفو إلا لله ، وكان يضرب فى مشارق الأرض ومغاربها ليدعو إلى الله ، وهو يعلم أن الأمر كله لله إن شاء أنعم على قوم بالإيمان وإن شاء طمس على قلوبهم : ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ .

رفع إبراهيم خيامه من حبرون وانطلق هو وأهل بيته وعشيرته ورجاله وعبيده وإماؤه وإبله وأنعامه وأغنامه إلى الجنوب ، فالاستقرار يفسد النفوس كالماء إن وقف عن الجريان أسن . إنه يخشى أن تتحول رسالته إلى ملك عضبوض وهو يرى الممالك من حولـه نخر فيها السوس ،

فالعرب[١] أغاروا على بلاد سومر وأسسوا مملكة بابل ، وأغاروا على مصر وأسسوا مملكة الهكسوس ، وأغاروا على سورية وأسسوا مملكة قوية فى مارى ومملكة أخرى فى جرار .

كانت جرار عاصمة مملكة قوية قامت فى أرض فلسطين قبل أن يطلق عليها ذلك الاسم ، أغار عليها العرب الرعاة كما أغاروا على ممالك الشرق الأوسط واستأصلوا شعبها واستقروا فيها وانتقلوا من أمة بدوية إلى أمة حربية لها سلطان ونفوذ .

وأطلق على كل ملك من ملوك جرار اسم أبيمالك أى أبى الملك ، كما أطلق على كل من حكم مصر اسم فرعون . إن إبراهيم يرى الممالك تتهاوى من حوله ، ويرى أن الله يذهب أقواما ويورث الأرض أقواما آخرين . إنه لا يريد ملكا أرضيا بل يريد أن تظل مملكة السماء لله يرثها عباده الصالحون .

ونزلت قبيلة إبراهيم بين قادش وصور على طريق القوافل بين البادية والحضر ؛ ليتصل إبراهيم بالناس إذا نهض لدعوته وليهيىء لنفسه ولقومه جو العزلة ليتصلوا بالله ليفتح عليهم بركات من الأرض والسماء .

وذهب إبراهيم إلى جرار وكانت مدينة حصينة تموج بالجنود وتقوم

---

(١) يطلق المؤرخون على هؤلاء العرب اسم الساميين ، ولا يرجع تاريخ استخدام كلمة سامية للدلالة على بعض اللغات ثم على بعض الأقوام إلا إلى عام ١٧٨١ عندما استخدمها العالم الألمانى شلويتسر للتدليل على لغات الذين ينسبون إلى سام بن نوح ، وكانوا يعيشون فى بلاد العرب وبلاد النهرين سورية وفلسطين .

فيها الحصون والقصور . أما المعابد التى انتشرت فى بابل ومصر ، والهياكل التى أقيمت فى بيت إيل وحبرون ، والكهان الذين كانوا يسيطرون على منابع الثروات والنفوذ فما كان لهم فيها من أثر .

وبلغ إبراهيم قصر أبيمالك وكان قصرا هائلا له شرفات زينت بالزخارف والتهاويل كشرفات قصور دمشق وأواريس ، وكان الحراس يقفون عند باب القصر فى أيديهم الرماح شدت حول أوساطهم أحزمة بها الخناجر ، والتفت حول ذقونهم اللحى ، وأطلت من عيونهم ضراوة المقاتلين .

دخل إبراهيم ثابت الخطو فوقعت عيناه على الزخارف التى زين بها القصر وكانت محاكاة للزخارف التى رآها فى دمشق ، أما التماثيل فكانت من صنع مصر رأى مثلها فى أرض جوشن وفى أواريس وفى منف . بيد أنها كانت تحاط هناك بمراسيم وقدسية أما هنا فى قصر أبيمالك فقد وضعت للزينة . كانت تماثيل لا معنى لها أكثر من أنها قطع فنية !

وسار فى ردهات القصر يقوده رجل من رجال الملك ، وكان ساكنا مهيبا لم تختلج فيه خلجة حتى إن رجل الملك رمقه فى دهش ، فما من أحد دنا من قاعة العرش إلا اضطرب وغاض لونه وزاغت نظراته .

كان إبراهيم خليل ملك السماوات والأرض وما بينهما ، رسول رب العالمين عند ذى العرش مكينا ، فكيف يخشى عبدا من عباد ربه وقد وعده الله بالتأييد ، والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار .

لم يعرف الخوف طريقه إلى قلبه عندما قال لقومه : ﴿ يا قوم إنى برىء مما تشركون * إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض

حنيفا وما أنا من المشركين ﴾ ولم يرتجف فرقا يوم وقف أمام النمروذ يجادله ويقول له : ﴿ فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ﴾ وظل ثابت الجنان حين أمر النمروذ بإلقائه فى النار ، ولم تذهب نفسه شعاعا إذ دخل على ملك مصر فى قصره بأواريس . إنه يدخل على جبارى الأرض بسلطان جبار السماء ، أوَ ترتعد فرائصه من أبيمالك بعد بعد أن رأى كيف أمطر ربه قوم لوط حجارة من سجيل منضود ، وجعل عاليها سافلها ؟[1] .

ودخل قاعة العرش وكان أبيمالك فوق عرشه وعلى رأسه التاج وفى يده الصولجان يحف به رجال دولته ، وكان فيكول رئيس حيشه عن يساره ، وما كان ثم رئيس للكهنة ولا كاهن لأسرار السماء ؛ فما كان القوم يؤمنون ببعل ولا عشتار ، وما كانوا تعلمرا بعد كيف يتملقون الشعوب باعتناق دياناتها ، فقد أبادوا أهل البلاد الأصليين عن بكرة أبيهم .

وخر الرجل الذى دخل مع إبراهيم ساجدا بين يدى أبيمالك ، ووقف إبراهيم مرفوع الرأس وقال فى رقة :

ـــ سلاما .

---

(١) جاء فى التوراة أن إبراهيم خاف أن يبطش به أبيمالك من أجل سارة ، فقال لسارة : قولى إنك أختى ، وأرسل أبيمالك وأخذ سارة ولكن الله حذر أبيمالك فى المنام من أنه ميت إن اقترب منها . وجاء فى التوراة أن مثل ذلك حدث مع ملك مصر ، وقد وجدت أن ذلك لا يتفق مع جلال إبراهيم وشجاعته فأسقطت الحادثتين وإن ورد فى إحداهما حديث نبوى مشكوك فى صحته .

راجع تذييل الجزء الأول .

وراح الرجال يتلفت بعضهم إلى بعض ويعجبون من ذلك الشيخ الوقور الذى أبى أن يسجد بين يدى أبى الملك ، و لم يستطع الملك أن يكتم ثورته فقال فى غضب :

ــ لماذا لا تسجد ؟

ــ لم أكن لأسجد إلا لله .

ــ ومن هو الله الذى تسجد له ؟

ــ الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد . الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا أولئك فى ضلال بعيد .

ــ وأين الله هذا ؟

ــ إنه معنا يسمع ويرى . ﴿ الله الذى خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم * وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار * وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار * وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ..﴾ .

وراح إبراهيم يدعوهم إلى الله وهم يجادلونه ، و لم يشتدوا معه بل قالوا قولا معروفا ومالت قلوبهم إليه فقد كان يجادلهم بلسانهم .. وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم .

وحفر إبراهيم بئرا حيث نزل وبنى محرابا لله وأقام على باب خيمته ينتظر الضيف ويدعو الغادين والرائحين إلى دين الله ، فآمن له كثيرون وانتشر دين الله فى الآفاق .

وجاء عبيد أبيمالك وأرادوا أن يغتصبوا البئر من إبراهيم وقومه ، وكادت أن تنشب حرب بين أتباع إبراهيم وعبيد الملك لولا أن تحلم إبراهيم الحليم وخلى بينهم وبين البئر .

ورأى أبيمالك أن إبراهيم أصبح فى منعة وقوة وآنه لو أراد أن يثب على الحكم لا نتزعه منه ، فقرر أن يعقد معه حلفا ليصون عرشه الذى أصبح فى مهب الريح .

وخرج أبيمالك وفيكول إلى حيث نزل إبراهيم فاستقبلهما بالترحاب وضيفهما وأكرمهما غاية الإكرام ، وقال الملك :

ــ إن الله معك يا إبراهيم وهو يبارك كل ما تفعل ، وقد جئتك لتحلف لى بالله ألا تغدر بى ولا بذريتى من بعدى . إنى رحبت بك يا إبراهيم فى بلادى ووسعتك فى أرضى فنزلت فيها من المعززين المكرمين .

ــ أقسم لك .. فمن نكث فإنما ينكث على نفسه .

وتهلل الملك وقائد جيشه بالفرح فقد عاهدهم إبراهيم على حسن الجوار وعلى ألا يغدر بهم ولا بذريتهم ، وإن إبراهيم لمن الصادقين .

والتفت إبراهيم إلى الملك وقال :

ــ اغتصب عبيدك البئر التى حفرتها ،

فالتفت أبيمالك إلى فيكول قائد جيشه وقال :

ــ أسمعت شيئا عن هذا من قبل ؟

ــ لا يا مولاى .

قال أبيمالك :

ــ والله ما سمعت بهذا من قبل اليوم فلماذا لم تقل لى ؟

كان الملك ضئيلا أمام الشيخ المهيب ، جاء من قصره إلى الصحراء

ليخطب وده ويلتمس منه أن يعاهده على صيانة عرشه ، ذل جبار الأرض لرسول جبار السماء .

وأهدى إبراهيم للملك بعض الأنعام والأغنام فتقبلها شاكرا إلا أن أبيمالك لاحظ أن سبع نعاج من الغنم وقفت وحدها بعيدة عن القطيع فالتفت إلى إبراهيم وقال :

ـــ ما أمر هذه النعاج السبع ؟

قال إبراهيم وهو يشير إلى القطيع :

ـــ هذه هدية أهديها لك .

ثم أشار إلى النعاج السبع وقال :

ـــ أما هذه فإنى أعطيكها لتكون شهادة لى بأنى حفرت هذه البئر .

فقال أبيمالك :

ـــ البئر لك .

وعاد أبيمالك ورئيس جيشه سعيدين بالميثاق الذى أبرماه مع إبراهيم رسول الله ، الرجل الذى يؤيده ربه فى كل ما يفعل ، وانطلق إبراهيم إلى بئر سبع وهو يشكر الله فقد عادت إليه البئر دون أن يشن حربا أو يهريق دما .

١٦

ركب إبراهيم راحلته منطلقا إلى الجنوب إلى حيث أسكن هاجر وإسماعيل ، إن الله أمره أن يسكن ابنه ذلك الوادى القفر يوم كان إسماعيل رضيعا ، فلم تشهد هاجر مولد إسحاق الذى من الله عليه به بعد أن وهب له إسماعيل بثلاث عشرة سنة .

لم يكن بين سارة وهاجر مخاصمة و لم تحس سارة غيرة من هاجر . كانت سارة مؤمنة تتلقى أوامر الله راضية ، وقد جزاها الله جزاء الشاكرين فوهب لها إسحاق وهى عجوز عقيم . و لم ير إسماعيل أخاه الوليد بعد و لم تسمع هاجر بمولده .

ختن إبراهيم إسحاق وهو ابن ثمانية أيام ، وأقام وليمة لعشيرته وجيرانه وأطعم كل من استطاع أن يطعمه شكرا لله ، وها هو ذا يخرج ليزور إسماعيل ويزور أمه ، فقد كان إبراهيم رحيما يحبها من كل قلبه ، وكان إسماعيل قريبا إلى فؤاده فهو ابنه البكر الذى استمع الله لدعائه فيه وأمر بخروجه إلى الأرض التى يريد أن يبارك فيها للعالمين ، ليتم الله وعده .

لقد تركه وأمه بواد غير ذى زرع عند بيت الله المحرم ، و لم يضع عندهما غير جراب به تمر وسقاء فيه ماء ، وكان يعلم علم اليقين أن التمر لا يكفى هاجر إلا أياما قليلة وأن الماء ينفد وشيكا وليس بالمكان أحد وليس به ماء . و لم يشغل قلبه بأمرهما فقد أمره الله أن يتركهما بذلك

المكان فكان عليه أن يطيع أمر الله وعلى الله أن يتولاهما برحمته .

إن الله قادر على أن يرزقهما وهو لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز . لقد اتقت هاجر الله فجعل لها مخرجا ورزقها من حيث لا تحتسب . فجر لها زمزم فكانت بركة ، تبارك الله رب العالمين .

وراح إبراهيم يفكر فى هاجر وإذا بحكمة هبوطه إلى مصر تتضح لعينيه . لقد وقعت سارة فى الأسر فهبط إلى مصر دون أن يتبرم أو يضيق بمشيئة الله . كان يؤمن فى قرارة نفسه أن الله ما قاده إلى مصر إلا لحكمة لا يعلمها إلا هو وإذا بحكمة الله تتجلى له وهو يضرب فى البيداء أقرب ما يكون إلى ربه . إن الله إنما قاده إلى مصر ليعود بهاجر ليهب له منها ذرية صالحة ، وقد ولدت له هاجر بكره الحبيب ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وتذكر سارة وإسحاق ، تذكر النعم التى أسبغها الله عليه ، لقد صكت سارة وجهها لما بشرها رسل ربها بإسحاق وتهللت بالفرح وضحكت ملء شدقيها بعد أن تحقق وعد الله ووهب لهما إسحاق . أكانت سارة فى شك من قدرة الله يوم صكت وجهها أم أذهلتها المفاجأة عن أمرها ؟

كانت هاجر شابة وضاءة تفور بالحياة فإن قضى الله بأن يبنى بها إبراهيم فقد كانت حَرِيَّة بأن تلد له الابن الموعود . أما سارة فقد كانت عجوزا عقيما . كانت عاقرا فكانت البشرى مذهلة لها جعلتها تصك وجهها وتعجب من أمر الله حتى إن رسل ربها قالوا لها : « أتعجبين من أمر الله ؟ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد » .

إسحاق معناها الضحك ، وقد بشر رسل الرحمن سارة بإسحاق

فأصبحت ضاحكة السن مذ ولدته ، وهل هناك ما هو أفرح للقلب من أن تلد عجوز عقيم بعد اليأس ؟ لقد فاضت نعمة الله على إبراهيم وعلى أهل بيته .

وراحت الشمس تغرب عن يمينه وكان الغسق فى لون الأرجوان وانتشر اللون الأحمر فى رقعة السماء وراح يتشكل فى روعة تملأ النفس انبهارا والقلب خشوعا . إنه ليشهد فى الأفق آية من آيات الله بديع السماوات والأرض . وفاضت جوانح إبراهيم بالعواطف المشبوبة فسجد على قتب بعيره وقال :

ــ رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على .

واستأنف رحلته يسهر مع الله ويسرى مع الله وقد وجه وجهه شطر الأرض التى أرسل الله إليها الرسل من قبله : ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون * يا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون ؟ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين * قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين * إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ، قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون * من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون * إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم * فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرونه شيئا إن ربى على كل شىء حفيظ *

﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون *

وإذا بطشتم بطشتم جبارين * فاتقوا الله وأطيعون * واتقوا الذى أمدَّكم بما تعلمون * أمدَّكم بأنعام وبنين * وجنات وعيون * إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم * قالوا : سواء علينا أوَعظت أم لم تكن من الواعظين * إن هذا إلا خلق الأولين * وما نحن بمعذَّبين * فكذبوه فأهلكناهم إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * .

﴿ كذبت ثمود المرسلين * إذا قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * ولا أسألكم عليه من أجر إن أجرىَ إلا على رب العالمين * أتُتركون فى ما هٰهنا آمنين * فى جنات وعيون * وزرع ونخل طلعها هضيم * وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين * فاتقوا الله وأطيعون * ولا تطيعوا أمر المسرفين * الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون * قالوا إنما أنت من المسحَّرين * ما أنت إلا بشر مثلنا فأتِ بآية إن كنتَ من الصادقين * ﴾ .

وفكر إبراهيم . إن ابنه إسماعيل يشب بين أقوام أسلافهم قوم هود وقوم صالح ، كانوا أناسا ذوى قوة وبأس اتخذوا مصانع لعلهم يخلدون ، ونحتوا من الجبال بيوتا فارهين ، وأنعم الله عليهم بجنات وعيون ، فلم يشكروا نعمة الله فحاق بهم عذاب غليظ مثل العذاب الذى نزل بقوم لوط .

إنه يرتجف فرقا من خشية الله كلما تذكر كيف أن الله أمطر عليهم مطرا فساء مطر المنذرين . إنه يرجو من كل قلبه أن يرحم الله إسماعيل وإسحاق من مثل ذلك العذاب الغليظ .

وبعد أيام وصل إبراهيم إلى جبل قبيس ووقف ينظر إلى الوادى الذى ترك فيه هاجر وابنه إسماعيل . كان الوقت ليلا وكانت النيران تنبعث من

كل مكان حول زمزم وكان عريش هاجر فى مكانه فوق الربوة الحمراء عند بيت الله المحرم ، فانشرح صدر إبراهيم وترقرق الدمع فى عينيه . إنه يشهد رحمة الله وبركاته يسبغها على أهل بيته .

لقد كانت هاجر منذ أهداها ملك مصر إلى سارة خيرا وبركة عليه ، إنها مباركة جاءها الملك عند زمزم فقال لها : لاتخافى الضيعة فإن هذا البيت الحرام يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله . إنها مؤمنة شاكرة والله لا يضيع أجر المحسنين .

وفى سكون الليل راح إبراهيم يناجى ربه ويدعوه :

— ﴿ رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبَنِىّ أن نعبد الأصنام * رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن اتبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم ﴾ .

وراح يهبط إلى الوادى وهو يقول :

— ﴿ ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء * الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربى لسميع الدعاء ﴾ .

وأناخ بالقرب من العريش وذهب خافق القلب شاعت فيه رقة وحنان إلى حيث كانت هاجر وإسماعيل ، ولم يدخل بل وقف يستأذن فإنه قادم بليل . ومس أذنيه صوت هاجر رقيقا وهى تقرأ مع ابنها الحبيب فى صحف إبراهيم فأفعم فؤاد خليل الرحمن بالرضا ، ذرية بعضها من بعض يهدى الله الشاكرين إلى صراط مستقيم .

وختن إبراهيم إسماعيل ونحر أبو الضيفان النحائر وأولم وليمة عظيمة ، وجاء من نزلوا عند هاجر يشاركون رسول الله سروره ، ودار الحديث

حول الله وترددت فى جنبات الوادى أنفاس طاهرة تسبح لله فى الغدو والآصال وعند دلوك الشمس وفى غسق الليل وبالأسحار .

وكان إسماعيل يخرج إلى البرية مع أترابه وكان شغوفا بالصيد يجد متعته فى أن يعدو خلف الغزلان يرميها بسهامه ، وكان يتهلل بالفرح كلما سقطت فى يده فريسة . ثم يعود إلى العريش يحمل صيد يومه ويجلس يصغى إلى أبيه ويتلقى منه الحكمة فتنير جنبات كيانه بنور لطيف يملأ النفس أمنا ويفيض على الروح بالسلام .

وفى يوم انطلق إسماعيل مع إخوانه للقنص فى الصحراء وبلغوا أقصى ما كانوا يصلون إليه ، وإذا بإسماعيل يفوتهم ويتوغل فى البيداء فراحوا يخوفونه السباع ، ولكنه سار لا يلوى على شىء و لم يتبعه أحد منهم فهم يعرفونه متأبدا خشنا شديدا لا يثنيه شىء عما عزم أن يفعله .

ووقف من خرجوا معه ينظرون وفغروا أفواههم دهشة ، إن الأفق البعيد يطبق عليه . ترى ماذا يفعل هناك ؟ لقد ذهب أكثر من مرة ثم عاد دون أن ينبس بكلمة أو يفضى بسر .

وراح إسماعيل ينظر .. إنه يرى جيادا وحشية تجرى فى الفلاة . و لم تكن الجياد قد استؤنست بعد وإن فكرة أن يمتطى جوادا من تلك الجياد تملأ رأسه . إنه يفكر فى الوسيلة التى يعتلى بها ظهر جواد منها .

أخذ يعدو خلف الجياد فكانت الجياد إذا أحست به أطلقت سيقانها للريح ، وكانت أنفاسه تنبهر دون أن يصل إليها . إنها جياد عربية غر محجلة تمر به مر السحاب .

وجرى بالقرب منه جواد أشهب فعدا إلى جواره وتمكن من أن يتشبث بعرفه ، وراح يجرى معه ثم قفز على ظهره ، و لم يستقر به المقام

طويلا فقد أخذ الجواد يثب فى الهواء ويضرب الفضاء برجليه الخلفيتين ويحاول محاولة أن يلقيه عن ظهره . ونجح الجواد فى أن يطرح إسماعيل أرضا دون أن يسلس له قياده .

ونهض إسماعيل وهو يبتسم ولم يدب اليأس إلى قلبه فسيعاود محاولته . كان اعتلاؤه ظهر الجواد حلما يراوده ، أمنية من أمنياته ، فإذا به يحقق حلمه ، ولئن لم يستقر على ظهر الجواد إلا لحظات إن الخوف ذهب عنه وتحطم الحاجز الذى كان يحول بينه وبين تحقيق ما يتمنى ، وسيأتى اليوم الذى يستقر فيه على ظهر جواد ويعود به إلى قومه .

وتحدث إبراهيم وهاجر حديثا يفيض رقة وعذوبة عن ابنهما الموعود . لقد بشر الملك هاجر بأن الله سيجعله أمة عظيمة ، ولقد أوحى الله إلى خليله أنه سيبارك فى نسله ، فكان أمر اختيار زوجة لإسماعيل يشغل بال الشيخ الجليل والأم الحنون . قالت هاجر : إن جُرهم كانوا معها ومع ابنها وأنهم آنسوهما وكانوا لهما خير جيران ، وأنهم يحبون إسماعيل ويحبون أن يزوجوه منهم .

فقال إبراهيم :

ـــ وما تشاءون إلا أن يشاء الله .

١٧

غرس إبراهيم فى بئر سبع أثلا ، وهو شجر فاره دائم الخضرة ، وبنى محرابا يصلى فيه لله . لقد أبرم معه أبيمالك وفيكول رئيس وزرائه ووزير حربيته معاهدة سلام .. إنهم جنحوا للسلم فجنح إبراهيم لها وراح يعبد ربه الذى أكرمه فجعل الملوك يخطبون وده ورضاه .

ونظر إبراهيم إلى خيامه وأنعامه وأغنامه ورعاته وعبيده ، لقد أغناه الله من فضله . وإن خيامه لتتسع لإسماعيل وأمه ، وإن قلب سارة التقية التى آمنت بإله إبراهيم قبل أن يؤمن به أحد غيرها ليتسع لإسماعيل وأمه ، فقد نشأت فى كنف خليل الرحمن وتعلمت أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وأن ما عند الله خير وأبقى ، ولكن الله أمر أن يسكن خليله إسماعيل وأمه عند بيته المحرم ليتحقق وعد الله ، ليكون لذرية إبراهيم المشارق والمغارب .

خرج إسماعيل من خيام أبيه وهو طفل رضيع ، وصدع إبراهيم لأمر الله وإن كان قلبه تعلق بابنه وشغف به حبا . أراد الله أن يشب الغلام بعيدا عن تدليل القبيلة ، أراد له أن يتنسم منذ نعومة أظفاره الحرية وأن يتوكل على الله وأن يعتمد بعد الله على نفسه فى تحصيل رزقه ورزق أمه .

وانشرح صدر إبراهيم وهو يعيد إلى ذاكرته مارآه فى عريش أحب الناس إليه ليلة هبط من جبل قبيس إلى حيث كانت هاجر وإسماعيل . كان إسماعيل يقرأ فى صحف أبيه التى أنزلها الله عليه لتكون نورا وهدى

للناس .

إن هاجر عميقة الإيمان رقيقة الوجدان ، وإنها لعلى علم وزادها الإيمان حكمة ، فإن حرم إسماعيل حكمة أبيه فلم تزل له حكمة هاجر ورحمة الله الذى آتى إبراهيم رشده ، إن الله قادر على أن يعلمه ما لم يكن يعلم .

ولقد اصطفى الله هاجر وزوجها إبراهيم . أراد أن تكون أم إسماعيل مؤمنة حامدة صابرة ترجو لقاء ربها وتقيم الصلاة وتطيع الله ورسوله ، إن الله كان بعباده خبيرا بصيرا .

ورن فى أذنيه صوتها يوم تركها هى وابنها فى الصحراء لا ماء ولا أنيس : « آلله أمرك بذلك ؟ » « نعم » « إذن لن يضيعنا » لو وزع إيمانك يا أم إسماعيل على أهل الأرض جميعا لوسعهم .

« إن إسماعيل قد سمعت لك فيه ، إنى أباركه وأكثره وأجعله أمة عظيمة لأنه من ذريتك » .

وهفت نفس إبراهيم إلى إسماعيل وإن كان توة عائدا من عنده . لقد جلس إليه يجاذبه الحديث . حدثه عن الله وقدرته وعلمه الصلاة واستمع إلى حديثه عن الصحراء والصيد والقنص . وكان يصغى إلى ابنه وإلى فصاحته وهو منشرح الصدر مشرق النفس لكأنما كان يصغى إلى نفسه وقد ارتد شابا يتأجج بالحماس .

وسرح خياله فإذا به يرى أمة مؤمنة انتشرت فى البطاح حول عريش هاجر وإسماعيل ، أمة عظيمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، خير أمة أخرجت للناس ، فتهلل وجهه بالفرح وأشرق وجهه بالابتسام . ألم يعده ربه وعدا حسنا ؟

وجاء إسحاق يجرى ومن حوله العبيد ، كان غلاما فطم بالأمس لما يتجاوز الثالثة من عمره وقد احتفلت القبيلة لذلك احتفالا عظيما نُحرت فيه العجول والكباش والتيوس . ولم ير إسحاق أخاه فقد ولد بعد أن أمر الله إبراهيم أن يسكن إسماعيل عند بيته المحرم باثنتى عشرة سنة .

وفتح إبراهيم ذراعيه يستقبل إسحاق ثم حمله وضمه إليه فى حنان وقبله وإذا به يشرد ؛ إن الله أكرمه ووهب له على الكبر إسماعيل وإسحاق، إن الله يهب البنين والبنات للناس جميعا بيد أن الله منَّ عليه بهما ليجعل فيهما وفى ذريتهما الحكمة والكتاب والنبوة ، اصطفاهما ليكونا نورا للعالمين ، فعليه أن يطهرهما وأن يغرس فيهما الإيمان العميق وخشية الله الواحد القهار وأنهما وذريتهما إلى ربهم راجعون .

كان إسماعيل يخرج إلى صحراء الحجاز يصطاد ، وكان إسحاق يلهو فى كنف أبيه عند بئر سبع . بعدت بينهما الشُّقة ولكن إبراهيم كان يرجو أن يكون بينهما مودة ورحمة ، أن يتعاونا على إعلاء كلمة الله فى المشارق والمغارب ، ألا يكون بينهما ذلك التنافس الذى ينخر فى عظام ممالك الأرض فيجعلها تتهاوى وتنهار .

إن مملكة الله تقوم على أعمدة المحبة والإيثار ، وعلى أكتاف عباد مخلصين أقوياء : ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركَّعا سجَّدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ﴾ فراح إبراهيم يدعو الله ألا ينزغ الشيطان بينهما ﴿ إن الله لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ﴾ .

ورأى إبراهيم أن يأتى بإسماعيل فى الفينة بعد الفينة إلى خيامه ، وأن يحمل إسحاق وسارة إلى حيث أسكن هاجر وابنها ليؤلف بين قلوبهم .

فإن كان الله قضى لحكمة رآها أن يباعد بين إسماعيل وإسحاق فى الأرض ليورث ذريتهما مشارق الأرض ومغاربها فإن أفئدة المؤمنين لا بد أن تتقارب ، يجمعها بعضها إلى بعض حب إلٰه واحد ﴿ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيدٌ ﴾ .

ولم يستقر إسحاق طويلا فى أحضان أبيه فقد أراد أن ينطلق إلى البئر ليلعب مع غلمان القبيلة ، فتركه إبراهيم يذهب وهو يرقبه وبين جنباته حب فياض وكان من الشاكرين .

وابتعد إسحاق عن أبيه . إبراهيم يتبعه بعينيه وإذا به يرى المكان فى وضوح . كان الأثل فارها وارف الظلال والأنعام والأغنام كثيرة لا يكاد يحصيها العد والعبيد والرجال كحراد منتشر . إنه غنى وعند إليعازر الدمشقى أمين بيته أموال كثيرة من الذهب والفضة ، ولكنه لن يورث إسماعيل وإسحاق أشياء من عرض الدنيا فهو يعلم أن الأنبياء لا يورثون وأن ما يتركونه صدقة . ولكن أين هذه الأموال مما يعدكم الله به ؟ لقد وعد الله أن يورث إسماعيل وإسحاق وذريتهما المشارق والمغارب وأن يجعل فيهم الحكمة والكتاب والنبوة .

لن يختصم الأخوان فى ميراث ولن يبغى بعضهم على بعض ، سيهديهما الله إلى الطيب من القول وإلى صراط الحميد .

عرف إبراهيم الاستقرار بعد أن ضرب فى مشارق الأرض ومغاربها وثار فى نفسه سؤال : ترى هل انتهت رسالته ؟ هل أتم الله عليه نعمته بعد أن وهب له إسماعيل وإسحاق ؟

إنه لفي شك من أن رسالته انتهت فإن إلٰه القمر سين وإلٰه الشمس شماش وإلٰهة اللذة والحرب عشتار وإلٰه الفن بتاح وإلٰه الشمس رع

وآلهة الوثنيين ما تزال تنتشر معابدهم وهياكلهم فى بلاد ما بين النهرين وسورية ووادى النيل ، بينا ليس لله الواحد القهار بيت يعبد فيه ويسبح له فى الغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .

لقد بنى محرابا لله فى كل مكان حل فيه ولكنها محاريب متواضعة ، بينا معابد الوثنيين شامخة سامقة فارهة تباشر فيها المناسك وتجرى فيها المراسيم . أيكون حب هؤلاء الوثنيين آلهتهم التى لا تضر ولا تنفع أعظم من حب المؤمنين الله الواحد القهار ؟

لم يأمره الله بأن يبنى له بيتا ولم يبين له الأرض التى بارك فيها للعالمين ، وما كان له أن يقدم على شىء جليل الخطر مثل هذا قبل أن يأذن له ربه ، ذلك هو الفضل الكبير .

وتذكر ما رآه فى « سفروايم » أيام هاجر من أور ؛ لقد رأى الوثنيين يقدمون أبكار أبنائهم قربانا لآلهتهم كفارة عن معاصيهم ، وإنه ليرى الوثنيين من الكنعانيين يذبحون أبكار أبنائهم زلفى لأربابهم . أيكون إيمانهم بآلهتهم أعمق من إيمان المؤمنين بالله الذى لا إله غيره رب السماء ورب الأرض رب العالمين ؟

أتم رسالته وفى الأرض من هو أكثر إيمانا بإلهه منه هو من وضع إيمانه مكان الاختبار فوفى ؟ إنه ألقى فى النار وأمر الله النار أن تكون بردا وسلاما عليه ، أيكون إلقاؤه فى النار أوجع لقلبه من ذبح ابنه وتقديمه قربانا إلى ربه ؟

أيذبح إسماعيل بيديه ؟ ذلك هو البلاء العظيم . أيذبح حبيبه الذى شغف به حبا ؟ إن إسماعيل هو بكره وإن السفراويميين يحرقون أبكار أبنائهم على مذابح آلهتهم ، وإن الكنعانيين الوثنيين يقدمون أبكار أبنائهم

محرقة لأربابهم ، ولم يفكر إبراهيم فى ذبح إسحاق إذ كانت العادة أن يكون القربان الابن البكر وقد بشر الله إبراهيم بإسحاق ومن بعده يعقوب ، لقد كتب الله له الحياة .

إن أمره الله بذبح إسماعيل فسيطيع وسيجده الله إن شاء الله من الصابرين .

لم تكن السماء والأرض وما بينهما لتتسع لله . ولكن قلب إبراهيم اتسع لله فقد كان من المؤمنين حقا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون .

١٨

انقلب إسماعيل إلى قومه مسرورا يمتطى صهوة جواده فقد استطاع بالصبر والعزيمة أن يروض جوادا بريا وأن يخضعه لإرادته على أن يسلس له قياده فكان أول إنسان يركب حصانا .

انطلق فى الوادى يعدو صوب الخيام ، وسمع الناس وقع حوافر الجواد فخرجوا ينظرون فرأوا إسماعيل يركب فرسا يسابق الريح ، ففغروا أفواههم من الدهش ورمقوه فى إعجاب وإن فر بعضهم إلى الجبال مرعوبين .

وترجل إسماعيل عن الجواد وراح يمسح ناصيته بيده ويربت على ظهره فى حنان وحب ، وقومه ينظرون من بعيد لا يجرؤ أحدهم على أن يدنو من الجواد خشية أن يثور فجأة ويعود إلى طبعه الوحشى فيعيث فى المكان فسادا ، يبقر بطون الغلمان ويقتلع الخيام ويلقى الرعب والفزع فى قلوب الشيوخ والعجائز والنساء .

وجمع أحدهم أطراف شجاعته و تقدم من الجواد فى حرص شديد ، ثم مد يده يمسح بها ظهره وتأهب ليطلق ساقيه للريح إذا بدرت من الجواد بادرة غدر أو غضب .

واستقرت يد الرجل على ظهر الجواد واطمأن قلبه الواجف شيئا ما واقترب وفى عينيه قلق وإسماعيل يشجعه بابتسامة ليعتلى الجواد ، ولكن الرجل اكتفى بتمرير يده على جسم الجواد واعتبر ذلك نصرا .

وصهل الجواد وتبهنس فاتسعت أعين الناس رعبا وتأهبوا للفرار ، ولكن إسماعيل مسح بيده وقاده إلى بئر زمزم وسقاه ثم عاد به إلى خيمته .

كانت هاجر ترقب ابنها فى إعجاب . لقد كان يرعى الغنم مع أترابه من الغلمان ولكن همته لم تقتصر على رعى الغنم بل راح يضرب فى جوف الصحراء وحده ، وحذره الرجال أن تفتك به السباع وخوفوه أن تتخطفه الشياطين ولكنه أصم أذنيه عن تخويفهم .

وانشرح صدر هاجر إذ اتخذ ابنها لنفسه سبيلا غير سبيل قومه ، فلم يؤثر الدعة و لم يؤثر السلامة بل فكر ودبر وعقد العزم ونفذ . فكان حريا أن ينتصر .

استطاع ابنها الشاب أن يستأنس الخيل وأن يذللها لقومه ليركبوها وزينة وتحمل أثقالهم إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، إن الله رءوف بالعباد .

كانت هاجر ترقب إسماعيل ومشاعر الحب والإعجاب تفيض من قلبها الكبير حتى تملأ وجدانها فرحا وسرورا ، كانت ترى فيه زعيما لقومه ، أبا لأمة عظيمة ، أمة مؤمنة بالله رب العالمين .

وأقلع الخوف من قلوب القوم وأقبل شبابهم على الحصان حتى إذا استأنسوا به تشجع بعضهم فركبه ، وداعبت قلوبهم أمنية أن يكون لكل منهم حصان مثله ، وفى عماية الصبح خرج إسماعيل على ظهر جواده وحوله شباب الحى ، خرجوا إلى الصحراء ليصطادوا الجياد .

كان شباب العمالقة يحلمون بما يفعلونه بعد أن يستولوا على الخيل ، قال بعضهم إنه سينطلق بحصانه إلى سورية ، وقال آخر إنه سينطلق به إلى مصر ، وقال ثالث إنه سينطلق به إلى أهله فى بلاد بابل ، حتى إذا توغلوا

فى الصحراء ورأوا الجياد تمرح فى الخلاء وضعوا أنفسهم تحت إمرة إسماعيل يوجههم كيف يشاء فهو أعرف منهم بذلك الأمر الخطير .

وراح إسماعيل يعدو بجواده خلف الجياد يسوقها إلى حيث وقف الشباب متحفزين، وانقضى النهار بين كر وفر وجهاد فى سبيل الاستيلاء على الخيل حتى إذا مالت الشمس للغروب عاد الشباب على ظهور جيادهم يرفعون رءوسهم فى خيلاء ، ولا غرو فهم أول كتيبة من الفرسان تسير على وجه الأرض . يزيدها شرفا أن على رأسها إسماعيل بن إبراهيم عبد الله ورسوله .

وربطوا الجياد فى ناحية من الخيام وجلسوا يتسامرون . وقال أحد المحاربين الشيوخ : ستجعلنا هذه الجياد أولى قوة وبأس نستطيع أن نقهر بها أهل الأرض طرا .

وكانت هاجر فى عريشها تفكر فى أمر زواج ابنها : إن العماليق يطمعون أن يزوجوه منهم ويرغب الجراهمة أن ينكحوه امرأة من نسائهم ، وهى تريد لابنها زوجة تصلح أن تكون أما للذرية الموعودة التى يبارك الله فيها .

راحت هاجر تبحث عن امرأة تقية تؤمن بالله ورسوله وتتحمل ما قد يصيبها من شدة وهى راضية . امرأة تهجر الدنيا وزينتها ابتغاء وجه الله وتطمع فى ثواب الآخرة يوم يقوم الحساب .

ونظر إسماعيل إلى صدا بنت سعد وهى فتاة جميلة من العماليق فأعجبته . فذهب إلى أبيها وخطبها ، وسكتت هاجر وإن لم يتفتح قلبها للفتاة و لم ينشرح لها صدرها ، سكتت ما دام إسماعيل أعجب بها .

وتزوج إسماعيل صدا بنت سعد ، ومرت الأيام وإذا بصدا برمة

بعيشها لا تطيق ما هى فيه من حرمان . إن زوجها يتنكب قوسه كل صباح ويخرج للصيد ثم يعود بما رزقه الله ، إنها حياة جافة لا تطاق .

لم تكن صدا تعلمت ما تعلمته هاجر ، لم تكن على درجة من الصفاء والتقى تؤهلها لتجد فى ساعات فراغها فرصة للتفرغ لله والأنس به .

كانت هاجر تجد السعادة فى التسبيح والتحميد وتتهلل بالفرح كلما تجلى عليها الله برحمته ؛ أما صدا فكانت تبحث عن السعادة فى زينة الحياة الدنيا وكان الوادى الذى تعيش فيه جافا نضبت فيه متع الحياة .

كان الله غاية هاجر فشرح صدرها ، وكانت الدنيا غاية صدا فألقتها فى سجنها الذى أطبق عليها وضاق عليها الخناق ، حتى لودت أن تصعد على جبل قبيس وتشكو للأرض والسماء ما هى فيه من ضيق وشظف عيش .

رأت هاجر كفر كِنتِّها (امرأة ابنها) بالنعمة التى أنعم الله بها عليه فأمسكت على مضض ، ولم تشأ أن تنغص عيش ابنها ما دام راضيا عن عيشه . فاتخذت لها محرابا بعيدا عن بيت ابنها تعبد الله الذى قدر فهدى .

وجاء إبراهيم يزور هاجر وابنه وزوجة ابنه فهو لا ينقطع كثيرا عن زيارتهم ليشد الأواصر بين إسماعيل وإسحاق وبين سارة وهاجر ، وتبادل أهل بيته الزيارات . ولكن هذه كانت أول مرة يزور إسماعيل بعد زواجه . ووقف إبراهيم أمام بيت إسماعيل وقال :

ـــ السلام عليكم ياأهل البيت .

فلم ترد عليه صدا .

وأقبلت عليه تحدق فيه ولم يكن فى نظرتها ود ولا ترحيب ، قال لها :

ـــ هل من منزل ؟

— لا .

— كيف طعامكم ولبنكم وماشيتكم ؟

— نحن فى ضيق . أما الطعام فلا طعام ، وأما الشاة فلا تحلب الشاة بعد الشتاء المضير (اللبن) ، وأما الماء فعلى ما ترى من الغلظ .

— فأين رب البيت ؟

— فى حاجته .

— فإذا جاء فأقرئيه السلام وقولى : غير عتبة بيتك .

وانطلق إبراهيم إلى حيث كانت هاجر ودخل عليها المحراب فألفاها ساجدة لله تسبح بحمده وتقدس له .

رأى إبراهيم أن زوجة إسماعيل فظة غليظة القلب لا تصلح أن تكون أما للذرية الصالحة التى سوف تحمل رسالة الله إلى المشارق والمغارب ، فأمر ابنه أن يغير عتبة بيته ، أن يطلقها .

وطلق إسماعيل صدا بنت سعد ، وطفقت هاجر تفكر فى زوجة صالحة ، زوجة تقية تؤمن بالبعث والحساب وتطمع فيما عند الله من جزاء ، فرأت أن تبعث فى طلب فتاة من مصر[1] ، فتاة حرية أن تؤمن بالله الواحد القهار ، أن تؤمن باليوم الآخر وبالثواب والعقاب يوم يضع الله الموازين القسط ليوم القيامة .

وأرسلت هاجر إلى مصر .. إلى صديقة من صديقاتها بمنف فرسانا

---

(١) جاء فى الإصحاح الحادى والعشرين من التوراة : « وأخذت له أمه زوجة من مصر » وقال ابن هشام إنها عاتكة بنت عمرو الجرهمى وقال الواقدى إنها شاملة ست مهلهل .

ليعودوا بمصرية يكون لها شرف زواج إسماعيل . وانطلق الفرسان على ظهور جيادهم ليبهروا أعين المصريين وهم يجوسون بها خلال بلادهم .

وبلغ الفرسان أرض مصر ورحب بهم ملك الهكسوس ، كانوا من العماليق وكان ملك مصر منهم ، ولم يغادروا قصره قبل أن يتفقوا معه على أن يمدوا جيشه بالخيل ، بالسلاح الرهيب الذى يجعل جنوده فى حصون متحركة .

وعاد الفرسان إلى محراب هاجر بعد أن بهروا أنظار العالم بخيولهم ، وقدموا إليها الفتاة المصرية التى جاءت معهم لتكون زوجة لإسماعيل .

وتزوج إسماعيل الفتاة المصرية . وذات يوم أقبل الأب الرحيم لزيارة ابنه فانطلق إلى بيته فألفى زوجه فقال :

ـــ السلام عليكم يأهل البيت ورحمة الله .

ـــ وعليكم السلام . تفضل .

ـــ هل من منزل ؟

ـــ نعم إن شاء الله ، انزل رحمك الله فاطعم واشرب .

ـــ ما طعامكم ؟

ـــ اللبن واللحم .

ـــ فما شرابكم ؟

ـــ اللبن والماء .

ـــ هل من حب ؟

ـــ يكون إن شاء الله ونحن فى نعم .

ـــ بارك الله فى طعامكم .

وهبط إبراهيم وانطلق معها إلى زمزم فأخذت تغسل له رأسه فقال

لها :

ـــ أين إسماعيل ؟

ـــ خرج مع أمه يرعيان الغنم .

وعاد معها إلى الدار ، حتى إذا انقلب إسماعيل إلى أهله ورأى أباه هرع إليه يضمه ويقبله ويرحب به . وقال إبراهيم لابنه :

ـــ أثبت عتبة بيتك فإنها صلاح المنزل .

١٩

كان إبراهيم فى محرابه يصلى لله ، وكانت هاجر تحمل نابت بن إسماعيل وهى منشرحة الصدر قريرة العين ، عرف قلبها الله وهامت روحها فى ملكوته فكانت ترى فى كل ما تمد إليه بصرها آية من آياته : فى الماء والنار ، فى السماء والسحاب ، فى الصحراء الجرداء والمروج الخضر ، فى النور والظلام ، فى حر الصيف وقر الشتاء . كانت الحقيقة العميقة التى تغلغلت فى سويداء فؤادها نبع فرح دائم فياض .

ونظرت إلى نابت بن إسماعيل بعين الحكمة التى جلت بصيرتها نعمة الله التى أسبغها عليها . لقد شكرت الله يوم هداها إلى الإسلام ، ولم يضق صدرها حرجا يوم زالت عنها أبهة الملك فجزاها الله جزاء موفورا ، زوجها من خليله وجعلها أم إسماعيل بكره الحبيب ووعدها أن يجعله أمة عظيمة : ﴿ إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ .

لقد وفى الله وعده ومن أوفى بعهده من الله ؟ فوهب لها إسماعيل ومن بعده نابتا . وإن إسماعيل ليغدو ويروح فى قومه مهابا فما من أمر يبرم إلا إذا وافق عليه ، وما من قرار يتخذ إلا إذا قال رأيه فيه ، فلئن كان لا يزال شابا إن الله وهب له صفات كريمة تجعله زعيما فى قومه ، رئيسا لا ينازع سلطانه منازع . إنه من الأخيار .

ولو أن ابنها ولد فى منف لكان أميرا أسيرا فى أيدى الهكسوس ولباعوه بثمن بخس دراهم معدودة ، ولكن الله أكرمه فجاء من صلب رسول

كريم ، وأسكنه بواد غير ذى زرع ليشب حرا طليقا سليم الفطرة ، وكرم الله وجهه عن الشرك والوثنية وعبادة آلهة غير الله رب السموات والأرض .

ضمت هاجر نابتا إلى صدرها فى حب عميق ونظرت من خلال الخيمة وشردت فرأت بعين خيالها الوادى يبكّ بالناس بكّا ، يموج بعضهم فى بعض . رأت مدينة قائمة عامرة بالمؤمنين ، إنها بكة ، بكة المكرمة ، مدينة إسماعيل وذريته من بعده .

وأفاقت من شرودها ومالت على نابت تقبله ، إنه أول الأسباط وقد وعدها الله أن يجعل من ذرية إسماعيل اثنتى عشرة أسباطا أمما . ترى أينجب إسماعيل هؤلاء الرؤساء أم يأتون من صلب نابت ؟ سواء أكانوا من إسماعيل أم من نابت فإنهم ذرية إبراهيم وذريتها المباركة .

وفاض فى الخيمة نور كريم ونزل بها أمن وسلام وانتشرت روائح أطيب من ريح المسك وبدا أن الله يوحى لخليله بما يشاء ، وأنزل على هاجر ونابت أمنة نعاسا يغشاهما ، وانقضى من الوقت ما انقضى وقام إبراهيم ووجهه يفيض بالبشر . لقد كان يرى معابد الوثنيين وهياكل المشركين فارهة شامخة فكان يستشعر حسرة ، فأبراج سين ومردوخ وشماس وعشتار مرتفعة فى سماء بابل ، وهياكل بعل منتشرة فى سورية ، ومسلات آلهة المصريين قائمة أمام المعابد الفرعونية ، بينما لم يكن لله إلا محاريب بناها أينما نزل ، و لم يكن لله بيت مكرم يجتمع به المؤمنون ليقيموا شعائر دينهم .

إن إبراهيم يتهلل بشرا فقد أمره الله أن يبنى لله بيتا يحج إليه الناس من المشارق والمغارب ، وقد هداه إلى مكانه ؛ الربوة الحمراء التى أنزل

فوقها هاجر وإسماعيل . سأل إبراهيم فى انشراح :

ـــ أين إسماعيل ؟

فاستيقظت هاجر من نعاسها وقالت :

ـــ فيم تريد إسماعيل ؟

ـــ أبشرى يا هاجر ، أمرنى الله أن أبنى له بيتا وأمرنى أن يعيننى إسماعيل عليه .

وخرج إبراهيم يبحث عن ابنه ، وشخصت هاجر فى السماء تصلى شكرا لله أن اصطفى ابنها إسماعيل ليكون له شرف بناء بيت الله الذى جعله قياما للناس .

وهرع إبراهيم إلى وراء زمزم فوجد إسماعيل يصلح نبلا له فقال له :

ـــ يا إسماعيل إن ربك أمرنى أن أبنى له بيتا .

فقال له إسماعيل :

ـــ فأطع ربك فيما أمرك .

فقال إبراهيم وهو ينظر إلى ابنه فى حب :

ـــ قد أمرك أن تعيننى عليه .

واغتبط إسماعيل فقد تلقى الحكمة فى صحف إبراهيم ، وعاش بين قوم يذكرون الله ويسبحون بالعشــى والإبكار باسمه العظيم ، وعرف أن الله نور السماوات والأرض وأنه فى كل شىء وأنه أقرب إليه من حبل الوريد . ولكن ما دار بخلده أن يأتى اليوم الذى يشرفه الله فيه بأن يرفع القواعد من بيته المحرم فقال وقد امتلأ قلبه بالفرح :

ـــ إذًا أفعل .

وليفعلن إسماعيل الكثير إن شاء الله ، إنه ابن خليل الرحمن النبى

الصديق وابن هاجر المؤمنة القانتة الشاكرة لأنعم الله التى أرسل الله رسوله إلى مصر ليصطفيها له من دون نساء العالمين ، ليهب له منها ابنا من الصالحين .

وقام إبراهيم وإسماعيل بتخطيط البيت ، وطوله اثنتان وثلاثون ذراعا وعرضه إحدى وعشرون ذراعا . وشرع إبراهيم وإسماعيل وهاجر ومعهم المؤمنون يقطعون الحجارة من جبل حراء وجبل قبيس ، وراح إبراهيم يقول :

ـ ﴿ رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ﴾ .

فأوحى الله إليه :

ـ ﴿ ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾ .

وعكفوا على العمل : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

وارتفع البنيان وإبراهيم يفكر فى الأمة المسلمة لله ، الأمة التى سيجعلها الله من ذريته وذرية إسماعيل ، ففاض قلبه بالرحمة وتملكه الخوف أن ينزل بهم ما نزل بالأمم التي كفرت بأنعم الله قبلهم . إنه يذكر ما حاق بأهل سدوم . فقد أرسل الله عليهم حاصبا .. أمطرهم بحجارة من سجيل منضود .. أنزل عليهم رجزا من السماء بما كانوا يفسقون ،

وترك من سدوم آية بينة لقوم يعقلون .

وقوم نوح أخذهم الطوفان : ﴿ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد * وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ، ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود ﴾ .

وقال صالح لقومه : ﴿ يا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب * فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب * فلما جاء أمر الله نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منّا ومن خِزْيِ يومئذ إن ربك هو القوى العزيز * وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين * كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمودا كفروا ربهم ألا بعدا لثمود ﴾ .

إنه يخشى أن يفسق أهل هذا البلد كما فسق قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط فيعذبهم الله بالطوفان أو يتبعهم باللعنة فى الدنيا وفى الآخرة أو تأخذهم الصيحة فيصبحوا فى ديارهم جاثمين أو يرسل عليهم حاصبا ويمطرهم بحجارة من سجيل ، وكم قصم الله من قرية كانت ظالمة وأنشأ بعدها قوما آخرين .

إن الله قادر على أن يذهبهم ويأتى بخلق جديد ، وهو قادر على أن يعذبهم عذابا غليظا ، ولكن إبراهيم يريد أن يكون بين ذريته وذرية إسماعيل وبين الله عهد أن يغفر لهم ذنوبهم وأن يرفع عنهم مقته وغضبه ، وألا ينزل عليهم رجزا من السماء وألا يجعل أسفل ديارهم عاليها ، فرأى أن يجعل فى بيت الله حجرا من الحجارة التى أمطر الله بها قوم لوط ليكون علما للناس يبدءون منه طوافهم ، يذكّرهم دائما أبدا أن الله قادر على أن يبطش بهم وأن يفتح عليهم بابا ذا عذاب شديد ، وأن من يستلمه فإنما

يجدد العهد بينه وبين الله على الاستقامة وإغلاق أبواب العذاب : ﴿ سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير * لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ .

وجاء إبراهيم بالحجر الأسود وجعله ركنا للبيت ، ثم وضع الركن اليمانى وجعل باب البيت أمام زمزم وكان بالأرض غير مبوّب ، وجعل قبالة ذلك الباب بابا آخر ، فبنى للبيت بابا شرقيا وآخر غربيا ليدخل الناس من باب ويخرجون من الباب الآخر .

رأى إبراهيم فى أور وبابل قدس الأقداس ، ورأى المراسيم التى يقوم بها الأوريجاللو عند دخول بيت الصنم ، ورأى فى مصر ما يقوم به الكهان ورؤساء أسرار السماء من مراسيم قبل دخول قدس الأقداس، إنها طقوس ما أنزل الله بها من سلطان ، طقوس وضعها الكهان ليشرفوا طبقتهم ويثروا ثراء فاحشا باسم الإله .

إن الله هو رب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، يدعوه عباده وهو قريب ويستجيب دعاءهم ، فبيته حرم آمن يحج إليه الناس يدخل إليه من يريد دون وساطة كاهن .. دون سلطان الأرض أو نفوذ المال ، فرب هذا البيت: ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون * هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما فى السماوات والأرض وهو

العزيز الحكيم ﴾ .

وحفر إبراهيم وإسماعيل عن يمين الداخل من الباب المواجه لزمزم حفرة لتكون خزانة للبيت . وارتفع البناء فى السماء تسع أذرع وما كان للبيت سقف ، وأتم إبراهيم وإسماعيل بناء الكعبة ، ووقف إبراهيم فى مقامه وأمامه باب الكعبة مفتوح للجميع كرحمة الله وعن يساره زمزم البئر المباركة التى فجرها الله لسقيا زوار بيته ، وراح يدعو الله ودمعه يجرى على خديه ، ويشكر الله على أن أتم نعمته عليه وشرفه وشرف ابنه الحبيب إسماعيل بأن يرفعا القواعد من بيته المحرم ، الذى سيجعله الله مثابة للناس وأمنا .

— ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

٢٠

انقضى من الشهر أيام وكان إبراهيم على علم بالفلك والنجوم والحساب ، كان يعرف أن السنة ثلثمائة وخمسة وستون يوما وربع اليوم فقد تعلم النظر فى النجوم من جده ناحور فى أور ، وتعلم منازل الكواكب وناقش كهنة مصر فى الدورة الشمسية ، وكان على علم بأن اليوم أربع وعشرون ساعة . وكانت هاجر من مصر ولم تكن من سواد الشعب بل كانت أميرة من منف ، فإن كان سواد الشعب يحسبون أوقات الفيضان ومواسم الزراعة فإن ما تعرفه هاجر كان يفوق ما يعرفه عامة الناس ، فقد تعلمت فى مدرسة الكهان الذين كانوا يحبسون المعارف عن الشعب ويدعون أنها من أسرار السماء .

وتلقى إسماعيل عن أبيه وأمه علم الفلك والحساب ، وعلم أن الأهلة مواقيت للناس ، وأن الله جعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا .

وعلم إبراهيم وإسماعيل وهاجر القوم الذين نزلوا معهم على ماء زمزم ما يعرفونه عن اليوم والشهر والسنة ، ووضحوا لهم ساعات النهار والليل : الذرور ثم النزوغ ثم الضحى ثم الغزالة ثم الهاجرة ثم الزوال ثم الدلوك ثم العصر ثم الأصيل ثم الصبوب ثم الحدود ثم الغروب ثم الشاهد ثم الغسق ثم العتمة ثم الفحمة ثم الموهن ثم القطع ثم الجوس ثم الكعبة ثم التباشير ثم الفجر الأول ثم المعترض ثم الأسفار .

﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق

السماوات والأرض منها أربعة حرم ﴾ كان ذلك ما علم إبراهيم المسلمين الذين آمنوا بالله وباليوم الآخر الذين نزلوا مع هاجر وابنه حول ماء زمزم .

بوّأ الله لإبراهيم مكان البيت ورفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل وأتما بناء الكعبة ، فأمر الله إبراهيم : ﴿ أن لا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾ فراح إبراهيم وإسماعيل وهاجر ومن معهم من المسلمين يغسلون الكعبة بماء زمزم ويطهرون البيت المحرم .

وأمر الله إبراهيم : ﴿ وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ .

ووقف إبراهيم على الحجر واستقبل اليمن ونادى :

— لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك . يأيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق .

وارتفعت أصوات تلبى :

— لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك .

ثم استقبل المشرق فدعا إلى الله :

— لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، حجوا يا عباد الله . يأيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق .

وارتفعت أصوات التلبية من المشرق :

— لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك .

ثم استقبل المغرب فدعا إلى الله :

ــ لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، ألا إن ربكم قد اتخذ بيتا وأمركم أن تحجوه ، يأيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق .

وارتفعت أصوات التلبية من المغرب :

ــ لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك .

ثم استقبل الشأم فدعا إلى الله :

ــ لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، حجوا يا عباد الله ، حجوا إلى البيت العتيق .

وارتفعت أصوات التلبية :

ــ لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك .

وضج الكون بالتلبية وراح الوجود كله يسبح لله ، وهبت على البيت نسائم من الرحمة وتجلى نور الله فإذا بالأفئدة تهوى إلى أول بيت بنى للناس مباركا وهدى للعالمين .

وأقبل الناس من الشعاب وانحدروا إلى الوادى من الجبال ، أتوا من كل فج عميق يمشون أو يركبون على ظهور الإبل والخيل والحمير ، وارتفعت الأصوات بالتهليل :

ــ لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك .

ومست التلبية آذان إبراهيم وهاجر كأنها تلبية ملائكية آتية من السماء ، فامتلأت قلوبهم خشية واعترت أجسادهم رعدة وسالت عبراتهم ، شرقت هاجر بدموعها ونشج إبراهيم بالبكاء إنه أواه حليم

منيب وخر إسماعيل ساجدا لله رب العالمين .

ووقف إبراهيم مستقبلا بيت الله وأمامه باب الكعبة وعن يساره زمزم وخلفه اصطف المؤمنون كملائكة أطهار ، وجعل يدعو الله وهم يرددون الدعاء بعده ، ثم أعلن نية الطواف سبعة أشواط حول البيت .

واستلم الحجر الأسود وفعلوا جميعا مثله ، كانوا يعاهدون الله على التوبة ويسألونه المغفرة وألا يحمل عليهم إصرا كما حمله على الذين من قبلهم ، وأن يغلق دونهم أبواب العذاب .

وأتوا إلى الصفا ووقفوا فوقه كما وقفت هاجر يوم نفد الماء تستقبل الوادى تنظر هل ترى أحدا ، ونووا السعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط كما فعلت فى ذلك اليوم الذى أنعم الله عليها وعلى ابنها ببئر زمزم .

كانت هاجر منفعلة غاية الانفعال إذ غمرها الله بأنعمه وكرمه ، أخرجها من الظلمات إلى النور وهداها سواء السبيل ووهب لها إسماعيل وجعلها بركة يوم جاد عليهم بزمزم وكان لها شرف المشاركة فى بناء بيته المحرم ، وما خطر لها على قلب أن يجعل سعيها بين الصفا والمروة من شعائر الله ، والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

إن الله اصطفاها لإبراهيم دون نساء العالمين ، وأمر رسوله أن يسكنها هى وإسماعيل عند بيته المحرم وأن يتركها إلى الله عز وجل ، فوثقت بالله وقالت حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا ﴾ .

وصار سعى هاجر بين الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر

عليم . كانت هاجر مؤمنة عميقة الإيمان شاكرة لأنعم الله فجزاها الله خير الجزاء ، أليس الله بأعلم بالشاكرين ؟

وكان الساميون كلما التفتوا إلى البيت قالوا فى فرح فياض :

— بكة .. بكة .

أى البيت البيت ، فقد كانت بكة تطلق على البيت فى لغتهم السامية الأولى ، وقد أطلقوا على بيت البعل بعلبك ، وعرفت المدينة التى تكونت حول بيت الله ببكة ، بالبيت المبارك ﴿إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ، و لله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين ﴾

وفى اليوم الثامن من الشهر الذى أطلق عليه ذو الحجة منذ أمر الله إبراهيم أن يؤذن فى الناس بالحج خرج إبراهيم بالحجيج إلى منى ، ونصبت الخيام هناك فصلى بهم الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة ، ثم بات بهم حتى أصبح فصلى بهم صلاة الفجر ، ثم غدا بهم إلى عرفة فقال بهم هناك ، حتى إذا مالت الشمس جمع بين الصلاتين الظهر والعصر ، ثم راح بهم إلى الموقف من عرفة وأخذوا يدعون ويبتهلون ويقولون :

— لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت وهو حى لا يموت .

وهبطت الشمس تغوص فى الأفق البعيد وهاجر وإسماعيل يبتهلان إلى الله أن يتم نعمته عليهما وأن يتقبل منهما : ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة ﴾ ، ﴿ ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا

سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ﴾ . ﴿ ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين ﴾ .

وراح إبراهيم يناجى ربه :

— ﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير * ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

وغابت الشمس فدفع إبراهيم بمن معه إلى المزدلفة فنزلوا هناك ، وكان القمر فى ليلته العاشرة ينشر ضياءه على الصحراء المترامية فينبعث فى الكون سحرا ، وكان الهواء يهب رخاء فينعش النفوس ، وكانت أفئدة الحجاج مشرقة بنور ربها . قد كانت لهم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه .

ونام إبراهيم ورأى فى المنام أنه يذبح إسماعيل فهب من نومه مفزوعا وراح يفكر فى ذلك البلاء العظيم ، إنه رأى فى المنام أنه يذبح ابنه ورؤيا الأنبياء صدق ، وحى من الله . إن السفراويميين يقدمون أبكار أبنائهم قربانا إلى آلهتهم ، إلى صنم من الأصنام ، أيكون إيمان الوثنى بصنمه أعمق من إيمان إبراهيم برب السماوات والأرض رب العالمين ؟

وتذكر ذلك اليوم الذى كان مهاجرا فيه من أور إلى حاران ، يوم مر بسفروايم وكان معه أبوه ، فرأى رجلا يتقرب إلى سين بذبح ابنه البكر ثم إحراقه قربانا على مذبح إلهه . وإنه ليرى فى هذه اللحظة نظرة آزر إليه : أتذبح ابنك البكر لإلهك تقربا إليه وزلفى كما يفعل ذلك المؤمن بآلهتنا ؟ لم يكن له ولد فى ذلك الوقت ، لم يكن قد رأى إسماعيل و لم يكن قد شغف به حبا . قال يومها فى بساطة إنه ليفعل لو كان له ولد وأمره الله بذبحه ، ولكنه يحس اللحظة أن الأمر ليس هينا . إن نارا تسرى

فى أحشائه وخناجر تمزق قلبه وروحه تفيض من الدمع ويجثم عليها حزن أقسى من لسع النار ووخز الخناجر .

أمره الله أن يقدم ابنه البكر قربانا له ، وقد رأى الكنعانيين من حوله يذبحون أبكار أبنائهم لبعل وغيره من آلهتهم التى لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا . أيضن هو على الله الملك الحق بابنه بينا لا يضن من كانوا فى الضلالة على آلهتهم التى ينحتونها بأيديهم بفلذات أكبادهم ؟

أيكون حب السفروايميين والكنعانيين لأصنامهم أشد من حبه لربه العظيم ؟ أيكون إيمانهم بما ينحتون أشد من إيمانه بالله الذى هداه سواء السبيل ، من أمر النار أن تكون بردا وسلاما عليه واتخذه خليلا ؟ إن إيمانه بالله ليس له حدود . إنه ليصدع بما يأمره الله به أيا كان ذلك الأمر ، فإن كانت حكمة الله تجل عن عقله فهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير .

وأصبح وهو حزين وإن عزم على أن يذبح ابنه البكر إسماعيل قربانا إلى الله ، إنا لله وإنا إليه راجعون . وصلى بالناس الفجر كأعجل ما يصلى أحد من الناس ثم أفاض بالناس إلى منى .

ونظر إبراهيم فإذا جبل ثبير فدنا من إسماعيل وقال :

— يا بنى خذ الحبل والمدية وانطلق بنا إلى هذا الشعب لنحطب أهلك منه .

وانطلق إبراهيم وهو واله حزين تكاد كبده أن تنفطر وغص حلقه ونزل بروحه حزن ثقيل ، ودنا منه رجل وقال :

— أين تريد أيها الشيخ ؟

فالتفت إبراهيم إلى جبل ثبير وقال :

ــ أريد هذا الشعب لحاجة لى فيه .

ــ والله إنى لأرى الشيطان جاءك فى منامك فأمرك بذبح بنيك هذا فأنت تريد ذبحه .

وعرفه إبراهيم فقال له :

ــ إليك عنى أى عدو الله فوالله لأمضين لأمر ربى .

ورجمه بسبع حصيات حتى ذهب .

ويئس عدو الله إبليس من إبراهيم فذهب إلى إسماعيل فاعترضه وهو وراء إبراهيم يحمل الحبل والشفرة فقال له :

ــ هل تدرى أين يذهب بك أبوك ؟

ــ يحطب أهلنا من هذا الشعب .

ــ والله ما يريد إلا أن يذبحك .

ــ لم ؟

ــ زعم أن ربه أمره بذلك .

فقال إسماعيل فى إيمان :

ــ فليفعل ما أمره به ربه ، فسمعا وطاعة .

ورجمه بسبع حصيات حتى ذهب .

فذهب إلى هاجر وقال لها :

ــ يا أم إسماعيل هل تدرين أين ذهب إبراهيم بإسماعيل ؟

ــ ذهب به يحطبنا من هذا الشعب .

ــ ما ذهب به إلا ليذبحه .

ــ كلا هو أرحم به وأشد حبا له من ذلك .

ــ إنه يزعم أن الله أمره بذلك .

ــ إن كان ربه أمره بذلك فتسليما لأمر الله .

ولم يذهب إلا بعد أن رجمته بسبع حصيات .

وانطلق إبراهيم إلى ثبير واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم فلما خلا بابنه فى الشعب قال وهو يكاد ينوء من الحزن :

ــ ﴿ يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ﴾ .

قال إسماعيل :

ــ ﴿ يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ .

ووقف إبراهيم وقد شرد بصره وخفق قلبه بين جنبيه فى شدة يستجمع كل إيمانه ويستعين بالله على ذلك البلاء العظيم ، فالأرض تزلزل تحت قدميه والجبال تتراقص ومِنًى يخيم عليها وجوم ، وقال إسماعيل :

ــ يا أبت إن أردت ذبحى فاشدد رباطى لا يصبك منى شىء فينقص أجرى ، فإن الموت شديد وإنى لا آمن أن أضطرب عنده إذا وجدت مسه ، واشحذ شفرتك حتى تجهز علىّ فتريحنى .

وإذا أنت أضجعتنى لتذبحنى فكبنى لوجهى على جبينى ولا تضجعنى لشقى ، فإنى أخشى إن أنت نظرت فى وجهى أن تدركك رأفة تحول بينك وبين أمر الله فىّ . وإن رأيت أن ترد قميصى على أمى فإنه عسى أن يكون هذا أسلى لها عنى فافعل .

وكان إبراهيم يصغى إلى إسماعيل وهو فى ذهول ، فلم يجزع إسماعيل ولم يبك أبناءه بل هو يخاف أن ينقص أجره ، يخاف أن تدرك أباه رأفة فينكص عن أمر الله إن إسماعيل صابر لأمر ربه ، فقال إبراهيم :

ــ نعم العون أنت يا بنى على أمر الله .

فلما أسلما وتلّه للجبين. ناداه ربه أن يا إبراهيم. قد صدقت الرؤيا إنا

كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفداه الله بذبح عظيم .

فأكب إبراهيم على إسماعيل يقبله والدموع تغسل لحيته ويقول :

ـــ يا بنى اليوم وهبت لى .

سلام على إبراهيم ، كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين .

٢١

عاد الناس إلى بكة يستلمون الحجر الأسود ويطوفون ويصلون ويركعون ويسجدون وجلس إبراهيم يرقب إسماعيل فى حب شديد وإن قلبه ليخفق حنانا ويمتلىء زهوا به ، فقد صبر لبلاء الله صبر الصالحين . ورن فى أذنيه صوت ابنه وهو يقول : « يا أبت أفعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » ، فانهمرت الدموع من عينى إبراهيم وراح يفكر فيما ابتلاه الله به منذ كان شابا فى أور ، ابتلاه بمردوخ وكان قومه يرمزون إليه بكوكب المشترى ، فلما جن عليه ورآه قال هذا ربى ، ولم يكن قومه وحدهم الذين ظنوا الكواكب أربابا اعتقد المصريون أن نجم الكلب روح إيزيس وأن الجبار روح حوريس ، فلما أفل قال : لا أحب الآفلين .

وابتلاه بالقمر ، أطلق عليه أهله فى أور اسم « نانا » ، وأطلقوا عليه فى بلاد ما بين النهرين وسورية وسيناء اسم « سين » . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين .

وابتلاه الله بالشمس وكان قومه يعبدونها وأطلقوا عليها « شماس » ولم يكن قومه وحدهم الذين عبدوا الشمس بل عبدها السوريون ، وعبدها المصريون باسم « رع » وباسم حور الأفق ، وعبدها الناس فى كل مكان بأسماء ما أنزل الله بها من سلطان .

﴿ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر . فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون * إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴾ .

ابتلاه الله بالكوكب وبالقمر وبالشمس ، بالعبادات التى كان عليها قومه فتبرأ منها جميعا واهتدى إلى ربه رب السماء والأرض رب العالمين .

وابتلاه الله بقومه . كاد أصنامهم ﴿ فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون * قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾ وأججوا النيران وأتوا به لعله يكفر بإلهه الذى يدعو إليه قبل أن يلقوا به فى النار . ابتلاه الله فصبر على بلاء الله ، وألقوا به فى النار و لم يتخل عنه ربه وقال يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم . وأرادوا به كيدا فجعلهم ربه الأخسرين .

وابتلاه الله بالهجرة بترك أور إلى حاران وبالخروج من حاران إلى الشأم وبالهبوط من الشأم إلى مصر ثم بالعودة من مصر إلى أرض الكنعانيين ومن أرض الكنعانيين إلى الجنوب إلى أرض الحجاز ، إنه فى سياحة روحية دائمة ، فقد هاجر إلى ربه وصبر على بلاء الله صبر الصالحين .

وابتلاه ربه بأن قال له إنى جاعلك للناس إماما ، قال ومن ذريتى ؟ قال لا ينال عهدى الظالمين .

أن يجعله الله إماما إن فى ذلك لبلاء مبين ، فلا يستطيع أن ينهض بالإمامة الحقة إلا أولو العزم من لا يضطرب فى أيديهم ميزان العدل ، من القوى عندهم ضعيف حتى يأخذوا الحق منه ومن الضعيف عندهم قوى حتى يأخذوا الحق له ، من يكون للناس مثلا وقدرة . وكان إبراهيم خير

إمام .. ولقد اصطفاه الله فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ، إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين .

وابتلاه ربه بأن جعل البيت مثابة للناس وأمنا فراح هو وإسماعيل يرفعان القواعد من البيت ويدعوان الله : ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

وابتلاه ربه بأن عهد إليه وإلى إسماعيل أن يطهرا بيته للطائفين والقائمين والركع السجود ، فطهرا البيت وأراهما الله مناسكهما وتاب عليهما إنه هو العزيز الحكيم .

وابتلاه ربه بالبلاء المبين فأمره أن يذبح ابنه .. ابنه الذى كان يقف فى المحراب فى حاران وفى دمشق وفى بيت إيل وفى مصر وفى حبرون يدعو الله أن يهبه له ، ابنه الذى استمع الله لدعائه فيه ووهبه له على الكبر وسماه « إسماعيل » ، ابنه الذى ملأ حياته بهجة وسرورا ، ولكن أيكون ابنه أحب إليه من ربه ؟ أيخسر دنياه وآخرته ليبقى على ابنه الحبيب ؟ أيعصى أمر ربه ويضن به على من وهبه له ووهب له من بعده إسحاق ؟ أيستطيع أن يهب ابنه الحياة إن أراد الله أن يقبض روحه ؟ إنها إرادة الله ولا راد لقضائه .

أيذبح ابنه بيده ؟ أيكبه لوجهه على جبينه ؟ أيتله للجبين ويضع الشفرة على عنقه ثم يجذبها جذبة واحدة فإذا إسماعيل فى العابرين ؟ إن القلب ليتمزق أسى وإن النار لترعى فى الحشا وإن الأنفاس لتختنق فى

الحلقوم وإن الصدر ليئن كأنما حطت فوقه أثقال الدنيا وإن الدموع لتتحجر فى العيون وإن الروح لفى كرب شديد ، ولكن الله أمر وما كان إبراهيم ليعصى أمر ربه وإن كان ذلك الأمر أن يستل بيده روح أحب من على وجه الأرض طرا إلى قلبه .

وفدى الله إسماعيل بذبح عظيم والله أرأف بعباده من أنفسهم . أراد الله أن ينسخ عادة تقرب الناس إليه بذبح أبكار أبنائهم ، وأن يختبر إيمان إبراهيم الاختبار الأخير ، أن يبلوه البلاء المبين .

ففى اليوم العاشر من ذى الحجة صلى إبراهيم الفجر فى منى وخرج إلى شعب ثبير امتثالا لأمر الله ، فاعترضه إبليس ليصده عن طاعة ربه .

وقد رجم إبليس ثلاث مرات ، رجمه فى كل مرة بسبع حصيات ، وسيأتى المسلمون من بعد ليرجموه كما رجمه أبوهم إبراهيم .

وصار الرجم من شعائر الحج تشترك فيه اليد مع الروح ، وما من شريعة من شرائع الإسلام إلا ويشترك فيها الجسد والروح تعظيما للجسد ليرفع العنصر الهابط إلى ملكوت السماء ، وليكون له شرف المشاركة فى عبادة العظيم المتعال .

وصار ثبير مكانا مقدسا . انطلق إليه إبراهيم وإسماعيل ليذبح ابنه تصديقا للرؤيا التى رآها ، وخاطب الله فيه إبراهيم فقال يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ، وفدى إسماعيل بذبح عظيم .

وليأتين الحجاج إلى ثبير ، إلى البقعة المقدسة التى نادى الله فيها إبراهيم ، حتى الحجاج فى الجاهلية قد أتوا إليه تعظيما لشأنه ، ففيه فدى الله أباهم إسماعيل بذبح عظيم .

وكان إسماعيل بركة على البشرية جمعاء فقد وضح أن الله لا يقر ذبح

أبكار الناس وأنهم يستطيعون أن يتقربوا إليه بكبش أو بأضحية أخرى ، ولن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم .

وصار المسلمون فى العاشر من ذى الحجة بعد صلاة الفجر ينحرون لله فداء لأنفسهم وذرياتهم ويأكلون من الأضحية ويطعمون البائس االفقير أسوة بما فعله أبوهم إبراهيم .

لقد تاب إبراهيم إلى ربه ، وعبده حق عبادته وحمده فى الغدو والآصال ، وساح فى الأرض يدعو إلى الله ، وركع لله وسجد له ، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وحفظ حدود الله : ﴿ التائبون العايدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ﴾ .

أسلم إبراهيم وجهه لله وآمن بالله وباليوم الآخر و ﴿ كان أمة قانتا لله حنيفا و لم يك من المشركين ﴾ وكان صادقا بل صديقا لم يكذب على الله أبدا لا فى ذات الله ولا فى نفسه : ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴾ وصبر على ما ابتلاه الله به صبر الصالحين الأخيار وخشع قلبه وعنت جبهته للواحد القهار . وكانت كفه كالريح المرسلة فهو أبو الضيفان وأبو المتصدقين ، وكان ينذر للرحمن صوما فيصوم ما شاء الله له أن يصوم وإن كان يذبح للضيف كل يوم و كل ليلة وفى كل آن .

تزوج سارة وأبى وهو شاب أن يتخذ جارية لتنجب له ذرية ، حتى إذا صار شيخا وأمره الله أن يتزوج هاجر أطاع أمر الله . لقد كانت الفاحشة منتشرة فى أرجاء الأرض والعاهرات المقدسات فى معابد عشتار وباسنت وفى كل مكان ، ولكنه تعفف ونأى بنفسه عن الدنس الذى كان يفخر به عصره .

﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾ .

﴿ قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت إيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم على صلواتهم يحافظون * أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ .

وذهب النهار وانحدرت الشمس وراء جبال بكة وسقط الظلام على الوادى والناس يطوفون حول البيت ويركعون ويسجدون ، ووقف إبراهيم فى مقامه أمام الكعبة وراح يتلو : ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون * وله الحمد فى السماوات والأرض وعشيا وحين تظهرون * يخرج الحىَّ من الميت ويخرج الميت من الحىِّ ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ﴾ .

﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ﴾ .

﴿ وإبراهيم الذى وفَّى ﴾ .

﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلا ﴾ .

٢٢

تأهب خليل الرحمن لمغادرة بكة بعد أن انقضى موسم الحج وعاد الناس إلى ديارهم ، فقد ترك سارة وإسحاق فى حبرون قبل أن يشد الرحال إلى هاجر وإسماعيل وقبل أن يأمره الله برفع القواعد من بيته المحرم .

وكان قد قطع عهدا مع أبيمالك وتعاهدا على أن يعيشا فى سلام ، أن يكرم أبيمالك وفادة رسول الله وأن ينزله على الرحب والسعة فى أرضه وأن يقسم إبراهيم بربه ألا ينافس أبيمالك فى ملكه وأن يرعى ذريته من بعده .

وكان قد زرع حول بئر سبع أثلا واستقر به المقام فيها ولكن رعاته وعبيده كانوا فى شجار دائم مع عبيد الملك ، فأمر إبراهيم قومه برفع الخيام والعودة إلى حبرون حيث كان رؤساء القبائل يحبونه ويبجلونه ويلتمسون منه البركة .

وأكرم الله هاجر وإسماعيل يوم أمره أن يسكنهما بواد غير ذى زرع عند بيته المحرم ، و لم يكن هناك أنيس بل كانت الأرض لله لم يورثها بعد لأحد من عباده . وفجر لهما بئر زمزم . فجر لهما الحياة فهرع الناس إليهما يلتمسون النزول عندهما .

وكانت البئر لهاجر وإسماعيل .. كانا يملكان عصب الحياة فكانا أساس العمران الذى بدأ يتكون حول بيت الله .

ونظر خليل الرحمن إلى سفوح الجبال فرأى البيوت قامت عليها ونصبت الخيام وبدأت تتكون مدينة بكة . إنها مدينة مباركة يذكر فيها اسم الله فى الغدو والآصال وفى آناء الليل وأطراف النهار ، إن هذه المدينة تنتشر ببركة هاجر وابنها إسماعيل .

إن إسماعيل يشب زعيما بين قومه ، إنه صادق الوعد من الأخيار ويعيش مع أمه آمنا فى حرم الله لا يخشى أن يعتدى عليه أحد فقد حرم الله الاعتداء حول بيته ، إنها مدينة محرمة يأمن فيها الناس والحيوان والطير ، يأمن فيها كل من تتردد بين جنباته روح .

ولو مال خليل الرحمن مع هواه لحمل سارة وإسحاق وقومه إلى بيت الله ولأمضى سحابة نهاره وسواد ليله فى التهجد والعبادة ، ولكن الله وعده أن يورث ذريته مشارق الأرض ومغاربها وأن يجعل فيهم الحكمة والكتاب . وقد تحقق وعد الله فى بكة فورث هاجر وإسماعيل الأرض المباركة لا ينازعهما فيها منازع ، وستنتشر ذرية إسماعيل فى هذه البطاح . فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون .

أما ابنه الآخر فلا يزال غريبا فى الأرض يسيح بين بيت إيل وبئر سبع وقادش وشور وحبرون ، لا يملك أرضا و لم يبن بعد بيتا لله العلى القدير يصلى فى محرابه ، بينا بيوت آلهة الوثنيين فارهة سامقة تشهد أن الضلالة لا تزال شامخة فى الأرض ، إن الأرض يرثها عباد الرحمن الصالحون .

ووقعت عينا خليل الرحمن على هاجر وهى تنظر إلى بيت الله وقد تعلقت فيه كل آمالها ؛ كانت مهيبة تعرف فى وجهها نضرة النعيم وتشع روحها نورا تتفتح له القلوب . لقد رأى خليل الرحمن ملوك بابل وحاران وجيرار ومصر ولكنه لم ير فى أى منهم ذلك الجلال الذى أسبغه

الله على أم إسماعيل .

وودع خليل الرحمن هاجر وإسماعيل وزوجه وبنيه وطاف بالبيت طواف الوداع ، ثم امتطى راحلته وخرج فى القافلة المنطلقة إلى الشام ليعود إلى حبرون ، وكان فى شوق شديد إلى سارة وإسحاق .

ليقصنّ على سارة ما رآه فى المنام من ذبح إسماعيل وكيف أن الله ناداه فى ثبير وفداه بذبح عظيم ، وليقصن عليها خبر البيت وكيف أمره الله أن يطهر بيته للطائفين والقائمين والركع السجود ، وكيف أمره أن يؤذن فى الناس بالحج وكيف أتوا رجالا وعلى كل ضامر من كل فج عميق .

إن أحداثا جليلة قد وقعت منذ غادر سارة إلى حيث أسكن هاجر وإسماعيل قد تكون أجل الأحداث التى وقعت فى حياة من اتخذه الله خليلا ، لقد شاركته سارة كل حياته وهى تشاركه ذكرياته ، فهو يحدثها بين الحين والحين عن جده ناحور وعن أبيه آزر وعن أمه إيمتالى وعن عمه هاران وعن أخيه ناحور . وإنه ليذكرها بما كان بينه وبين النمروذ ، وإنها لتذكر له كيف آمنت له وخرجت معه مهاجرة إلى ربها .

إن ذكريات السنين تشد أحدهما إلى الآخر ، أيام حاران ولياليها ، حروب دمشق ، أول محراب بناه إبراهيم لله العلى القدير ، هجوم جنود المصريين عليهم بالليل ، أسر سارة وهبوط إبراهيم إلى مصر ، عودتهما بهاجر وكيف كانت هاجر خيرا وبركة على إبراهيم وأهل بيته فأنجبت له إسماعيل ثم بشر الله سارة بإسحاق .

إن الذكريات التى تربط خليل الرحمن بسارة ذكريات غالية نابضة بالحياة والبركة . إنها قصة أروع كفاح شهدته البشرية ، كفاح فرد آمن بالله الواحد القهار فوقف فى وجه العالم يجلو حقيقة التوحيد فى الأرض

وقد نجح فى رسالته ووفّى ما أمره الله به .

لقد عرف خليل الرحمن قبل أن يغادر حبرون إلى بكة أن ملكة زوجة أخيه ناحور أنجبت ثمانية وأن بتوئيل بن ناحور أنجب رفقة وأن رفقة شبت فى حاران جميلة وديعة ، ففكر أن يبعث إليعازر الدمشقى إلى حاران ليخطبها لإسحاق .

وسوف تسر سارة وتتهلل بالفرح عندما يقول لها إبراهيم إن ابنهما إسحاق سيتزوج رفقة ابنة عمه ناحور ، فأمنية سارة أن ترى إسحاق زوجا يملأ الدنيا ذرية صالحة ليتحقق وعد الله ، وقد كانت سارة تحب ملكة وإن كانت ملكة وناحور قد أبيا أن يهاجرا مع إبراهيم إلى حيث لا يعلمان .

كان إبراهيم بارا بأهله ، فلئن كان فى سياحة روحية يجوب المشارق والمغارب إنه كان يتنسم أخبار أخيه . و لم يهمل إبراهيم هاجر وإسماعيل بعد أن أسكنهما عند بيت الله الحرام بل كان يهدف دائما إلى ربط أواصر الأسرة . ولئن كانت سارة وإسحاق لم يحجا هذه السنة إنه سيحملهما فى العام القابل إلى بيت الله ليؤديا شعائر الله . وقد زاره إسماعيل مرات فى حبرون وفى بيت إيل وعانق إسماعيل إسحاق فى حب شديد حتى إن سارة تأثرت بذلك اللقاء وانهمرت من عينيها الدموع .

وخيل إليه أنه يصغى إلى ترتيل سارة فى صحفه المطهرة ، صحفه التى أنزلها عليه الله ، وإن صوتها عذب ندى كترتيل الملائكة يمس شغاف القلوب ويبلل الروح بالعبرات .

إن صوتها يسرى فى سكون الليل أشجى من المزامير ويتغلغل فى سويداء النفوس فيبعث الخشية فى الوجدان ويطلق الأرواح لتهيم فى نور

الله ترشف رحيق الحكمة الغالية .

إنه فى شوق إليها ، فى شوق إلى أن يصغى إلى صلاتها ، فى شوق إلى أن يلقى إليها السمع وهى تناجى ربها وتبتهل إليه أن يغفر لها ويتقبل منها إنه هو السميع العليم .

ولاحت له أرباض حبرون — و لم تكن قد نسبت إليه بعد و لم تعرف بعد باسم الخليل — فخفق قلبه رهبة . فما أكثر ما سافر وجاب الآفاق وما أكثر ما عاد بعد سفره إلى خيامه وأهله ، ولكنه لم يحس أبدا ما يحسه فى هذه العودة فقلبه يخفق فى حزن وصدره يضيق وهامس يهمس فى أغواره أن خطبا جللا نزل بأهله . ترى ما الذى حل بأسرته التى تركها وهى آمنة فى كنف الله ؟

وأسرع إلى خيامه فنزل عن راحلته وراح يتلفت فهرع إليه الرجال والعبيد ولكن وجوههم كانت باسرة . وتقدم إبراهيم إلى إليعازر الدمشقى وقال :

— ماذا هناك ؟

و لم يستطع إليعازر أن يتجلد فأجهش بالبكاء وقال والعبرات تخنقه :

— ماتت سارة .

فأحس خليل الرحمن أنه يتمزق ، وهرع إلى خيمته وفتحها فإذا بسارة مسجاة أكب عليها إسحاق يبكى وينتحب . و لم يستطع إبراهيم أن يكتم حزنه فراح يبكى سارة التى آمنت له يوم كفر به الناس وواسته يوم أعرض عنه الناس وضمدت جروح نفسه يوم سددت إليه الطعنات . إنه يرى أحب الناس إليه فارقت الحياة ، أمست سارة جثة هامدة ، أضحت ذكرى كأيام أور وحاران ومصر .

وراح إبراهيم ينظر إلى سارة وفى حلقه وقدة من نار ثم قال :

ـــ إنا يا سارة عليك لمحزونون ، العين تدمع والقلب لا يقول إلا خيرا ، إنا لله وإنا إليه راجعون .

وطاف بذهنه أن يحملها إلى أور ليدفنها إلى جوار أمه إيمتالى أو يحملها إلى حاران ليدفنها إلى جوار أبيه آزر ، ولكنه أعرض عن هذا . فليدفننها فى حبرون حيث فاضت روحها فالأرض كلها لله .

وقام إلى بنى حث ، إلى الناس الذين نزل بينهم وكانت بينه وبينهم مودة ، وكانوا مجتمعين لما بلغهم موت سارة فقال لهم :

ـــ أريد أن أشترى قبرا أدفن فيه سارة .

فقالوا له فى إيمان :

ـــ قبورنا كلها لك يا رسول الله اختر منها ما تشاء .

فشكر لهم إبراهيم وقال :

ـــ التمسوا لى من عفرون بن صومر أن يبيعنى مغارة الكفيلة التى له فى طرف حقله .

وكان عفرون بين المجتمعين فقال :

ـــ إنها لك يا رسول الله ، هى والحقل لله ولرسوله .

ولم يقبل خليل الرحمن أن يقبلها هدية بل قال :

ـــ شكرا لك يا عفرون ، لا بد أن أدفع ثمن الحقل فإنى لا أدفن سارة فى قبر لا أملكه ، فى قبر لم أدفع ثمنه .

قال عفرون :

ـــ إنى رضيت أن أبيعك الحقل بأربعمائة شاقل من الفضة .

ووزن خليل الرحمن لعفرون الفضة التى طلبها وأعطاه إياها على مرأى

ومسمع من القوم . وقبرت سارة فى مغارة الكفيلة ووقف على قبرها إبراهيم وإسحاق وإليعازر الدمشقى والمؤمنون يبكون السيدة الجليلة التى كانت أول من آمن بالله ورسوله ، والتى كانت القلوب تخشع لصوتها إذا قامت للصلاة أو قرأت فى صحف خليل الرحمن .

٢٣

بعث إبراهيم إلى إليعازر الدمشقي وكيل بيته الذى كانت فى يده أموال إبراهيم وعبيده ومواشيه وقال له :

— أستحلفك برب السماوات والأرض ألا تتخذ لإسحاق زوجة من بنات الكنعانيين .

— ومن أين تريد أن أتخذ له زوجة يا رسول الله ؟

— من أهلى . من عشيرتى . من قومى .

— وإن رفضت المرأة أن تخرج معى إلى هنا ، آآخذ سيدى إسحاق معى وننطلق إلى حاران ؟

خلف موت سارة فراغا فى حياة الشيخ وترك بُعد هاجر وإسماعيل عنه وحشة فى نفسه . إن إسحاق أنيسه فى حياته وقد بات لا يحتمل فراقه ، وإن الله وعده أن يورث هذه الأرض إسحاق وذريته ، فإن ذهب إسحاق إلى حاران فقد يستقر هناك مع زوجه وأهلها .

إنه احتمل أن يسكن هاجر وإسماعيل عند بيت الله المحرم وأن يبقى هو وإسحاق فى أرض الكنعانيين ليكون لذريته من بعده المشارق والمغارب . إنه احتمل أن يكون مشتتا بين أرض الحجاز وبين حبرون ليتم الله وعده إن وعد الله كان مأتيا .

قال خليل الرحمن لإليعازر :

— إياك أن تذهب بإسحاق إلى هناك . إن الله الذى أخرجنى من

ديارى وأوحى إلىّ ما أوحى ووعدنى أن يجعل فى ذريتى الحكمة والكتاب وأن يورث ذريتى مشارق الأرض ومغاربها لقادر على أن يهديك إلى زوجة إسحاق .

أقسم برب السماوات والأرض ألا تعود بابنى إلى هناك .

فقال إليعازر :

ـــ أقسم برب السماوات والأرض ألا أعود بإسحاق إلى أرض أهله .

واطمأن قلب إبراهيم فقد كان يخشى أن يموت فيعود إليعازر بإسحاق إلى حاران ليزوجه فى أهله تنفيذا لوصية خليل الرحمن .

لقد وعد الله أن يورث الأرض عباده الصالحين . إن أرض الحجاز وما حولها لإسماعيل وذريته ما داموا صالحين ، وأرض الكنعانيين وما حولها لإسحاق وذريته ما داموا صالحين . إن الله لا يميز شعبا على شعب ولا ذرية على ذرية إلا بالتقوى والصلاح . قال الله تعالى لإبراهيم من اتخذه ربه خليلا : « إنى جاعلك للناس إماما » قال إبراهيم : « ومن ذريتى ؟ » قال الله : « لا ينال عهدى الظالمين » .

وخرجت قافلة إليعازر من حبرون وكانت عشرة من الإبل حملت بالزاد والهدايا ، وانطلق إليعازر مولى إبراهيم إلى بلاد ما بين النهرين ، إلى البلاد التى خرج منها إبراهيم شابا ليسيح فى الأرض يدعو الناس إلى الهدى والرشاد .

وانسابت القافلة فى أرض حاران وكانت أبراج معابد « سين » فارهة فى السماء وعيون الماء تنتشر هنا وهناك والمروج الخضر تمتد على مدى البصر .

ودخل إليعازر أبواب مدينة ناحور وقد أرخى الليل سدوله وجاءت الفتيات إلى بئر الماء يحملن جرارهن على عواتقهن ، فأناخ الإبل بالقرب من البئر وشخص ببصره إلى السماء وقال :

ــ يا رب ! يا رب مولاى إبراهيم ورب الناس أجمعين ، يسر لى أمرى واهدنى إلى من اخترتها زوجة لسيدى إسحاق .

يا رب ! ها هن بنات أهل مولاى آتيات بجرارهن ، فلتكن التى أقول لها : أميلى جرتك لأشرب فتقول لى : اشرب وأنا أسقى إبلك هى التى اصطفيتها لعبدك إسحاق .

وذهب إليعازر إلى فتاة حلوة جذابة وقال لها :

ــ اسقنى يا بنيتى .

فأعرضت الفتاة عنه وسارت فى طريقها لا تلتفت إليه كأنما لم تسمعه . ورأى فتاة رقيقة يخطف حسنها الأبصار تهبط فى درج البئر فى خفة الأطياف وتملأ جرتها ، فخف إليها وقال :

ــ اسقنى جرعة ماء .

فأشرق وجه الفتاة بابتسامة رقيقة وقالت :

ــ اشرب هنيئا يا سيدى .

ما ألطفك وأرقك أيتها الفتاة ! ليتك تكونين التى اختارها الله لسيدى إسحاق ! تفتحت نفس إليعازر لها وأرهفت حواسه قبل أن يُرهَف سمعه ، وفتحت الفتاة فاها عن لؤلؤ نضيد وقالت :

ــ اشرب حتى أسقى جمالك .

يا ألله ! أتكون هى التى اصطفاها رب مولاه إبراهيم لابن مولاه إسحاق .

يا رب ! نورا فى قلبى حتى أهتدى إلى ما تريد ، يا رب ! أريد اليقين حتى لا يكون ما جرى إن هو إلا نزغ من الشيطان .

وراحت الفتاة تغدو وتروح بين البئر والمسقاة حتى إذا فرغت من سقاية الإبل عادت إلى إليعازر مشرقة الوجه متهللة الأسارير فقال لها :

— ما اسمك يا بنيتى ؟

— رفقة .

— بنت من أنت ؟

— بنت بتوئيل ابن ملكة الذى ولدته لناحور .

وخفق قلب إليعازر وتهلل بالفرح فقد هداه الله إلى حفيدة ناحور أخى مولاه إبراهيم .

— هل فى بيت أبيك مكان لنا لنبيت ؟

— عندنا مكان لتبيتوا فيه وعندنا علف وتبن كثير . انتظر هنا حتى أخبر أهلى ونهيئ لكم مكانا .

وانقلبت رفقة إلى أهلها ، وخر إليعازر ساجدا لله أن هداه إلى بيت ناحور وإلى حفيدته رفقة ، إن الله أكرمه إكراما لخليله وإكراما لسيده إسحاق .

وبقى إليعازر ورجاله وإبله إلى جوار البئر حتى جاء لابان أخو رفقة وقال :

— تفضل إنا هيأنا البيت ، ادخلوا على الرحب والسعة .

ودخل الرجال البيت وقدم إليهم الماء ليأخذوا زينتهم ، ثم قدم إليهم الطعام وكانت رفقة وأهل البيت يخدمونهم .

وسيقت الإبل إلى حيث تبيت وقدم لها العلف والتبن ، وأسلم

الرجال والعبيد جنوبهم للأرض فراحوا فى سبات ، ودخل إليعازر مع لابان ورفقة وأهل بيتهما ليتحدث فى الأمر الذى جاء من أجله .

قص إليعازر قصته قال إنه مولى إبراهيم رسول الله وأن ربه قد وسع الله عليه فى الرزق فأغناه ، وأن خزائنه تفيض بالذهب والفضة وعبيده لا يحصيها العد ومواشيه وغنمه وجماله وحميره ترعى فى أرض الله كأنها جراد منتشر ، وقد وهب الله لإبراهيم وهو شيخ وسارة وهى عجوز عقيم غلاما زكيا هو سيدى إسحاق ، وقد أمرنى مولاى أن أخرج إلى أهله لأختار لسيدى إسحاق زوجة ، وقد هدانى الله إلى بيت ناحور أخى مولاى إن هذا من فضل الله وإن الله لذو فضل عظيم .

والتفت إلى أهل بيت ناحور وقال :

— والآن أريد أن أعرف رأيكم فى زواج سيدتى رفقة من سيدى إسحاق .

وكانت ملكة قد آمنت برسالة إبراهيم ورب إبراهيم ، فقد آمن بها أبوها ناحور ولكنه أبى أن يهاجر معه واستقر فى أرض أجداده ، وقد دعت ابنها بتوئيل كما دعا إبراهيم ابنه إسماعيل نسبة إلى إيل ، الله العظيم .

فقال لابان وبتوئيل :

— ليست لنا إرادة بعد إرادة الله ، الله أمر وعلينا أن نصدع لما يأمر به إن الله فعال لما يريد ، ها هى ذى رفقة فخذها وزوّجها لإسحاق تنفيذا لأمر الله بارك الله لكم فيها .

فخر إليعازر شكرا لله على أن وفقه فى سفارته ، على أن هداه إلى رفقة التى اصطفاها لإسحاق ، إن الله يفعل ما يشاء ويصطفى من يريد . اصطفى هاجر لإبراهيم لتكون أما للعرب واصطفى رفقة لإسحاق

لتكون أما ليعقوب ، أما لبنى إسرائيل .

وأهدى إليعازر إلى رفقة آنية فضة وآنية ذهب وثيابا ، ووضع فى أنفها خزامة ذهب وزنها نصف شاقل ، ولف حول معصمها سوارين من الذهب ، وأهدى إلى ملكة ولابان وبتوئيل هدايا فاخرة .

وأحس إليعازر رغبة أن يطير إلى حبرون وأن يقول لمولاه خليل الرحمن إن الله أكرمه وهداه إلى بيت أخيه ، وأنه جاء برفقة لتكون زوجة لإسحاق وأن إسحاق لن يعود إلى حاران بل سيبقى فى حبرون ليرث مشارق الأرض ومغاربها مع أخيه إسماعيل فقال لأهل رفقة :

— جهزوا رفقة لتعود إلى مولاى إبراهيم .

— تمكث معنا عشرة أيام ثم تذهب معك .

— بالله ابعثوا بى إلى مولاى وقد من الله علىّ بالفلاح .

— ندعو رفقة ونخيرها أتمكث معنا أياما أم تذهب معك الآن .

وجاءت رفقة وخيروها فاختارت أن تنطلق إلى المجهول الساحر الجميل الذى أعده لها الله لبيوتها فى الدنيا حسنة : ﴿ ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ .

وتأهبت رفقة وجاريتها التى أرضعتها وفتياتها للرحيل ، ووقف أهل بيت ناحور يودعونها فكانوا يضمونها إلى صدورهم فى حب ويقبلونها قبلات وداع ويدعون الله أن يبارك ذريتها . ﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ﴾ .

ووقف إليعازر ينظر وإذا الذكريات تعود به سنين إلى الوراء ، فيرى مولاه إبراهيم وهاجر وابنها الرضيع إسماعيل والقبيلة كلها وقد خرجت تودع الأميرة المصرية التى يحملها زوجها بأمر الله إلى المجهول . إن الله

شرف هاجر يوم أوقعها فى الأسر فاصطفاها لتكون أما للأمة المؤمنة التى تتكون حول بيته المحرم ، الأمة التى بدأت تضيق بها بكة . وقد شرفه الله هو نفسه يوم وقع فى الأسر يوم غزا إبراهيم دمشق فقد عرف الله واهتدى بنوره وهداه الله صراط الذين أنعم عليهم ، وصار وكيل بيت مولاه وجعله على خزائنه .

وقد أوصاه خليل الرحمن أن يتصدق بكل ماله على الفقراء والمساكين يوم يذهب إلى ربه ، إلى الرفيق الأعلى ، فالأنبياء لا يورثون وما يتركونه من بعدهم صدقة وإن تركوا القناطير من الذهب والفضة .

ألا ما أكرم هذا الدين جعل من الإماء أزواجا للرسل وأمهات لخير ذرية ، وجعل العبيد على خزائن أموال المسلمين لا فضل لحر على عبد إلا بالتقوى .

إن مولاه إبراهيم يورث بنيه الحكمة والكتاب ، يورثهم طاعة الله والإيمان . إنه لا يورثهم عرض الحياة بل يورثهم ما عندالله وإلا لجعل إسماعيل على خزائنه ، أو جعل إسحاق يشرف على العبيد والإبل والحمير والأنعام والأغنام وما فى الخزائن من ذهب وفضة .

وركبت رفقة وفتياتها الجمال وانطلقن فى أثر قافلة إليعازر . فلما ابتعدت القافلة عن مدينة ناحور وقبل أن يطبق عليها الأفق حانت من رفقة التفاتة إليها فانهمر الدمع من مقلتيها كاللؤلؤ على خديها .

لقد خرجت سارة من حاران من سنين طويلة مثلما تخرج منها رفقة الآن ، ولكن شتان بين خروج وخروج . كانت سارة مهاجرة لله فرارا من الاضطهاد لإعلاء كلمة الله ولتمكن زوجها من إبلاغ رسالات ربه ، أما رفقة فإنها تخرج لأن الله اصطفاها لتكون زوجة لإسحاق وأما

ليعقوب . كانت سارة مقبلة على حياة خشنة ليس لها قرار بينا كانت رفقة ذاهبة للزواج من ابن رسول الله الذى مكن الله له فى الأرض وجعل له مالا ممدودا .

ومرت أيام والقافلة فى طريقها وإذا بشاب جميل أقبل من الجنوب يتألق وجهه بالنور فلما وقعت عينا رفقة عليه لم تقو على أن ترفع عينيها عنه والتفتت إلى إليعازر فألفته يبتسم له فقالت :

ـــ من هذا الشاب المقبل للقائنا ؟

فقال إليعازر وهو ينيخ جمله :

ـــ إنه سيدى إسحاق .

فأسدلت رفقة الخمار على وجهها وأناخت جملها فذهب إسحاق إليها وانطلق بها إلى أبيه . وقص إليعازر على خليل الرحمن قصته وكيف أن الله أكرمه وهداه إلى بيت ناحور . ثم أخذ إسحاق رفقة وذهب بها إلى خباء أمه وغمر القوم سرور وأفعمت القلوب بالبهجة لذلك الزواج المبارك .

٢٤

كان الحمام يطوف حول الكعبة ويسير بين الناس وهو آمن ، فقد كان الناس يطعمونه ولا يمسونه بأذى ما دام فى حمى بيت الله ، وكان أهل التقى يتعبدون فى فناء بيته ، وكانوا فى حرمته طائفين أو راكعين أو ساجدين . وكان بعض الخائفين يلوذون بالحرم مستجيرين فكانوا فى ظل الله آمنين لا يخشون بطشا ولا اعتداء ، فمن يعكر صفاء السلام أو يحدث فى حرم الله حدثا يخرج منه وعليه لعنة الله .

وكانت البيوت قد بنيت من الحجارة على سفوح الجبال التى تحيط بالوادى المقدس إلى جوار خيام الوبر السود ، وكانت الشمس ترسل أشعتها الحامية إلى الصخور البركانية فتشع الحرارة فتحيل بكة وقت الظهيرة إلى أتون نار .

كان الحر شديدا ولكن الطواف حول الكعبة لم ينقطع ، كان الناس ينسون لسع الأرض لأقدامهم ووخز الشمس لأبدانهم وانبثاق العرق من أجسامهم فى غمرة النشوة الروحية التى تفيض عليهم ، كانوا يستلمون الحجر الأسود بأيديهم وهم على ثقة من أنهم يعاهدون الله عل الطاعة وعلى ألا يمطر عليهم حجارة من السماء أو يأتيهم بعذاب أليم .

وجلست هاجر فى الحرم وإلى جوارها نابت بن إسماعيل ، وعلى مقربة منها جلست زوجة إسماعيل وحولها أبناؤها قيدار والذيل ومنشا ومسمع ، وكان نابت يكتب على كتف بعير بعض صحف جده ،

وكانت أم الأولاد تعلمهم القراءة والكتابة .

رأى إبراهيم الكتابة المسمارية فى أور ، وكان القوم يصنعون ألواحا من الطين يكتبون عليها بقلم على هيئة المسمار ثم يتركونها تجف ، وعلم ناحور حفيده إبراهيم كيف يكتب مثلما كان قومه يكتبون .

وذهب إبراهيم إلى مصر ورأى كيف يكتب المصريون على ورق البردى ، وخرجت معه من مصر الأميرة المصرية هاجر التى تعلمت الكتابة على أيدى كهنة منف ، فعلمت إسماعيل الكتابة ثم اشتركت فى تعليم أحفادها ، ولم يكن البردى متوفرا فى بكة فراحت تعلمهم الكتابة على الرمل وعلى عظام كتف البعير ورقاق الغزلان .

وانقلب شباب بكة إلى دورهم يحملون ما صادوه من أرانب برية وغزلان وطير ، وجاء شاب إلى إسماعيل يشكو صاحبه قال إنه صاد بعض ما معه من الطير فى الحرم ، فبعث إسماعيل فى طلب الشاب وأنبأه بشكوى صاحبه ، فأقسم الشاب أنه اصطاده خارج الحرم .

ولم تكن هناك حدود تفصل بين الحل والحرم وكان ذلك متروكا لتقدير الناس ، فرأى إسماعيل أن يقيم حدودا فى بكة تحدد حرم الله ليكون الحرام بينا والحلال بينا ﴿ ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾ .

وراح إسماعيل يبين حد الحرم من جهة الطائف على طريق عرفة من بطن نهرة ، وحدّه من جهة العراق ، وحدّه من جهة الجعرانة ، وحدّه من جهة جدة ، وحدّه من طريق التنعيم ، وحدّه من طريق اليمن ، وكانت المسافات بين هذه الحدود والحرم تتراوح بين ستة أميال وثمانية عشر ميلا ، وكان يقيس المسافات بمقاييس أهل بابل بالذراع المقسم إلى أربع وعشرين إصبعا .

كان إسماعيل فارسا رجل قوس وسهام ونبال ، ولكنه كان خلاصة حضارتين عظيمتين بل أعظم حضارتين فى عصره ، حضارة بابل وحضارة مصر ، وكان يعلم أبناءه فى ظل الحرم ما تعلمه من خليل الرحمن وما رشفه من العلم من أمه هاجر التى جاءت من منارة العرفان ، تعلم منها العلم الصحيح الذى تخلص مما فيه من زيف الكهان وتألق بنور الله .

وتاقت نفس إسماعيل إلى زيارة الخليل فقد كانت الأسباب متصلة بين بكة وحبرون ، وقد شد إسماعيل الرحال إلى هناك أكثر من مرة فذهب لتعزية أبيه فى فقد سارة وكان يعلم مكانتها فى قلب أبيه وليكون إلى جوار إسحاق يواسيه ويمسح الحزن عن قلبه الكبير .

وذهب ليهنىء أخاه لما تزوج رفقة بنت بتوئيل ابن عمه ناحور الذى لم يره وكان يسمع من أبيه أنه استقر فى حاران وأبى أن يهاجر إلى ربه مع المهاجرين فى سبيل الله .

كانت رفقة حفيدة عمه الذى سميت البقعة التى نزل بها باسمه فصارت مدينة ناحور ، لقد رآها فى ذلك اليوم الذى ذهب فيه إلى حبرون وكان معه ابنه نابت وكان غلاما قوى الإرادة يجوب مع أبيه الآفاق ويسير فى الأرض ينظر كيف بدأ الخلق وكيف كان عاقبة المجرمين . ومر بسدوم ألا بعدا لسدوم قوم لوط .

رأى إسماعيل رفقة بيد أنه لم ير ابن عمه بتوئيل ، وسألها عن قومها وعما يعبدون فقالت له إن جدها دعا قومه إلى الله بعد رحيل إبراهيم الخليل وإنهم قوم مؤمنون ، وقالت إن أباها يعبد الله وحده لا إله إلا هو وإنه امتلأ بالفرح وسجد لله شكرا لما قال له إليعازر الدمشقى إن الله

اختار ابنته لتكون زوجة لإسحاق ابن خليله وحبيبه إبراهيم .

وتذكر إسماعيل كيف أن أباه تلقى ابنه نابت بترحاب عظيم وقبله فى حب وأجلسه إلى جواره وأبى أن يفارقه ما دام فى حبرون ، وكان نابت سعيدا برفقة جده ، وكان يصلى خلفه كل الأوقات ويلقى إليه السمع إذا دعا ربه أو تحدث إلى المؤمنين .

وذهب إسماعيل كذلك إلى الخليل يوم علم أن الله منَّ على أخيه إسحاق بتوأمين ، وكان إسحاق يقص على أخيه كيف وضعت رفقة العيص ويعقوب . نزل العيص أولا ثم نزل يعقوب فى عقبه ويده قابضة بعقب أخيه وأنه سماه لذلك يعقوب : لقد بشر الله خليله بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ، وكان نزول يعقوب ويده قابضة بعقب أخيه إشارة إلى أنه هو المقصود بالبشارة .

كان إسحاق يفيض بشرا وسرورا ورفقة فى سعادة غامرة فقد اصطفاها الله لتكون أم يعقوب ، وقد لاح فى وجه رفقة الدهش لما قال إسماعيل : إن وهبنى الله أنثى زوجتها العيص .

وضحك إسحاق وإسماعيل وضمت رفقة يعقوب فى حنان إلى صدرها وكان أقرب إلى قلبها من أخيه .

وتذكر إسماعيل أنه اصطحب ابنه قيدار فى تلك الرحلة ورأى بعين خياله كيف كان فرح الخليل بالغلام ، كان يضمه إلى صدره فى إعزاز ويقبله فى حب عميق فقد كان يرى فى ذرية إسماعيل وإسحاق الوارثين الذين وعده الله أن يورثهم الكتاب والحكمة .

وتأهب إسماعيل للرحيل إلى الخليل ، إلى حبرون التى شرفها الله برسوله وهدى قومها للإيمان ، فامتطى جواده وودع أهله وانطلق مع

القافلة الخارجة إلى الشأم .

بدأت بكة تأخذ مكانتها التجارية فصارت محطا للقوافل التى تنقل بضائع الجنوب إلى الشمال وبضائع الشمال إلى الجنوب ، وأصبحت سوقا تموج بالتجار ويتبادل فيها السلع وأخذ أهلوها يهتمون بشئون المال والتجارة .

خرجت القافلة إلى الفضاء العريض وكانت الطرق مفتوحة إلى العراق والشأم وسيناء ، ولم يكن هناك فاصل بين الحجاز وما جاورها من الدول ، وكان الناس أمة واحدة وكان أصلهم واحدا فقد خرجوا جميعا من الجزيرة العربية واستوطنوا العراق والشأم وصحراء سيناء ، وكانوا يتكلمون اللغة العربية وإن اختلفت لهجاتها .

لم تكن العبرية قد نشأت بعد ، فستنشأ العبرية فى كنعان من العربية كما نشأت منها لهجات بابل وآشور وستصبح لغة الكنعانيين وسيأخذها عنهم بنو إسرائيل .

وانفصل إسماعيل عن القافلة وعرج إلى حبرون مدينة الخليل ، وسارت القافلة فى طريقها إلى غزة تحمل بضائع شرق إفريقية التى أخذت طريقها فى المراكب إلى اليمن ومنها إلى الشمال .

ودخل إسماعيل خيام أبيه يمتطى جواده فهرع إليه العبيد يرحبون به ، وراح الرجال يرمقونه فى إعجاب فقد كان جليلا مهابا تتفتح له القلوب وتهفو إليه النفوس .

وخف إليه العيص ويعقوب يستبقان فأخذهما بين يديه وقبلهما وهو مسرور ، وساروا إلى خيمة الخليل وإذا العيص ينسل منهما وينطلق إلى حيث كان حصان عمه يحاول أن يعتلى ظهره . كان العيص خشنا يهوى

الصيد ويهيم فى الصحراء وكان متأبدا كعمه إسماعيل ، وكان عمه يحبه من أعماق قلبه .

ودخل إسماعيل على أبيه واعتنق الرجلان وأخذا بأطراف الحديث .

وكان إبراهيم مسرورا لوفود حبيبه الذى هم يوما بأن يذبحه تنفيذا لأمر الله لولا أن فداه الله بذبح عظيم .

وفى الليل صلى إسماعيل وإسحاق ويعقوب والعيص والمؤمنون خلف من جعله الله إماما للناس ، وكانوا يصغون إلى صلاته فترتجف قلوبهم فى صدورهم وتهيم أرواحهم فى ملكوت الله تسبح فى اطمئنان فى النور الذى تجلى على العباد ، وأتم إبراهيم صلاته وجلس فى المحراب وجلس عنده إسماعيل وإسحاق ويعقوب ، وخرج العيص مرة أخرى إلى حيث كان جواد عمه .

كان إسماعيل يهفو إلى الكعبة فهو فى شوق إلى الطواف حول بيت الله، تعلق قلبه به وبات يستشعر وحشة إذا ما بعد عنه. كان الهواء يهب نديا فى حبرون والحقول الخضراء تسر الناظرين والقمر يرسل أشعته الفضية فيكسو الكون حلة من البهاء ، كانت مدينة الخليل تزهو بجمالها ولكن كل ما فى الأرض من جمال لا يرقى إلى جمال النفحات الروحية التى تفيض بها نفس إسماعيل إذا استلم الحجر الأسود أو طاف بالبيت أو دعا الله وهو فى الحرم بالسحر وعند شروق الشمس وآناء النهار وفى الغدو والآصال .

والتفت إبراهيم إلى بنيه ويعقوب وراح يوصيهم قال :

— ﴿ يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ .

٢٥

ران على بكة الوجوم فقد ذاع فى الدور والخيام أن هاجر تجود بأنفاسها ، ونزل القلوب حزن عميق فإنها أول أنفاس طاهرة مؤمنة ترددت فى الوادى المقدس منذ ذلك اليوم الذى أسكنها خليل الرحمن بواد غير ذى زرع عند البيت المحرم .

تركها وحدها هى وابنها الرضيع فى واد لا ينبت إلا السلم والكلأ لا ماء ولا أنيس ، وتحيط بها جبال فارهة قاسية جرداء ، ويجثم على المكان سكون عميق ينفث الوحشة والرعب والفزع ، فلما سألته آلله أمرك بهذا ؟ وقال لها نعم ، لم تجزع و لم تبك بل قالت فى إيمان عميق : إذاً لن يضيعنا .

إن التى تجود بأنفاسها وهى شاخصة إلى الكعبة لم تكن فى يوم من الأيام امرأة تعصف بها الأحداث وتلعب بها العواطف . إنها مذ أسلمت وجهها لله وثقت به وآمنت بقدرته وحكمته فتركت له نفسها يفعل بها ما يريد ، إنه على كل شيء قدير له الملك وله الحمد وهو العليم الخبير .

إن التى تجود بأنفاسها ومن عندها يرنون إليها فى هلع ورجاء هى بكة ذاتها ، هى تاريخها المشرق الذى فاض بالبركة والرحمة والأمن والسلام ، كانت ثانى اثنين إذ هما فى الوادى القفر هى وابنها الرضيع ، وكانت على يقين أن من أمر بتركها فى هذه البيداء لن يضيعها أبدا . كان قلبها عامرا بإيمان لو وزع على أهل الأرض لأشرقت أفئدتهم بنور الله .

ولم يضيعهما الله ففجر لهما بئر زمزم ونبض الوادى القفر بالحياة ، وجاء الناس يلتمسون منها النزول عندها فأذنت لهم على شرط أن تكون البئر لها ولابنها ، فما كانت تفرط فى بئر وهبها الله لها ولإسماعيل ابن خليل الرحمن .

كانت جليلة رفيعة القدر لها مهابة وإن كانت أكثر أهل الأرض تواضعا . أحبها الناس الذين نزلوا عندها حبا عميقا من أغوار نفوسهم فكانوا يهرعون إليها يصغون إلى أحاديثها العذبة ، وكانت أحاديثها تدور كلها حول الله ودينه الذى بعث به رسوله ، وكان الناس يرهفون السمع فتخشع أفئدتهم وتفيض أعينهم بالدمع إذا قرأت فى صحف إبراهيم ، وكان صوتها عامرا بالإيمان يحرك العواطف ويمس شغاف القلوب .

وراح الناس يرمقونها فى أسى عميق ويحسون عظم الفاجعة التى سوف تنزل بموتها . لقد كانت بركة مذ وطئت قدماها الوادى المقدس وإنهم ليخشون أن ترفع البركة بموتها .

أمر الله خليله أن يسكنها هى وإسماعيل بالوادى القفر لحكمة تجلت للناس جميعا : أراد الله أن يقيم إبراهيم وإسماعيل القواعد من بيته المحرم . وقد بُنى البيت وطهر للطائفين والعاكفين والركع السجود وجعله الله مثابة للناس وأمنا ، وقد شاركت هاجر فى بناء بيت الله وشاركت فى تطهيره ، وكانت أول من لبى يوم أمر الله خليله أن يؤذن فى الناس بالحج .

إن تاريخا مشرقا حيا نابضا بأعمق ما عرفت البشرية من إيمان وتسليم لله يذوى أمام أعينهم ؛ يطوى كطى السجل للكتب . وإن هى إلا نفس يخرج ثم لا يدخل غيره وتصبح هاجر ذكرى عطرة ، ذكرى لا يمحوها

كرَّ السنين ما دام فى النفوس وفاء .

وغص الحرم بالناس وضاق بمن جاءوا من كل فج عميق يسألون عن سيدة بكة ، وغصت الحناجر بالدموع وضاقت الصدور بمشاعر الأسى والحزن ، كان الجميع يقولون فى وجد : إن هاجر تموت .

وفتحت هاجر عينيها فى جهد فرأت إسماعيل ونابت وقيدار وسائر حفدتها يحفون بها ، وكانت وجوههم مرآة للوعة التى تسرى بين ضلوعهم ، وكانت عيونهم تشع شفقة وترقرقت فيها الدموع .

ورفت على شفتى هاجر ابتسامة فهى ترى فى إسماعيل وأبنائه وعد الله ، وعدها الله أن يبارك فى ذرية إسماعيل وأن يجعله أمة عظيمة وأن يهب له اثنى عشر زعيما . غمرها الله برحمته حتى إنها لتخشى أن تكون قصرت فى حمد الله على النعم التى فاضت عليها وعلى إسماعيل وحفدتها .

وفى لحظات قصيرة استعرضت كل ما مر فى حياتها : فرأت نفسها طفلة فى قصر والديها فى منف ، ورأت نفسها يوم زفت إلى أمير منف وكان القصر يموج بالأمراء والكهنة وكبار رجال الدولة ، وغمرتها فى تلك الليلة سعادة عارمة فكانت تحسب أنها نالت أقصى ما يمكن أن يناله إنسان فى الدنيا .

ولاح فى وجهها أنها تسخر من شىء . إن كل ما أحست به فى وادى النيل من سعادة وحبور وغبطة لا يساوى الرضا الذى يطوف بالروح فى سجدة واحدة ، كانت سعادتها تلك عابرة سرعان ما تبخرت ؛ أما رضى النفس ، سرور الإيمان ، فكان خالدا يشرق بالأمن والسلام .

ورأت نفسها وهى قلقة تذرف الدمع السخين يوم خرج زوجها لقتال الهكسوس ، ودب فى قلبها يأس مرير لما جاءها نبأ مصرع أميرها

حتى إنها كادت تقتل نفسها حزنا عليه . كانت جاهلة لم يستطع بتاح ولا رع ولا حور ولا آلهة المصريين جميعا أن يمنحوها نفحة من إيمان صادق ، إيمان يجعلها تتقبل قضاء الله بنفس راضية .

أين هى فى ذلك اليوم منها يوم أسكنها إبراهيم بوادى بكة بلا ماء ولا أنيس ؟ إنها كانت يوم جاءها مصرع زوجها فى قصرها وبين رجالها وعبيدها ووصيفاتها ولكنها أحست أنها وحيدة فى الحياة بلا سند ولا معين ، بينا أحست يوم تركها إبراهيم وحده فى الفلاة أنها فى كنف إله قادر عظيم لن يتخلى عنها ولن يضيعها .

كانت تمقت الرعاة العمالقة الذين أغاروا على بلادها بكل خلجة من خلجات نفسها ، كانت تتمنى الموت لهم جميعا ، فإذا بها بعد أن هداها الله للإيمان تمنحهم الحياة وتسمح لهم أن ينزلوا معها على ماء زمزم وتفتح لهم قلبها وتغمرهم بحبها .

أسروها فى منف يوم كانت أميرة ، يوم لم تكن شيئا مذكـورا ووهبوها لسارة وحطوا من شأنها ، ثم أنزلوها أرفع منزلة فى قلوبهم بعد أن صارت جارية وأعزها الله بالإسلام ورفع من شأنها ، إن الله يعز من يشاء إن الله عزيز حكيم .

وكان إبراهيم يدعو ربه فى أور وحاران وفى الشأم ومصر : رب هب لى من الصالحين ، كان فى شوق عظيم أن يكون له ذرية . وأخر الله استجابة دعاء خليله لأن الله قدر أن يكون ابن إبراهيم البكر منها . أكرمها الله ! وإنها لتسبح بحمده وهى تودع آخر أيامها فى الدنيا قبل أن يجزيها الله الجزاء الأوفى .

واختبرها ربها فى وحيدها يوم أمر الله خليله أن يذبح ابنها ، كان بلاء

عظيما انتصر فيه الإيمان وحب الله ورسوله على حب فلذة الفؤاد ، إن نار الثكل أليمة ولكنها تهون فى سبيل رضا الله .

وأراد الشيطان أن يصدها عن طاعة الله فوسوس لها أن ما رآه إبراهيم فى منامه إن هو إلا وحى كاذب ، فصمّت أذنيها عن همزاته وأغلقت وجدانها دونه ورجمته فى نفسها قبل أن ترجمه بسبع حصيات ، فما كان للشيطان سلطان على من قال له الله أسلم ، قال أسلمت لله رب العالمين .

وطاف بذهنها ذلك اليوم العصيب ، يوم نفد الماء الذى تركه إبراهيم لها ولإسماعيل ، فإنها لم تهرع إلى جبل الصفا كراهية أن ترى ابنها يموت فقد كان قلبها عامرا بالإيمان أن الله لن يضيعهما فلم يأمر الله خليله أن يسكنها بذلك الوادى المقدس عبثا سبحانه وما فعل ذلك إلا لأمر عظيم . إنها ارتقت الصفا وسعت بين الصفا والمروة تتعجل رحمة الله فقد خلق الإنسان عجولا .

وجزاها الله جزاء الشاكرين فجعل هرولتها بين الصفا والمروة شعيرة من شعائر الحج ، ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوّف بهما ومن تطوّع خيرا فإن الله شاكر عليم ﴾ .

واستشعرت رغبة ملحة أن تسجد شكرا لله ، ولكنها كانت مسجاة لا تستطيع حراكا وأعجز من أن تلصق جبهتها بالأرض ، ولم تقو شفتاها على تمجيد الحميد المجيد فأسبلت جفنيها وأحست أن روحها تسبح لله وتسجد له فى ملكه الواسع العريض الذى لا تحده سماء ولا أرض .

ورأت وهى مسبلة العينين مقام إبراهيم وهو ملتصق بالبيت عن يمين باب الكعبة ومرتفع عن الأرض قرابة ذراع ، وإنها لترى إبراهيم وهو قائم

عليه إذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، وخيل إليها أن الكون كله يدعو بدعائهما : ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

وإنها لترى إبراهيم وقد وقف على مقامه يؤذن فى الناس بالحج يوم جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، يأيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق . وسمعت الكون كله يلبى : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك .

وتهللت أساريرها وهفت نفسها إلى أن تقف على مقام إبراهيم تدعو الله أن يبارك فى إسماعيل وذريته ، وفى الرسول الذى سيبعثه فيهم استجابة لدعوة خليله ، ولكنها كانت أعجز من أن تفتح عينيها . ولكن روحها وإن ضاق بها الصدر كانت قوية مشرقة بنور ربها قادرة على أن تتصل بمن غمرها بفيض رحمته ، فراحت تناجى رب الحياة والموت أن يبارك فى إسماعيل وذريته الصالحين ، وفى الرسول الذى سيبعثه فيهم ليعلمهم الكتاب والحكمة .

وجاهدت وفتحت عينيها الواهنتين لتلقى نظرة وداع على الكعبة ، وفتحت أذنيها تريد أن يكون آخر عهدها بالدنيا أن تلقى السمع إلى ابتهالات الصالحين ودعوات المؤمنين ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ .

وتهللت روحها بفرح فياض فهى تستشعر أمنا ينسكب فى وجدانها

وتغشاها سعادة عارمة أن تفيض روحها فى ظل بيت الله . لو لم يشأ الله لها الهداية لكانت الساعة تموت شريدة فى أواريس أو طريدة فى دار من دور السادة بعد أن وقعت فى أسر الهكسوس . وحتى لو لم تقع أسيرة فى أيديهم لماتت فى قصرها فى منف ، ولحنط جسدها ليقاوم البلى ، ولأوقفت الأوقاف العظيمة للكهان ليقوموا بالصلوات وتقديم القرابين لتظل رروحها سعيدة فى حياتها الثانية . ولسوف يأتى يوم تنقطع فيه الصلوات والقرابين كما انقطعت فى قبور بناة الأهرام ومن جاء بعدهم فتمسى نسيا منسيا دون أن تهتدى إلى نور السماوات والأرض ، النور الذى يهدى السبيل فى الدنيا والآخرة .

إن الله أكرمها فقضى أن تموت فى بيته المحرم وأن تقبر فى الكعبة التى لا ينقطع الطواف حولها فى الليل أو فى النهار ، قضى أن تدفن فى الحرم الذى لا تتردد فيه إلا الأنفاس الطاهرة ولا يسمع فيه لغو ولا تأثيم ويغص بالطائفين والعابدين والركع السجود .

وأرهفت السمع فلم تسمع ابتهالات الطائفين فقد خفت الرجل فى الحرم وحبست الأنفاس ، كان الجميع فى وجوم تعلقت أعينهم بوجه السيدة الجليلة الذى كان يتألق بنور عجيب ، فقد كثرت صلاتها بالليل فحسن وجهها بالنهار .

ومال إسماعيل فوقها يرقب أنفاسها الواهنة المتقطعة فخيل إليه أن أمه تلتقط أنفاسها من ثقب إبرة فراح يسح الدموع دون أن يجهش بالبكاء ، كان أرحم من أن يسمعها بكاءه .

وانقطع الطواف حول البيت وشغل الناس بجبهم الكبير الذى أوشك أن يغيض ، أن يختفى إلى الأبد ، وطأطئوا رءوسهم أمام جلال الموت .

وعبس وجه هاجر فهى تريد أن تموت وابتهالات الصالحين تنسكب فى روحها ودعوات الطائفين تصافح حواسها حتى تغيب عن الوجود . إن انقطاع الطواف والابتهالات والدعوات يملأ نفسها حزنا ، ليتها تستطيع أن تصرخ فيهم : طوفوا .. ادعوا الله إنه قريب يستجيب دعوة الداعى إذا دعاه ، إلا أنها كانت فى النزع الأخير .

وطار حمام الحمى يطوف حول البيت وسمعت خفقات أجنحته فانبسطت أساريرها . إن الطواف لم ينقطع حتى فى لحظة موتها . ومس أذنيها تسبيحات عذبة لا تدرى أكانت تسبيحات إسماعيل أم تسبيحات الملائكة أم تسبيحات روحها التى تتأهب للانطلاق من سجن الجسد . كل ما كانت تدريه أن الحرم ضج بالتسبيح والابتهال والتهليل والتلبية لكأنما جاءت كل الأجيال القادمة التى قدر لها أن تحج إلى بيت الله تلبى نداء الله .

وتهلل وجهها ورفت على شفتيها ابتسامة رضى ثم أسلمت روحها ، فارتمى إسماعيل على صدرها وأجهش بالبكاء :

— أمى .. أمى .

وبكى أبناء إسماعيل جدتهم الغالية ! وضج المكان بالنحيب فقد ماتت أعز من ترددت أنفاسها فى الوادى المقدس ، ماتت الجارية التى أراد الناس أن يحطوا من شأنها وأبى الله إلا أن يرفع لها ذكرها .

ورفع إسماعيل رأسه وألقى على أمه نظرة وداع ثم قال :

— لا إله إلا الله ، ما أطيبك وأطيب ريحك !

وراح الرجال يحفرون قبر هاجر السيدة الجليلة التى تكونت حولها بكة ، بكة التى بارك الله فيها للعالمين . وكان قبرها فى جوف الكعبة بين الركن الشامى والركن الغربى فى المكان الذى بنى لها فيه خليل الرحمن

عريشا يوم أسكنها هى وإسماعيل بواد غير ذى زرع عند بيت الله المحرم .

وحمل إسماعيل ونابت وقيدار والرجال الجسد الطاهر ودلوه فى قبره وأهالوا عليه التراب وفى الحناجر غصة وفى القلوب حزن ثقيل ، ثم تفرقوا فى بكة مطرقى الرءوس ، وسرعان ما عادوا إلى البيت يستلمون الحجر الأسود ويطوفون ويركعون ويسجدون لله الحى الذى لا يموت .

٢٦

كان القمر يتألق فى السماء تحف به سحب ناصعة البياض كأنها جياد شهب ، وبدت الحقول كبساط من إستبرق يموج باللجين ، وانتصبت الأشجار الفارهة كأبراج فى معبد الكون ، وتدلت الثمار كأنها الزبرجد واللآلىء واليواقيت والذهب والمرجان ، وهب النسيم رخاء يداعب أوراق الشجر فكان رفيفه رقيقا كنبض القلوب المؤمنة عذبا كتسبيح خرير الماء شجيا كشدو زفيف الهواء . كانت الكائنات كلها تنبض بسحر يبده القلوب ويأخذ بالألباب .

وانسابت القافلة فى هجعة الليل من حبرون واتخذت طريقها إلى الجنوب ، إلى الحجاز . وعند السحر كانت أخفافها تغوص فى رمال الصحراء وقد انتثر العشب الأخضر وازدهر النوار الأصفر واكتست البيد بحلة ترقرقت فيها نضارة الربيع . ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك !

وعلى رأس القافلة كان خليل الرحمن قد ابيضت لحيته ولاح أثر السنين فى وجهه ، لكن البريق الأخاذ الذى كان يشع من عينيه لم ينطفىء بل زاده مهابة على مهابته وشرفا على شرفه ، وتألق وجهه بنور الإيمان المنبعث من قلبه العامر بحب رب السماوات والأرض رب العالمين .

وكان فى القافلة نفر من أهل بيته وقومه خرجوا معه لزيارة بيت الله

وتقديم العزاء لإسماعيل وبنيه فى فقد هاجر ، السيدة التى كانت بركة على آل إبراهيم منذ أول يوم وهبها ملك الهكسوس لسارة .

كان خليل الرحمن آنفا فى شوق إلى الولد ، كان يدعو ربه أن يهب له من الصالحين فجاء أمر الله من فوق سبع سماوات أن يبنى خليله بهاجر المصرية التى ولدت بمنف حيث ولد نبى الله إدريس . قدر الله أن تكون أما لإسماعيل ، أما للعرب الذين غرست نبتتهم الصالحة فى بكة التى بارك الله فيها وفيما حولها للعالمين .

وبشرت ملائكة الله سارة بإسحاق وهى عجوز عقيم بعد أن جاء إسماعيل بكر إبراهيم من هاجر المصرية التى أمر الله خليله أن يهاجر من أور وأن يسيح فى الأرض ليقابلها فى أواريس فى قصر ملك الهكسوس لتتحقق مشيئة الله وتنفذ إرادته . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

ثم أمر الله خليله إبراهيم أن يخرج بها إلى الحجاز وإسماعيل بعد طفل رضيع قبل أن تبشر ملائكة الله سارة بإسحاق وأن يسكنها بواد غير ذى زرع عند بيته المحرم ، فقبلت هاجر أمر الله بنفس راضية مطمئنة ونزلت عند بيت الله المحرم ، البيت الذى بناه إدريس النبى الصديق الذى ولد مثلها فى منف ، والذى دعا الناس إلى عبادة الله الواحد القهار قبل أن يبعث نوح وإبراهيم .

وكان الطوفان قد جرف البيت فيما جرف فأسكن إبراهيم هاجر وإسماعيل فوق الربوة الحمراء التى بقيت من البيت المحرم ، إلى أن يأتى أمر الله بأن يقيم إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل .

وكان إدريس أول من علم المصريين الخط بالقلم ، وكانت هاجر أول

من علم إسماعيل وبنيه ومن نزل عندهم حول بئر زمزم الكتابة ، و لم تجد ورق البردى فاستخدمت عظام كتف البعير والرِّقاق .

وعلَّم إدريس المصريين الزراعة والتصرف فى ماء النيل ولبس المخيط بعد أن كانوا يغطون أجسامهم بالريش ، ولو وجدت هاجر فى بكة أرضا خصبة وأنهارا تجرى لعلمت ذريتها الزراعة ، ولكن الله يعد ذريتها لحياة أخرى غير حياة الدعة والاستقرار ، غير حياة المترفين .

وعلَّم إدريس المصريين الإيمان بالبعث بعد الموت . ﴿ والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾ . فلما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم نسجوا حول إدريس الأساطير وجعلوه أزريس قاضى الموت من يضعْ الموازين القسط ليوم القيامة . ولكن هاجر كانت تؤمن باليوم الآخر وبالحساب بعد الموت ، فلما دعاها إبراهيم للإسلام لم تقل له فى دهش : ﴿ أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا ﴾ بل قالت ﴿ أسلمت لله رب العالمين ﴾ .

كانت هاجر بركة منذ أسكنها إبراهيم عند بيت الله المحرم ، وقد فاضت بركتها على الوادى كله ففجر الله لها ولابنها بئر زمزم واشتركت فى إقامة القواعد من البيت ، وكانت أول من لبى عندما أذن خليل الرحمن فى الناس بالحج ، وصبرت على بلاء الله لما أمر بذبح وحيدها إسماعيل ، وكان إبراهيم عسيّاً أن يجد السلوى فى إسحاق وذريته بينا تتلظى هى نار الثكل وتتجرع غصص الحزن دون أن تجد من يخفف لوعتها ، فما كان نابت وقيدار والذيل وإخوتهم ليقوموا عندها مقام إسماعيل :

آمت هاجر وصبرت وعملت الصالحات وأحسنت فماتت فى ظل الكعبة وقبرت فى البيت العتيق ، فى البيت الحرام الذى جعله الله قياما للناس : ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ .

انطلق إبراهيم والذين معه إلى بكة وكانوا يسجدون لله فى معبد الكون فى الفضاء العريض ، وكانت قلوبهم تهوى إلى أول بيت وضع للناس مباركا فيه آيات بينات مقام إبراهيم فمن دخله كان آمنا .

ولاحت لأعينهم سلسلة الجبال الجرداء المارهة التى تحيط بالوادى المقدس فضج من فى القافلة بالتلبية والتهليل وخشعت قلوبهم . واستشعر إبراهيم حزنا فقد كانت هذه أول مرة يزور فيها بكة بعد موت هاجر الزوجة الوفية التى اتقت الله ما استطاعت ، وسمعت وأطاعت ﴿ ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ﴾ .

وانحدرت الإبل إلى وادى بكة وطهر البيت والناس يطوفون به فى ملابس بيضاء فبدوا كملائكة أطهار ، وارتفعت أصواتهم بالدعوات والابتهالات لرب العرش العظيم فخفقت القلوب فى الصدور وطفرت العبرات من العيون .

واستلموا الحجر الأسود وطافوا طواف القدوم وكان إبراهيم يستشعر أن روح هاجر تطوف مع الطائفين . كانت سعادتها فى الدنيا أن تعتكف وأن تناجى ربها وأن تستغرق فى عبادته حتى يشرق نور الله على روحها فتتهلل بفرح فياض ، ولتكونن بهجتها فى الآخرة أن تنعم بقرب الحبيب وأن تظل تسبح بحمده وتقدس له وتنعم بسرور الأنس به .

وأتموا الطواف ووقفوا أمام قبر هاجر خاشعين وقالوا :

— السلام عليك يا زوجة رسول الله يا أم إسماعيل ، لقد وجدت ما

وعدك الله حقا ، إنا بك إن شاء الله لا حقون .

وترقرقت الدموع فى مآق القوم لما رأوا العبرات تسيل على خدى خليل الرحمن ، إن إبراهيم لحليم أواه منيب .

وجاء إسماعيل لما بلغه قدوم أبيه ، وتعانق الرجال وجلسوا فى ظل الكعبة يذكرون الله كثيرا ويسبحون بحمده ويخرون له ساجدين . وأقبل أبناء إسماعيل إلى جدهم فرحين وألقوا إليه سمعهم فكان يوصيهم بما أوصى به بنيه ويعقوب : يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون .

ومس أذنيه صوت هاجر فحفق قلبه بين ضلوعه فى شدة ولاح فى وجهه هلع والتفت فى فزع ، فإذا بزوجة إسماعيل المصرية وكان صوتها أشبه بصوت هاجر فهزه من أعماقه وزلزل كيانه . كانت هاجر أثيرة عنده لن ينسى ذكراها ما دام قلبه يخفق وأنفاسه تتردد فقد وهبها الله له من رحمة ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ﴾ .

ومرت الأيام وخليل الرحمن والذين معه عاكفون فى الكعبة يستشعرون طمأنينة ورضا وأمنا فقد أشرقت بكة بنور ربها ، ولو ترك لهم أن يختاروا ما فكروا فى العودة إلى حبرون أبدا ، ولكن خليل الرحمن أبى أن يتبع هواه فإن الله لم يأمره أن يستقر فى بيته المحرم .

وكان على خليل الرحمن أن يتخذ له زوجة بعد موت سارة وهاجر فما كان لرجل صالح أن يعيش بلا زوجة . إنه قبر حب شبابه فى حبرون وقبر حب رجولته فى الكعبة . ولكن كان عليه أن يتزوج فإن الله يريد أن يهب له ذرية من نساء أخريات غير سارة وهاجر ليشتركوا فى الميراث

العظيم الذى وعده به خليله ، ميراث مشارق الأرض ومغاربها .

وتلفت إبراهيم يبحث عن زوجة له . لقد أبى أن يزوج إسحاق من بنات الكنعانيين الذين ينزل بينهم وبعث إليعازر الدمشقى إلى حاران ليعود برفقة ، فإن كان أبى أن يزوج ابنه منهم فأجدر به ألا يختار زوجة منهم لنفسه .

إنه ولد فى العراق وتزوج سارة بنت عمه هاران ثم زوّج إسحاق فى قومه ، وقد يسر الله له أن يتزوج من مصر وأن يكون بينه وبين المصريين نسب . إنه يريد أن يربط الأواصر بين أهل بيته وهؤلاء القوم من العرب الذين نزلوا مع هاجر حول بئر زمزم وأصبحوا قوم إسماعيل وذريته ، فلو تزوج فيهم لربط الله به بين العراق ومصر وبلاد العرب .

وتزوج إبراهيم قنطورة بت مفطور من العرب العاربة وولد له منها مدن ومدين وقيسان وزمران ويسبق وسوح . ومرت السنون وحاء اليوم الذى ينتشر فيه هؤلاء فى الأرض فأمرهم أن يخرجوا إلى حيث يوجههم ، فأمر مدن ومدين أن ينزلوا الأرض التى سميت مدين فيما بعد ، وأمر قيسان أن يذهب إلى مكة ، وأمر بعضهم أن ينزل خراسان فقالوا له :

— يا أبانا أنزلت إسماعيل وإسحاق معك وأمرتنا أن ننزل أرض الغربة والوحشة .

فقال خليل الرحمن فى هدوء :

— بذلك أمرت .

إنه أمر فكان عليه أن يطيع ويصبر وكان على بنيه أن ينفذوا أمر الله ، وخرج مدن ومدين إلى سيناء لتكون ذرية مدين أهل مدين قوم شعيب

نبى الله ، وانطلق قيسان إلى مكة ليتزوج امرأة من جرهم لتلد له البربر ، وانطلق بعضهم إلى خراسان واستولوا على الحكم وسموا ملوكهم خاقان .

وانتشر دين إبراهيم فى الآفاق ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سَفِه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ .

٢٧

نام إسماعيل فى الحرم وإذا بنور ينسكب فى روحه وإذا بأوامر تلقى إليه ، كان الله يوحى إليه ما يشاء وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب .

وقام إسماعيل من نومه وكأنما حفرت أوامر الله فى صدره ، لقد أرسله الله إلى قومه ليدعوهم ليلا ونهارا إلى الله لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه .

لقد نزل العمالقة معه حول بئر زمزم وآمنوا بالله وبإبراهيم رسول الله ووقّروا الكعبة ، وما كانوا يعودون إلى دورهم قبل أن يطوفوا بالبيت العتيق . ولكن من نزل منهم حول البيت قليل ، فقد انتشر فريق منهم فى تهامة ومنهم يثرب بن عبيل بن مهلايل بن عوص بن عمليق الذى نزل عند جبل أحد وحفر آبارا وزرع نخلا وسمى المكان باسمه « يثرب » ؛ وانتشر فريق آخر فى الشام واستولوا على مصر . وقد أرسل الله إسماعيل لينذر العمالقة الذين كانوا يعيشون فى بلاد العرب .

وكذلك نزلت قبيلة جرهم حول بئر زمزم ، وآمن الجرهميون بالله وبإبراهيم رسوله ووقروا بيت الله ، ولكن من نزل منهم حول البيت قليل . كان جُرهم بن قحطان سيد اليمن وكانت قبيلته التى نزلت عند هاجر حول بئر زمزم من اليمن وكانت فى طريقها إلى الشام فاستقرت وآمنت بالله ، ولكن اليمنيين كانوا لا يزالون على دين قومهم فتأهب

إسماعيل للخروج إلى تهامة والانطلاق إلى اليمن ليدعو الناس إلى عبادة الله الواحد القهار .

وولى إسماعيل ابنه نابتا على بكة وكان شابا ورعا راجح العقل مطاعا مهابا شريفا فى قومه وإن لم يبلغ الخامسة والعشرين . كان يجمع بين حلم إبراهيم وإيمانه ونبل هاجر ورجاحة عقلها وشجاعة إسماعيل وصبره ، كان سبطا من خيرة الأسباط .

وطاف إسماعيل بالبيت العتيق . ثم ركب جواده وانطلق إلى تهامة بلاد العمالقة . وكان محط أنظار الجميع آتاه الله حكما وعلما والله غالب على أمره وكذلك يجزى المحسنين . وكانت الصحراء مترامية لا يبلغ مداها البصر والسماء زرقاء صافية تبدو فى الآفاق البعيدة كأنما انطبقت على الأرض ، والجبال الصخرية الشاهقة فارهة جرداء موحشة فنزلت بالقلوب المؤمنة رجفة من خشية الله القادر الجبار رب السماوات ورب الأرض رب العالمين .

ودنا إسماعيل من شاطىء البحر الأحمر ورأى ثم فرأى سفنا من بلاد النهرين ومن شواطىء المحيط الهندى ومن مصر ومن اليمن تمخر عباب الماء صاعدة هابطة محملة بالأحجار الكريمة والبخور والجلود والعاج وريش النعام والتوابل والحبوب وأقمشة الكتان .

وكان إسماعيل على علم بطرق القوافل البرية فالحجاز هو الجار الغربى للعراق وما كان ثَم حواجز طبيعية تعوق الاتصال بين بابل والجزيرة العربية ، فإن كانت تجارة السند وبابل ومصر تنقل عن طريق البحر فما كان ذلك إلا لخشية القوافل من غارات البدو المنتشرين فى البادية ، وكان هؤلاء يعيشون على مفاجأة القوافل وسلب ما تحمل من نفائس وسبى من

فيها من نساء .

كان البدو يهددون القوافل تهديدا ، وزاد الأمر سوءا أن العمالقة الأشداء الذين لم يستقروا فى سورية و لم يهبطوا إلى مصر احترفوا النهب فكانوا يقتلون الرجال ويأسرون النساء والولدان بضاعة ، فازدهرت الملاحة فى البحر الأحمر ، وكان للقناة التى تصل النيل بذلك البحر شأن عظيم فى تبادل سلع بلاد النهرين ووادى السند ووادى النيل وبلاد بونت .

كانت بضائع وادى النيل وبلاد ما بين النهرين ووادى النيل تنقل فى السفن إلى عدن ، فكان التجار اليمنيون يشترونها ثم يحملونها فى قوافل تخترق الجزيرة العربية إلى سورية ، وقد أنشأ هؤلاء التجار أسواقا فى مكة ويثرب وبصرى وغزة .

وكان إسماعيل يعرف بنى قحطان حق المعرفة فقد نزل معه على ماء زمزم قبيلة جُرهم وهى قبيلة يمنية فأسلموا له قيادهم وإن كان لهم « مكرب » ، وكانوا يسمون كل رئيس فيهم « مكربا » كما كان المصريون يسمون ملكهم « فرعون » وكما كان أهل جيرار يسمون ملكهم « أبيمالك » .

وقد قابل إسماعيل اليمنيين فى أسواق الشأم واعتاد أن يخرج معهم كلما ذهب إلى حبرون لزيارة أبيه إبراهيم وأخيه إسحاق ، كانوا تجارا يحبون المال حبا جما ويركبون الصعاب فى سبيل جمعه ، وقد بعثه الله إليهم ليدعوهم إلى الإسلام . وقد استجابت له جرهم وأسلمت لله وإنه ليرجو أن يعز الله دينه بهؤلاء التجار الذين يجوبون الآفاق فيحملوا دين الله القيم إلى العالمين .

إنه منطلق أول أمره إلى تهامة باسم الله وعلى بركة الله ، إنه منطلق إلى العمالقة الذين علا شأنهم حتى استولوا على الشأم ووادى النيل ، إنه منطلق إلى جبارين يرجو أن يشرح الله قلوبهم للإسلام . وبعد ذلك ينطلق إلى اليمن ليبلغ الناس هناك رسالات ربه ، وقد وطن النفس على الصبر واحتمال الشدائد .

وبلغ إسماعيل تهامة ونزل بسوق من أسواقها كانت عامرة بضائع هندية من وادى السند وبضائع عراقية من بابل وبضائع مصرية من وادى النيل وببحور وأخشاب من بلاد بونت ؛ الأراضى الآسيوية والإفريقية الواقعة حول مضيق باب المندب .

وكانت السفن تمخر عباب البحر الأحمر تحمل البضائع وحضارات الأمم الواردة منها ، كانت تتبادل السلع وتتبادل الأفكار ، كانت تأتى ببضائع بلادها وأفكار قومها وتعود ببضائع البلاد الأجنبية وعصارة أفكارها .

وراح إسماعيل يجوس خلال السوق ثم قام على مرتفع وقال :

ـــ يا قوم ألا تتقون ؟ إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين .

ـــ أتريد يا إسماعيل أن نعبد إلهك ونذر آلهتنا ؟

ـــ إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم .

ـــ وآلهتنا يا إسماعيل ؟ ألا تخشى أن تبطش بك ، أن تنزل عليك غضبها ؟ أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا ؟

ـــ ليست آلهتكم على شيء . إنى أدعوكم إلى الله رب العالمين .

وسرت همهمة استياء بين القوم . إنه جاء إليهم يسفه آلهتهم على أعين

الناس . إنهم يعبدون إلـٰه القمر وإلـٰه الشمس وإلـٰه الزهراء ، والبلاد التى فتحوها تعبد نفس الآلهة وإن تباينت أسماؤها ، أجاء ليجعل الآلهة إلـٰها واحدا ؟ وراحوا يجادلونه فقال لهم :

— ﴿ أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ ؟

— ﴿ تريد أن تصدنا عما كان يعبد آباؤنا فأتنا بسلطان مبين ﴾ .

— ﴿ ما كان لى أن آتيكم بسلطان إلا بإذن الله ، فاستغفروا الله ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب ﴾ .

— إن آلهتنا قد مكنت لنا فى الأرض ولن نكفر بآلهتنا أبدا .

— ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلـٰه غيره ، وإنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ .

— ﴿ إنا لنراك فى ضلال مبين ﴾ .

— ﴿ ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين * أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون * أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴾ .

— ﴿ إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾ .

— ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين * ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين * ولا تفسدوا فى الأرض

بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطمعا إن رحمة الله قريب من المحسنين * وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون * والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكدا كذلك نصرّف الآيات لقوم يشكرون ﴾ .

وما زال إسماعيل يجوب البلاد وينطلق فى كل واد من تهامة يدعو الناس إلى الله ، فشرح الله صدور المستضعفين للإيمان فأسلموا لله الواحد القهار . . يريد الله أن يمنَّ على الذين استضعفوا فى الأرض وأن يورثهم مشارق الأرض ومغاربها التى بارك فيها للعالمين . ❊

٢٨

خرج إسماعيل من تهامة فى قافلة من القوافل المنطلقة إلى اليمن وسار ومن فى القافلة ليالى وأياما آمنين ، ثم أمطرت السماء مطرا شديدا فصهلت الجياد وأقبلت وأدبرت وقامت على سيقانها الخلفية فجذب الفرسان الأعنة ليكبحوا جماحها ، وارتفع رغاء الإبل وهمت بأن تشرد لولا أن أخذ الرجال بزمامها ، وخف العبيد يسدلون على البضائع الأغطية خشية أن يصل إليها الماء فيدب فيها الفساد ويلحقها الكساد .

وراح الرجال ينصبون الخيام ، وشد إسماعيل خيمة من الوبر الأسود احتمى بها هو وجواده من المطر المنهمر على الجبال المتدفق إلى الوديان سيولا تجرف فى طريقها الصخور لكأنها ريش فى مهب الرياح .

وبرق البرق ورعد الرعد وزمجرت العواصف فنزل الخوف بالقلوب فراح إسماعيل يسبح لله الذى يُرِى عباده البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال . وجاء رجل من رجال القافلة بتمثال للإلٰه بعل إلٰه العواصف والصواعق ، وكان التمثال لبعل واقفا على قمم الحبال فى يده اليمنى دبوس القتال وفى يده اليسرى حربة فى أعلاها ما يمثل الصواعق وعلى رأسه تاج ذو قرنين تهدل من تحته الشعر حتى بلغ صدره ثم استدار فى حلقات ، ووضع الرجل التمثال فى خيمته ودعا الناس للصلاة .

وصلى إسماعيل فى خيمته لله وأتم صلاته وإذا بأصوات ضراعات تبلغ سمعه ، فذهب ليرى ما يفعل القوم فألفاهم يسجدون لبعل فقال لهم :

ـ أتسجدون لغير الله ؟

ـ إنا نسجد لآلهتنا .

ـ لا تسجدوا لبعل و ﴿ لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدو لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾ .

ـ إنا نعبد آلهتنا التى وجدنا آباءنا لها عابدين .

ـ ﴿ إلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم .. إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون * ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العقاب ﴾ .

وحاجه قومه كما حاج أباه إبراهيم قومه ، فقال لقومه ما قاله خليل الرحمن :

ـ ﴿ أتحاجونّى فى الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شيء علما أفلا تتذكرون * وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزّل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون * الذين آمنوا و لم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ .

ثم عاد إلى خيمته واعتزل فيها وكان كأبيه يحب الخيمة وحياة العزلة ليتصل بالله ويأنس به وتتهلل روحه بالفرح كلما أشرق فؤاده بنور الله .

إنه نشأ فى خيمة بالقرب من البئر المقدسة . ولكنه جاب الآفاق

ورأى قصور مدينة مارى فى سورية ، مدينة العموريين ، وكانوا عربا مثله كما كان أهل بابل عربا كذلك ولكن أطلق العرب على عرب سورية اسم العموريين أى الغربيين لأنهم كانوا غرب بابل ، كما أطلقوا اسم الشأم على من كانوا عن شمالهم واسم اليمن على من كانوا عن يمينهم .

كانت قصور مدينة مارى قصورا فخمة ضخمة بلغت مساحة أحدها ستة أفدنة وكان به ثلاثمائة غرفة زخرفت جدرانها بزخارف وتهاويل ، ورسم على إحداها بألوان زاهية أخاذة تسبى العقول صورة الملك وهو يتسلم صولجان الملك والسيادة من الإلهة عشتار .

ورأى فى مدينة أوجاريت قصورا ومعابد للإلٰه بعل وأخته عنت روعة فى الفن والجمال ، ولكن لم تبهره هذه القصور بكل ما فيها من ترف وزينة وتهاويل ، بينا كانت نظرة واحدة إلى شروق الشمس أو غروبها أو إلى بزوغ القمر من خلف سحابة تهز مشاعره وتجعله يخر ساجدا لبديع السماوات والأرض .

وأخيرا انقشعت السحب وكف المطر عن الهطول ، وراحت طيور كالصقور تحوم حول قمم الجبال . لم تكن صقورا بل كانت طائر الحر وهو طائر صغير أغر أصقع قصير الذنب عظيم المكبين والرأس ، وقد عبر الحر مع أهل البلاد البحر إلى الشاطىء الإفريقى ثم إلى صحراء مصر الشرقية ثم إلى وادى النيل عن طريق وادى الحمامات حيث عبد فى مصر باسم حور ، ومنذ ذلك الوقت نظر المصريون إلى ذلك الوادى نظرة تقديس فقد جاءت منها الآلهة .

وانطلقت القافلة ونظر إسماعيل إلى الجنوب فرأى أرض اليمن فخفق قلبه وهفت نفسه إليها فهى أرض الأجداد ، فمن هذه البلاد خرج

أجداده فيمن خرج إلى بلاد ما بين النهرين حيث قضوا على مملكة سومر وأسس سرجون الأول مملكة أكد العربية التى اتسعت فتوحها حتى وصلت إلى آسيا الصغرى .

ومن أرض الأجداد خرج نفر من المغامرين إلى الشاطئ الإفريقى حيث دخلوا وادى النيل عن طريق وادى الحمامات المقدس ومن ذريتهم جاء المصريون . إن آباء أبيه إبراهيم من هذه الأرض السعيدة وإن آباء أمه هاجر منها وكانوا جميعا يتكلمون لغة واحدة وإن اختلفت لهجاتها . كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه .

واستأنفت القافلة رحلتها إلى أن نزلت عند أبواب صنعاء ، وراح إسماعيل يجوس خلال الأسواق وكانت غاصة بالثياب والمنسوجات الواردة من جبيل وبالأقمشة الكتانية والحلى الواردة من مصر وبالأوانى الفخارية الواردة من بلاد السند وبالسيوف والخناجر الواردة من بابل وبالبخور والتوابل والأخشاب الواردة من بلاد بونت ، ولا غرو فقد كان التجار اليمنيون همزة الوصل بين إفريقية والهند من ناحية والعراق وسورية ومصر من ناحية أخرى .

وأقبل كهان صنعاء ورجال الدين فيها على البخور فالبخور يحرق فى ديانات العرب إرضاء للآلهة ، وأقبل النسوة على الحلى المصرية والحلى البابلية والأوانى الفخارية الواردة من بلاد السند ، وأقبل الأغنياء على التحف والتماثيل .

وراح إسماعيل يجوس خلال البلاد ويسعى فى السهل الفسيح الذى

ازدان بالحدائق والحقول فرأى معابد القوم تنهض على الربى العالية ، فآلهة العرب لا تسكن إلا الأعالى وقمم الجبال .

ورأى إسماعيل فى اليمن ما رآه أبوه إبراهيم فى أور ، رأى معبد إلـٰه القمر وكان يطلق عليه فى أور اسم نانا أو سين أما هنا فيطلقون عليه اسم « الموقاة » . ورأى معبد إلـٰه الشمس وهو فى أور شماس أما هنا فهو ذات حميم . ورأى معبد إلـٰه الزهراء وهو هناك عشتار ذكر بالنهار وأنثى بالليل أما هنا فهو إلـٰه ذكر . ورأى العاهرات المقدسات فى معابد الآلهة .

كان الموقاة هو الأب و ذات حميم هى الأم وعشتار هو الابن ، وكان لكل قبيلة إلـٰه لحلب المطر وآخر لمباركة المحاصيل أو لغير ذلك من شئون الدنيا والدين .

وكان إلـٰه القمر فى الديانات العربية هو رب الأرباب ، فإن كان العرب الذين أسسوا مملكة بابل فى بلاد العراق جعلوا مردوخ ربـا للأرباب ونسجوا الأساطير حول تنصيب الآلهة إياه فى مجمعهم إلـٰها للآلهة ، فما ذلك إلا لأن مردوخ كان إلـٰه القبيلة العربية التى استلت الملك من السومريين .

فلما أصبح زعيم تلك القبيلة ملكا على مملكته بابل أراد أن يكافىء إلهه على ما أسدى إليه من معروف فجعله رب الأرباب من خلق البشر جميعا .

ورأى إسماعيل فى معابد الموقاة وذات حميم وعشتار القرابين تقدم للآلهة فى الصباح والظهر والمساء ، والكهنة يطلقون البخور ويتلون الصلوات ، وسمع المغنين والمغنيات وهم ينشدون على أنغام الشخاشيخ

والمزامير والدفوف . رأى إسماعيل النبع الذى نبعت منه ديانة بابل أصل المعتقدات التى ثار عليها أبوه خليل الرحمن .

وجادل إسماعيل أهل اليمن كما جادل إبراهيم قومه :

— ﴿ ما تعبدون ﴾ ؟

— ﴿ نعبد أصناما فنظل لها عاكفين ﴾ .

— ﴿ هل يسمعونكم إذ تدعون * أو ينفعونكم أو يضرون ﴾ ؟

— ﴿ بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾ .

— ﴿ أرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأولون * فإنهم عدو لى إلا رب العالمين * الذى خلقنى فهو يهدين * والذى هو يطعمنى ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذى يميتنى ثم يحيين * والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾ .

— ﴿ أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ﴾ ؟

— ﴿ بل ربكم رب السماوات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدي * أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾ ؟

و لم يثر أهل اليمن ثورة أهل بابل . لم يقولوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ، فهم بطبعهم ميالون إلى السلم وينتهجون مبدأ المسالمة . هم قوم تجار فيهم رحابة صدر وسعة أفق وحسن إدراك للأمور تقوم حياتهم على حسن الصلة بالناس ، فجادلوه بالتى هى أحسن حتى شرح الله قلوبهم للإسلام وشهدوا أن لا إله إلا الله وآمنوا برسله وملائكته وكتبه .

وعكف إسماعيل على تعليمهم دين الله وعلمهم فيما علمهم الكتابة لينسخوا صحف إبراهيم ، وفرح اليمنيون بالقلم الذى صار بين أصابعهم فهم قوم يعيشون على التجارة وهم فى أشد الحاجة إلى تسجيل عقودهم وتدوين حساباتهم وبعث رسائلهم إلى الأمصار ، فشكروا ربهم الأكرم ﴿ الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ .

٢٩

كان إبراهيم مسجى فى خيمته والتفّ حوله إسحاق ويعقوب وإليعازر الدمشقى ورفقة وكبار رجال القبيلة ينعكس الأسى على وجوههم ، وكانوا كلما سمعوا صوتا التفتوا إلى باب الخيمة فى لهفة ورجاء كأنما ينتظرون وفود عزيز .

وخرج إليعازر ووقف على باب الخيمة وألقى بصره إلى الأفق الجنوبى يرقب الطريق مدة حتى إذا مشى اليأس إلى قلبه عاد مطرقا إلى حيث كان إبراهيم ، وأحس إليعازر عيون القوم تسأله فرفع رأسه وهزه فى حزن فغاض الأمل فى نفوسهم ونكسوا رءوسهم .

وراح الرجال يرصدون وجه خليل الرحمن وكان واهنا يلتقط أنفاسه فى جهد ، وأسبل عينيه فراح ينظر بعضهم إلى بعض وقد غشيهم وجوم يرجون رحمة الرحمن بخليله ، ولم يطق إسحاق صبرا فخرج مهرولا يرقب الطريق .

ومد إسحاق بصره إلى بعيد فلم ير أحدا قادما . ولم يكن حوله إلا المؤمنون الذين تعلقت قلوبهم بإبراهيم فلما سمعوا أنه يموت جاءوا مفزوعين من كل فج عميق وهم فى ريب مما سمعوا ، فقد أبت نفوسهم أن تصدق أن خليل الله يموت !

وراح إسحاق يشرئب بعنقه وينظر وقد خنق القلق الرجاء فى صدره ، إن الله أرأف بخليله من أن يقبض روحه دون أن يحقق له رجاءه

الأخير ، فما أكثر ما وعده الله وكان وعد ربه حقا . وما دعا إبراهيم ربه دعاء إلا واستجاب له ، أوَ يموت إبراهيم دون أن تمتلىء عيناه برؤية الحبيب ؟!

وظل إسحاق يغدو ويروح فى قلق ثم عاد إلى حيث كان أبوه فتعلقت به الأعين فهز رأسه نفيا وقلبه يتمزق من الحزن .

وفتح إبراهيم عينين واهنتين وقال :

ـــ ألم يأت إسماعيل ؟

فغصت الحناجر وطفرت الدموع من العيون ، ومال إسحاق على أبيه وقال :

ـــ إنه فى الطريق ، إنه قادم .

ولم يطق إسحاق أن يبقى على تجلده فكاد يجهش بالبكاء ولكنه كتم أنفاسه بكفه وأشاح بوجهه ، ثم فر من المكان ليبكى بعيدا خشية أن يسمعه أبوه .

وأسبل إبراهيم جفنيه وراحت الذكريات تتوالى على ذهنه : رأى هاجر يوم وضعت إسماعيل وإلى جوارها سارة تكاد تطير فرحا بالوليد ، ولم يلبث أن رأى هاجر وابنها الرضيع فى الصحراء ذلك اليوم الذى أسكنها عند البيت المحرم ، أمره الله أن يسكنها هناك قبل أن تبشر ملائكة الله سارة بإسحاق . ثم رأى نفسه وهو يقيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ورن فى أذنيه ذلك الدعاء الحار الذى انبعث من قلبه وقلب إسماعيل الحبيب .

وتمتم بصوت خافت : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

وزفر إبراهيم زفرة قوية وشاع فى وجهه نور وسلام ، كان يرى نفسه يطوف بالبيت العتيق مع الطائفين ويسعى بين الصفا والمروة كما سعت هاجر يوم نفد الماء منها وهرعت تستعجل وعد الله . ولقد وعدها الله أن يجعل ابنها الرضيع أمة عظيمة وأن يلد اثنى عشر رئيسا فما كان الله ليتركه يموت عطشا بعد ذلك الوعد الصريح .

وطافت سحابة أسى بوجه إبراهيم فهو يرى نفسه وفى يده الحبل والمدية وسار خلفه إسماعيل وهما فى طريقهما إلى ثبير .ورن فى أذنيه صوته وهو يقول : ﴿ يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك .. يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك ﴾ .

وفتح إبراهيم عينيه وقال :

ــ ألم يأت إسماعيل بعد ؟

فقال من كانوا عنده :

ــ إنه قادم . سيكون هنا عما قليل .

وأسبل إبراهيم جفنيه وعاد إلى ما كان فيه فسمع صوت إسماعيل يقول فى وضوح :

« يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء من الصابرين » . وأحس إبراهيم لهفة ليضم ابنه الحبيب إلى صدره قبل أن يموت ، فقد بعث إليه رسولا ليعود به ولكن الأيام مرت ولما يعد بإسماعيل بكره وأحب أبنائه إلى قلبه ، بكره الذى فداه الله بذبح عظيم وكرمه بأن جعله راعيا لبيته المحرم .

كان إبراهيم يتوق أن يكون لله بيت أعظم من بيوت الأصنام المنتشرة

فى مشارق الأرض ومغاربها . وقد شاء الله أن يكون لإسماعيل دون بنيه كلهم شرف إقامة القواعد من البيت العتيق ، وأن يمضى عمره آمنا فى ظله يسقى الحجيج ويكرم وفادتهم .

ورأى إبراهيم نفسه وهو يقف على مقامه يؤذن فى الناس بالحج ، فإذا بأصوات تدوى فى جوفه : « لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك » وانفعل إبراهيم بالتلبية المدوية فى أعماقه فهتف :

— لبيك اللهم لبيك .

وحسب إسحاق أن أباه لبى نداء ربه فارتمى عليه مفزوعا وقال فى هلع :

— أبتاه ! أبتاه !

وفتح إبراهيم عينيه وقال :

— أجاء إسماعيل ؟

وسمعت حركة عند باب الخيمة وامتدت الأبصار وحبست الأنفاس وكادت القلوب أن تكف عن الوجيب ، ودخل القادم وهتفت الأصوات :

— مدين .

وهرع مدين إلى أبيه وفاضت عواطفه وركع إلى جواره ونادى بصوت خنقته العبرات :

— أبى .. أبى .

فرفع إبراهيم ذراعه وراح يمرر يده على رأس ابنه فى حب عميق ، وما لبث أن عاد ذهنه إلى إسماعيل ، إلى من فداه الله بذبح عظيم ، فرآه يجلس

عند بئر زمزم يعلم أبناءه وأبناء من نزلوا معه حول البئر الكتابة ، ويبرى لهم الأقلام ثم يبرى لنفسه السهام . إن إسماعيل أبرع من رمى .

وملأت صفحة ذهنه صورة إسماعيل على صهوة جواده ، لقد كانت الخيل وحوشا قبل أن يستأنسها إسماعيل فروضها وجعلها ذلولا لقومه فاشتد بها بأسهم وصاروا هم الأعلون تدين لهم بالولاء الشعوب .

وارتفعت أصوات الناس فى الخارج يرحبون بمقدم شخص عزيز ، وهرع إسحاق ومدين وإليعازر ورفقة ينظرون وإذا بأصوات تهتف فى راحة :

ـ إسماعيل .. إسماعيل .

وترجل إسماعيل عن حصانه وخف إلى أهله وهو واله حزين وحياهم فى اقتضاب ، ثم راح يهرول إلى حيث كان أبوه فلما رآه مسجى وقد ذبل وغاض لونه خفق قلبه حزنا وقال وهو يشرق بدموعه :

ـ أبتاه ! كيف أنت يا أبتاه !

ـ إسماعيل ؟ الحمد لله الذى قدر لى أن أراك قبل أن أموت .

ـ كيف أنت يا أبتاه ؟

فقال إبراهيم فى راحة وقد رفت على شفتيه بسمة ذابلة :

ـ أصبحت بحمد الله بارئا يا بنى .

ذهبت أوصاب نفسه لما رأى ابنه الحبيب وملأ أنفه عبيره ، إنه يحس أن صدره انشرح على الرغم من أنه كان يلتقط أنفاسه فى جهد جهيد . إنه إن لفظ النفس الأخير يموت قرير العين فيده فى يد إسماعيل ومن حوله إسحاق ويعقوب ومدين والصالحون ، وستصعد روحه إلى الرحمن

الذى اتخذه خليلا .

وراحت تمر بذهنه أيام أور فرأى جده ناحور وأباه آزر وأمه إيمتالى .

ورأى نفسه فى معبد نانا والقوم يعبدون مردوخ ويرمزون له بكوكب المشترى ، فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين .

ورأى الناس يعبدون القمر ، يعبدون سين ونانا ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين .

ورأى الناس يعبدون شماش إله الشمس ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون .

إنه اهتدى إلى الله قبل أن يبعث ، آتاه الله رشده من قبل وكان به عالما .

ورأى نفسه وهو فتى يحطم تماثيل سين وشماش وعشتار والأصنام ثم يعلق الفأس بأذنى مردوخ كبير الآلهة ورب الأرباب !

ورأى قومه وهم يلقون به فى النار ، ومس أذنيه ذلك الصوت الذى سمعه وهو بين براثن اللهب : « يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم » .

وطافت بذهنه فى لحظات أيام دمشق وذلك اليوم الذى أسر فيه إليعازر الدمشقى ، وأيام مصر وخروجه منها وفى قبيلته هاجر ولم يحس فى تلك اللحظة النعمة الكبرى التى أنعم الله عليه يوم وهب ملك مصر لسارة هاجر أميرة منف ، هاجر التى ادخرها الله له لتلد له ابنه البكر الحبيب .

إنه يحس وهو يفارق الدنيا أن ليلة بنائه بهاجر كانت بداية النصر العظيم ، جاءت له بإسماعيل وأمره الله أن يسكنها هى ورضيعها بواد غير ذى زرع عند بيته المحرم ليتوج جهاده بشرف إقامة القواعد من البيت العتيق ، ليأمره بأن يؤذن فى الناس بالحج ليحقق له دعوته التى دعاها يوم أن قال : « فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » .

وجاء إسماعيل ومن بعد إسماعيل جاءته البشرى بإسحاق ، ورأى الضيف يدخلون عليه فقالوا سلاما قال إنا منكم وجلون . قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم . قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون ؟ قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين . قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون .

وتذكر سارة فى ذلك اليوم إذ عرفت أن الضيف رسل الله فضحكت من خوفه فبشروها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب . ﴿ قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشىء عجيب * قالوا : أتعجبين من أمر الله ؟ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾ .

وأحس إبراهيم الفناء يسرى فى أطرافه وكان يوصى بنيه بالتقوى طوال حياته ، فرأى وهو يغادر الدنيا ليقبل على الآخرة أن يوصيهم وصيته التى فيها خير الدنيا والآخرة فطلب من بنيه أن يدنوا منه ويعقوب وقال :

— ﴿ يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم

مسلمون ﴾ .

وفاضت روح من ابتلاه ربه بكلمات فأتمهن ، روح من اتخذه الله خليلا ، روح من قال لجبار الأرض فى إيمان عميق : ربى الذى يحيى ويميت ، وروح من كان أمة لله حنيفا وما كان من المشركين ، روح إبراهيم الذى وفى .

وأهت رفقة أهة فيها ذوب نفسها ، كانت تحس نار الحزن تتلظى فى أحشائها ، وبكى إسحاق ويعقوب ، وانهمرت العبرات غزيرة من عينى إسماعيل ، وأجهش الرجل الخشن المتأبد بالبكاء وغص بالدموع ، كان أبوه عينيه اللتين بهما يرى وأذنيه اللتين بهما يسمع وروحه التى تخفق بين جنبيه ، كان حبه الكبير .

والتقت عينا إسماعيل بعينى إسحاق ففاضت مشاعرهما حتى إن إسماعيل اعتنق أخاه وامتزجت دموعه بدموعه فضج من فى الخيمة بالبكاء والعويل . و لم يستطع إليعازر الدمشقى أن يرى سيده الحليم الأواه المنيب جثة هامدة فغادر الخيمة وهو واله حزين لا يرقأ له دمع وفى حلقه وقدة نار وبين جنبيه سعير .

ورأى الناس إليعازر فاشتد نحيبهم وراحوا يموج بعضهم فى بعض ذاهلين ، كانوا حيارى لا يدرون كيف تصبح حبرون دون أن تتردد فى أرجائها أنفاس الخليل .

وحمل إسماعيل وإسحاق ومدين ويعقوب الجثة الطاهرة وانطلقوا بها إلى مغارة المكفيلة ليقبروا جثة رجل الإيمان إلى جوار جثة سارة ، فقد رجعت النفس المطمئنة إلى ربها راضية مرضية .

وعبق الجو بأريج عطر وأفعم بالتسبيح وغشى الكون خشوع ، كان

من فى السماء ومن فى الأرض يسبحون لله ملك السماوات والأرض وإليه المصير .

ودلوه فى حفرته ثم أهالوا عليه التراب ونزل بقلوبهم حزن ثقيل ، وعادوا مطأطئى الرءوس تنز أفئدتهم أسى ولوعة . لقد صبغ إبراهيم حبرون صبغة تنم عنه ، إنه فى كل أرجائها سواء أحيا كان أم كان ميتا ، إن كل ما فى حبرون يذكر الناس به ، إنها مدينته وستظل إلى الأبد مدينته ، إنها الخليل .

٣٠

كانت كلمات خليل الرحمن تدوى فى آذان إسماعيل وإسحاق ومدين ، إنه وصى بها بنيه ويعقوب : ﴿ يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ . كانوا على علم بأن الله قد وعد بأن يورثهم المشارق والمغارب وأن يجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين .

إنها لنعمة من الله وفضل أن جعل فى ذرية إبراهيم النبوة والكتاب وجعلهم خلفاء فى الأرض واصطفاهم على العالمين ، فكانوا يذكرون الله ذكرا كثيرا ويسبحونه بكره وأصيلا ، ﴿ هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما ﴾ .

وكان إسماعيل مطمئن النفس سليم القلب يحب إسحاق وبنيه فقد كان يجد فيه ريح أبيه . وكان إسحاق يعظم إسماعيل ويحبه من كل قلبه لم ينفس عليه مكانته ولم يمنع عنه حقا من حقوقه ، إن إسحاق كان نبيا من الصالحين .

كان إسحاق يحب إسماعيل وكانت أمنيته أن يشد الأواصر بين بنيه وبين بنى إسماعيل ، أن يجعل ذرية إبراهيم وحدة مؤمنة متماسكة ، وحدة تدعو إلى الله .. إلى الهدى .. إلى النجاة . وكان إسماعيل ممتلئا بروح الفروسية لم يدر بخلده أبدا أنه قد يأتى يوم يقوم فيه خصام بينه وبين أخيه أو بين بنى إسحاق وبين بنيه ، إنه فى منعة من قومه وإنه على استعداد دواما أن يهب لنجدة أخيه إذا ما تعرض لعدوان ، وقد وصى بنيه أن

يكونوا مع أبناء عمهم على الكافرين .

كان إسماعيل وإسحاق وذرية إبراهيم يسارعون لفعل الخيرات وأمدهم الله بأموال وبنين وجعلهم أكثر نفيرا ، بيد أن الله جعل لكل نبى عدوا من المجرمين . وكان عدو إسماعيل بين المنافقين الذين تظاهروا بالإيمان بإسحاق ودعوته ، كان قلبه ممتلئا حسدا على أن جعل الله لإسماعيل وبنيه حرما آمنا بينا يتخطف الناس من حولهم .

كان يقول لآل إسحاق والحقد ينهش قلبه إن بيت الله عندهم خيمة لا تستقر فى مكان ولا يحج إليها الناس بينما صار لإسماعيل وذريته بيت محرم يشد إليه الرحال ، مبارك تهوى إليه أفئدة الناس ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا .

إن خليل الرحمن لم يشرف حبرون ولا أرض الكنعانيين كلها ببناء بيت أو هيكل لله ، إنه دفن فى حبرون وصارت بعد موته الخليل بيد أن كل ما تركه من أثر لإقامة الشعائر الدينية خيمة للرب يؤمها المؤمنون من آل إسحاق والذين معهم .

إن خير ما فعله خليل الرحمن بعد أن دعا الناس إلى الله رب السماوات والأرض رب العالمين أن أقام القواعد من البيت وإسماعيل فأقر لمكة بالزعامة الدينية دون سائر بقاع الأرض ، وراح عدو إسماعيل يوسوس لآل إسحاق أن أى بيت لله أو أى هيكل يبنونه ذات يوم مهما عظم ولو تعاون على بنائه الإنس والجن لن يصل إلى ما وصل إليه البيت المحرم من شرف ، إنه أول بيت بنى للناس وقد شارك فى إقامة شعائر الحج إليه خليلَ الرحمن هاجرُ وإسماعيل .

وراح ينزع بين إسماعيل وبنيه وبين إسحاق وبنيه ، كان يقول : إن

الآبار التى حفرها إبراهيم الخليل والتى حفرها إسحاق فى أرض الكنعانيين مهما كانت مباركة فلن تتطاول إلى بركة زمزم التى فجرها الله سقيا للحجيج .

وسد إسحاق وآل إسحاق آذانهم عن تلك الهمزات التى تريد أن تمزق وحدة المسلمين، كانت وصية خليل الرحمن لهم أن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون لا تزال تخفق بين جنوبهم ، كانت قلوبهم سليمة وكانت غاياتهم واحدة ، إعلاء كلمة الله وإقرار الناس بأن لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ، كانوا لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين .

كان إسحاق يحب أخاه الأكبر حبا شديدا وكان حبه ابنه العيص يفوق حبه يعقوب ، فعزم على أن يزوج العيص محلة ابنة عمه إسماعيل ، وكان حب رفقة يعقوب أشد من حبها العيص فعزمت على أن تزوجه راحيل ابنة أخيها لابان .

وشب العيص وتزوج يهوديت بنت بيرى من الحيثيين الذين نزلوا بأرض كنعان فأحس إسحاق مرارة وحزنت رفقة ، فقد كانت أمنيتها أن يتزوج ابنهما ابنة عمه إسماعيل صادق الوعد الأمين ، من فداه الله بذبح عظيم وجعله صديقا نبيا .

وعاد العيص وتزوج بسمة بنت إيلون من الكنعانيين ، وضاق صدر إسحاق بتلك الزيجة واستاءت رفقة فقد كان هواها مع هوى زوجها ، كانت تؤيد زواج العيص من محلة بنت إسماعيل .

ودعا إسحاق ولديه العيص ويعقوب فدخلا عليه فأخذ يتحسسهما بيده فقد فقد بصره ، وكان العيص أشعر وكان يعقوب أجرد فكان

يفرق بينهما باللمس ، وقال ليعقوب :

ــ يا بنى لا تتزوج من بنات كنعان ، قم واذهب إلى فدان آرام ، إلى بيت جدك واتخذ لك زوجة من هناك من بنات خالك لابان بارك الله يا بنى فيك . إن الله قد وعد أن يجعل فى ذرية خليله الكتاب والحكمة وإنه اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم .

وسمع العيص وصية أبيه لأخيه يعقوب . إن أباه ينهى أخاه أن يتخذ زوجة من الكنعانيين ، وقد علم أن جده إبراهيم العظيم قد نهى أباه إسحاق من قبل أن يتخذ زوجة منهم بينا تزوج هو اثنتين منهم .

إن أباه بوصيته لأخيه قد أعلن عن عدم رضائه عن زواجه من بنات كنعان ، وهو يحب أباه ويحب أن يرضيه فنهض وقال :

ــ إنى ذاهب إلى مكة .

ــ لماذا يا بنى ؟

ــ لأتزوج محلة بنت عمى إسماعيل .

وانشرح صدر إسحاق وراح يتحسس جسد ابنه الأشعر ويقول :

ــ اذهب يا بنى بارك الله فيك .

وخرج العيص لينطلق إلى الجنوب إلى بكة المكرمة إلى بيت الله العتيق ، وخرج يعقوب لينطلق إلى الشمال إلى حاران إلى بيت جده ، إلى فدان آرام حيث ولدته أمه ، إلى البلد الذى قبر فيه آزر وقال فيه إبراهيم الخليل : إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم .

وسار يعقوب حتى إذا جن الليل دخل مدينة إيليا بيت الله وكانت تموج بالصابئين من آمنوا بالله وبرسوله إدريس ، ثم آمنوا بالله ورسوله إبراهيم الخليل . وبحث يعقوب عن مكان يبيت فيه حتى اهتدى إلى

مكان هادىء فتوسد حجرا ونام فرأى عند رأسه فيما يرى النائم سلما منصوبا إلى السماء والملائكة تنزل وتعرج فيه ، وأسرى به ، أسرى الله به ، أسرى إيل به وجعله نبيا من الصالحين ، فصار منذ تلك الليلة إسرائيل .

وتهلل يعقوب بالفرح فقد كان عمه أول من نسب إلى الله إلى الإيل فسمى إسماعيل ، من سمع الله دعاء أمه وأبيه فيه ، وها هو ذا ينال مثل الشرف الذى ناله عمه فينسب إلى الإيل ويصبح إسرائيل .

وبلغ إسرائيل مدينة فدان آرام فخطب إلى خاله لابان ابنته راحيل فقال له :

— هل من مال أزوجك عليه ؟

كان إبراهيم خليل الرحمن غنيا يملك الذهب والفضة والمواشي والعبيد بيد أن الأنبياء لا يورثون ، فقد تصدق إليعازر الدمشقي وكيل بيت إبراهيم بكل ما ترك الخليل من متاع الدنيا و لم يصبح إسحاق بعد غنيا .

ورّث إبراهيم أبناءه الكتاب والحكمة ووعد الله أن يجعل فيهم النبوة وإنه لشرف عظيم لا يعدله كل ما فى الأرض من كنوز . المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا .

كان إسرائيل لا يملك مالا فأبوه إسحاق يتصدق بكل ما يصل إلى يده و لم يزوده بمال يدفعه لخاله فقال :

— لا مال عندى إلا أنى أخدمك أجيرا حتى تستوفى صداق ابنتك .

— صداقهـا أن تخدمنى سبع حجج .

— فزوجنى راحيل وهى شرط ولها أخدمك .

كان لخاله ابنتان ليا وهى الكبرى وراحيل وهى الصغرى ، وكان

إسرائيل يرغب أن يتزوج راحيل فقال له خاله :

ـــ ذلك بينى وبينك .

* * *

وانطلق العيص إلى مكة وكان أقرب الأخوين شبها بعمه إسماعيل ، كان رجل صيد خشنا متأبدا فارسا يضرب فى الصحراء ويعود بالصيد الوفير ، وطالما عاد إلى أبيه إسحاق بالغزلان والأرانب البرية والطيور .

ولاحت له حدود الحرم التى نصبها عمه ناحية الشأم فارتفع صوته بالتلبية وبين جنبيه عواطف متأججة بإيمان عميق ، إنه مقبل على البيت العتيق الذى أقام قواعده جده الخليل وعمه العظيم .

وأشرف على الكعبة فخفق قلبه على الرغم من الأمن الذى غشيه والنور الذى أشرق فى روحه ، وفاضت جنباته بالرقة والرحمة حتى ترقرقت الدموع فى عينيه وسالت عبراته .

كان الناس يطوفون بالبيت يسبحون لله ويبتهلون إلى رب السماوات والأرض واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ، وكانت الدعوات شجية عذبة تعبث بأوتار القلوب وتبعث فى الوجدان أرق العواطف وأنبلها .

وانحدر العيص إلى البيت وهو مفعم بالمشاعر الطاهرة التى تطلق الروح لتسبح فى نور النور ، وراح يلبى وكل خلجة من خلجاته تستشعر وجود الله وأنه يتجلى على عباده .

وملأت صورة جده صفحة ذهنه وتذكر وصاياه ، وراحت وصية بعينها تلح على ذهنه بدا كأنما حفرت فى أعماق نفسه . إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون .

إنها النور الذى يهتدى به إسماعيل وبنوه فى مكة ، وهى النور الذى

يهتدى به إسحاق فى أرض الكنعانيين أرض فلسطين ، وهى النور الذى يهتدى به يعقوب فى فدان آرام ، وهى النور الذى يهتدى به العيص أينما كان .

واستلم الحجر الأسود وطاف بالبيت سبعة أشواط ثم راح يسعى بين الصفا والمروة سعى هاجر بينهما يوم تركت عمه يقاسى من العطش وذهبت تستعجل وعد الله .

وحلق شعره عند المروة ثم انطلق إلى بيت عمه فقابله نابت وقيدار وأبناء عمه بالترحيب ، وقالوا له إنهم علموا بمقدمه وعرفوا أنه يطوف بالبيت فخفوا إلى بيت أبيهم لينتظروه .

وجاء إسماعيل وقد نالت منه السنون إلا أنها زادته مهابة وشرفا ، كان الشيب تاجا على رأسه و لم تستطع الجفون التى تهدلت على عينيه أن تخفى البريق الأخاذ الذى يشع منهما فيملأ النفوس جلالا واحتراما .

ورأى العيص عمه فخف إليه متفتح النفس فاحتواه عمه بين ذراعيه وقبله . كان إسماعيل يحب إسحاق ويحب أبناءه حبه بنيه .

وقال العيص لعمه :

ـــ جئت يا عمى لأخطب إليك محلة .

فلم يقل إسماعيل لابن أخيه : هل من مال أزوجك عليه ؟ كما قال لابان لابن أخته إسرائيل بل قال :

ـــ بارك الله لك فيها وبارك الله لها فيك .

وبنى العيص بمحلة بنت إسماعيل فولدت له الروم بن عيص لترث ذرية إبراهيم مشارق الأرض ومغاربها وليتحقق وعد الله ﴿ ومن أصدق من الله قيلا ﴾ .

٣١

لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك .

اهتزت جنبات الوادى المقدس بالتلبية ، كان الحجيج يأتون من كل فج عميق من اليمن وتهامة ويثرب والشام ، فقد استدارت السنة وبزغ قمر ذى الحجة .

وراح نابت بن إسماعيل يسقى الحجيج ويسهر على راحتهم ، يطعم فقراءهم ويبش لحجاج بيت الله وإن كان الأسى يحز فى نفسه ، فقد كانت هذه أول سنة مذ أذن خليل الرحمن فى الناس بالحج يغيب فيها إسماعيل عن سقاية الناس والترحيب بهم فهو مسجى فى فراشه لا يقوى على النهوض .

ووقف نابت إلى جوار بئر زمزم يرقب الناس وسرعان ما شرد ذهنه فرأى نفسه صغيرا وهو يجلس إلى جوار جدته هاجر خلف البئر يصغى إليها وهى تقص عليه قصة بركة أبيه التى فجرت زمزم لتكون سقيا لحجيج البيت المحرم .

كانت جدته تملأ مكة حياة ، كانت الروح التى سرت فى أرجائها والنور الذى أنار عقول ولدانها ، إنه ليذكر كيف كانت جدته تجمع صبيان جُرهم والعمالقة وتحفظهم صحف إبراهيم وتعلمهم الكتابة على ألواح من عظام الإبل ، فقد كانت أول من خط بالقلم فى مكة .

وتذكر نابت حديث أبيه له ذات ليلة وكان القمر قد اكتمل بدرا وسكب أشعته الساحرة على الوادى ففاضت على البيت وعلى كل الجبال التى حوله وملأت النفوس بمشاعر ناعمة رقيقة تشرح الصدور وتطلق الألسنة من عقالها :

— هل خط أحد بالقلم قبل هاجر فى بلادنا يا أبتاه ؟

— ثمود قوم صالح وكانت لهم جنات وعيون .. وزروع ونخل طلعها هضيم . وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا فارهين .

وأطرق نابت حزنا فقد ذهبت هاجر وتركت فى النفوس لوعة ، ولكن سرعان ما ملأ إسماعيل العظيم فراغ الأفئدة وفراغ العقول وصار الأنفاس المترددة فى الوادى الذى ضاق بالناس ، بعد أن كان قفرا قبل أن يسكن خليل الرحمن هاجر وابنه البكر إسماعيل عند بيت الله المحرم ، فإن ذهب إسماعيل بعد هاجر فمن للناس بعده .

واستشعر نابت رعدة تسرى فى بدنه ، إنه اليوم سيد قومه كلمته شريعة إذا أشار لبى الناس وإذا نصح أطيع أمره ، وما كان فظا ولا غليظ القلب فالتف الناس حوله ، لكنه يحس فى أعماقه أن مكانته مستمدة من عظمة ذلك الرجل الممدود فى فراشه ، من تفيض هيبته وإن كان لا يستطيع حراكا .

وفح فى جوفه صوت يسأل : « أتستطيع يا نابت أن تملأ ذلك الفراغ الهائل الذى يخلفه موت أبيك ؟ » فتقاصرت نفسه وغشيته رهبة ، وفى مثل لمح البصر غامت عيناه بالدموع وأحس رغبة فى أن يجهش بالبكاء ، أن ينفس عن الحزن الذى ألمّ به وضاق به صدره .

أيموت إسماعيل ؟! إنه مكة .. إنه بئرها المباركة وبيتها المحرم ، فإن

كان إبراهيم قد أقام القواعد من البيت وإسماعيل ، فقد عاد إبراهيم إلى حبرون بعد أن طهر البيت للطائفين والعاكفين والركع السجود وبقى إسماعيل فى بيت الله يخدم زواره ويسقى حجيجه .

وما من زائر أو حاج وفد على مكة إلا وجاء يسعى إلى إسماعيل يقرئه السلام ويلقى إليه سمعه . وقد عاده حجاج هذا العام وغشى وجوههم الإظلام ونزل بقلوبهم حزن ثقيل لما علموا أن إسماعيل أقعده مرضه عن أن يؤدى معهم المناسك ، ولو كان به قدرة على الحركة لحملوه فى محفة ، ولكنه كان أعجز من أن يرفع يدا أو يحرك ساكنا .

وغص حلق نابت . إن الفارس الذى لا يشق له غبار والرامى الذى طالما رمى بالنصال ، من كان يشتعل بالفتوة والحياة بات جسدا كل ما يربطه بدنياه أنفاس واهنة تشهق فى جهد وتزفر وجلة ألا يعقبها نفس آخر .

كان قلب نابت يهوى إلى أبيه ، ملك عليه حبه إياه كل حواسه . إنه قلق يريد أن يذهب إليه وأن يبقى إلى جواره إلى أن يقضى الله أمره ، ولكنه الآن سيد قومه عليه أن ينهض بواجبه وأن ينسى آلامه وعواطفه وأن يسمو فوق واقعه وألا ينسى أنه حفيد من اتخذه الله خليلا وابن إسماعيل صادق الوعد من اصطفاه الله وفضله على العالمين .

وخرج الناس إلى عرفات وذهب نابت إلى أبيه يلقى عليه نظرة ويستأذنه فى الخروج فألفى قيدار وإخوته عنده وقد لاح الأسى فى وجوههم فاشتعل الحزن فى نفسه ومال على أبيه وقال :

— كيف أصبحت اليوم يا أبتاه ؟

وفتح إسماعيل عينيه فى جهد وحاول أن يبتسم ولم يحر جوابا ، إنه

ليذكر أنه ألقى على أبيه نفس السؤال يوم جاد بروحه لتنطلق إلى الرفيق الأعلى . إنه يحس الموت يدنو منه وأنه عما قريب يلقى ربه وأنه سائله عما قدمت يداه فى دنياه فقال فى صوت خافت :

— يا بَنى اذهبوا . حجوا قبل ألا تحجوا بارك الله فيكم .

وخرج بنوه مطرقين رطبت عيونهم وجفت حناجرهم ونزت أفئدتهم أسى ، وراح إسماعيل يجاهد أن يملأ عينيه منهم قبل أن يغيبوا عن ناظريه ، وأرهف سمعه للتلبية التى تجاوبت فى الآفاق فإذا بالوحشة التى كادت تطبق عليه تنقشع وإذا بالمكان يشيع فيه أمن وسلام .

وانطلق بنو إسماعيل إلى عرفات وكانوا اثنى عشر رجلا على رأسهم نابت يرفع صوته بالتلبية ، فإذا بصوته يتهدج ويفعم بنبرات تنض بإيمان عميق يهز الأفئدة ويفتح الأرواح لتلقى ما يهب الله لعباده من رحمته .

ومضى يوم عرفة وقلب نابت عامر بذكر الله ، كان ذاهلا بربه عن نفسه وعن دنياه ، ذرف الدموع وقرص الشمس يغيب فى الأفق الغربى وراح يبتهل بكل وجدانه أن يغفر الله له سيئاته وأن يجعله من الأبرار .

وبدأ الناس ينفرون إلى المزدلفة ليبيتوا ليلتهم هناك ، وركب نابت راحلته وإذا بصورة أبيه الممدود فى فراشه تملأ الأفق أينما يولى وجهه . ترى أيموت إسماعيل وحده ؟ إن الله أرأف به من أن يجرعه غصص الموت دون شهداء ، لقد رحمه صغيرا وفجر له زمزم وسيرحمه كبيرا جزاء على صبره ، إنه لمن الأخيار .

وفى الفجر صلى نابت بالناس ثم جر كبشه وراءه وصعد إلى جبل ثبير ، إلى حيث أخذ جده أباه ليذبحه تصديقا للرؤيا التى رآها فى المنام ، فصبر أبوه على بلاء الله وقال : ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ، وفداه

الله بذبح عظيم .

لو لم يرحم الله أباه وترك إبراهيم يذبح بكره إسماعيل لجاء هو نفسه اليوم ببكره ليذبحه قربانا لله ، ولجاء المؤمنون بأبكارهم ليذبحوهم ولكن الله فداه بذبح عظيم فأصبح نحر الأضاحى بعد صلاة العيد شعيرة من شعائر الإسلام شكرا لله الذى حرم التقرب إليه بنحر الأبكار من الولدان كما كان الأمر قبل أن يصبر إسماعيل على بلاء الله .

إن الله أرحم من أن يترك إسماعيل يموت وحده . ومن قال إن إسماعيل وحده ؟ إنه كان طول حياته ميالا للوحدة متأبدا يضرب فى جوف الصحراء ليعتزل العالم ويعيش مع الله ، ورث عن أمه حب الأنس بالله ، قالت أمه لزوجها يوم أسكنها بواد غير ذى زرع عند بيت الله المحرم : لمن تكلنا ؟ قال : لله ، قالت فى إيمان : إذًا لن يضيعنا .

لم يكن إسماعيل وحده . كان مع الله وفى كنف الله وفى رعاية الله ، ومن كان الله وليه فلا خوف عليه . إنه من أصحاب الصراط السوى إن هذا لهو الفضل المبين .

وأتم الناس مناسك الحج وعادوا إلى البيت يطوفون به وامتلأ الوادى بأصواتهم . وبلغت أصوات الناس مسامع إسماعيل فلم ينشرح صدره ولم تتهلل نفسه بالفرح . كان فى شغل عن الدنيا بأبيه وبأمه فقد كانا لديه لما حضره الموت . إنهما يدعوانه أن يفر من سجن الجسد ليلحق بهما فى جنات النعيم التى وعد الله بها المتقين .

ودخل نابت وإخوته على أبيهم ملهوفين ، ومال نابت عليه فى حنان وقبله قبلة أودعها كل حبه ، وفتح إسماعيل عينيه وقال :

ـــ ادفنونى إلى جوار أمى .

وكان آخر عهده فى الدنيا صوت أبيه وصوته هو نفسه ، ﴿ إذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

تذييـــل

ذكرت فى تذييل الجزء الأول أنى أعتمد فى كتابة هذه السيرة على الحقائق التاريخية ، وأنى أشير فى نهاية كل جزء إلى ما خالفت فيه المتواتر بين المؤرخين أو الإخباريين ، مع ذكر أسباب تفضيل رواية على رواية ، أو ترك ما هو متواتر واستنتاج ما يتسق مع منطق الحوادث ومقومات الشخصيات .

كان القرآن الكريم هو النبع الذى حاولت أن أستمد منه سيرة الخليل ودعوته التى كان يدعو إليها ، ثم التوراة فيما لا يتعارض مع النهج الإسلامى عند دراسة حياة الرسل والأنبياء . ولم آخذ بكثير مما جاء فى التوراة أو فى الأحاديث المنسوبة إلى الرسول — ﷺ — أو بروايات المؤرخين والإخباريين التى اعتمدت كل الاعتماد على التوراة ، لما وجدت أن ما ورد بها يخالف أحاديث نبوية صحيحة ، أو يعارض بعضها بعضا ، أو لا يتفق مع ما كشفت عنه الحفريات الحديثة فى بلاد العراق واليمن وبلاد الشرق الأوسط ، وهذه كانت كل العالم فى تلك الأزمان .

وقد ترجمت التوراة إلى اللغة العربية فى القرن الثانى للهجرة ، فنهل منها الإخباريون والمؤرخون وملئوا التاريخ الإسلامى بالإسرائيليات ، ووضعوا أحاديث نبوية بحسن نية أو بسوء قصد لتطابق ما جاء فى التوراة . وكان عذرهم فى ذلك اعتقادهم أن ذلك الكتاب الذى ترجم إلى العربية منزل من السماء .

كان السامريون يؤمنون بالإصحاحات الخمسة الأولى فى التوراة ويقولون عما عداها إن هو إلا تاريخ لليهود ، فإن كانت التوراة نزلت على موسى فكيف تروى تاريخ اليهودية من بعده حتى قيام المسيح عليه السلام بدعوته ؟!

لم يؤمن السامريون إلا بالإصحاحات الخمسة الأولى واعتقدوا أن الكهنة كتبوا بأيديهم ما عداها من التوراة ، ويروى الجزء الثالث من هذه السيرة ما طرأ على التوراة من تغيير ، أما المؤرخون والإخباريون المسلمون فقد أخذوا عن التوراة دون أن يحاولوا إظهار ما فيها من تضارب ، بل كانوا فى بعض الأحيان يرجحون رواية التوراة ويحاولون إيجاد تفسيرات لما يعارضها فى القرآن ، من ذلك أنه جاء فى القرآن الكريم : « إذ قال إبراهيم لأبيه آزر ... » وجاء فى التوراة أن اسم أبى إبراهيم تارح ، فراح الإخباريون والمفسرون يجتهدون فى إيجاد معنى لآزر حتى لا يكون اسما لأبيه وحتى لا يكون هناك تعارض بين التوراة والقرآن ، فقال بعضهم آزر اسم صنم ، وقال بعضهم إن معناها أعرج وبذلك يصبح تفسير « إذ قال إبراهيم لأبيه آزر (أى يا أعرج) » أما الذين تحرجوا فى التأويل فقالوا : إبراهيم بن آزر وهو تارح ، وقال آخرون آزر عمه وقد ينسب الابن لعمه !

إن من التوراة ما كتب على أيام المملكة الإسرائيلية ، ومنها ما كتب فى المنفى بين النهرين ، ومنها ما كتب قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون ، ومن هنا جاء ما يلاحظ فيها من تعارض . ونسوق مثالا لذلك ما ورد فى تفسير اسم بئر سبع ، ففى الإصحاح الحادى والعشرين من سفر التكوين سأل أبيمالك إبراهيم :

ـــ ما هذه السبع النعاج التى أقمتها وحدها ؟

قال الخليل :

ـــ إنك تأخذ من يدى سبع نعاج لكى تكون شهادة لى بحفر البئر .

لذلك دعى ذلك الموضع بئر سبع .

وفى الإصحاح السادس والعشرين من سفر التكوين يفسر اسم المكان مما يلى :

« وحدث فى ذلك اليوم أن عبيد إسحاق جاءوا وأخبروه عن البئر التى حفروها وقالوا له قد وجدنا ماء ، فدعاها شبعة ، لذلك اسم المدينة بئر سبع إلى اليوم » .

وما أكثر الروايات المتعارضة فى التوراة ، ولذلك لم آخذ ما جاء فيها على أنه تنزيل من الله ، فقد كتبها أحبار اليهود بعد أن انقضى على عهد موسى عليه السلام نحو سبعة قرون وبعد أن انقضى على عهد إبراهيم عليه السلام نحو أحد عشر قرنا . لذلك كنت أقيس كل رواية على القرآن أو روح القرآن أو المنطق والعقل أو ما كشفت عنه الأحافير . لم أفسر ﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين ﴾ بما فسره به المفسرون وما ذكره الإخباريون ، لأنهم اعتمدوا فى تفسيرهم على أساطير اليهود ، وسأذكر الأسطورة للتدليل على ضحالة النبع الذى استقى منه المفسرون والإخباريون معلوماتهم .

« تزوج تارح من إيمتالى بنت كيرناب فرزقا إبراهيم ، وكان مولده مرصودا فى الكواكب فاطلع عليه النمروذ واستشار الملأ من قومه فأشاروا عليه بقتل كل طفل ذكر واستحياء البنات وإغداق العطايا والجوائز على أهليهن ليفرحوا بمولد البنات .

وأحس تارح أن امرأته حامل ، فلما أراد أن يتحقق ذلك صعد الجنين إلى صدر أمه فخوى بطنها و لم يظهر فيه حمل . وهربت أمه حين جاءها المخاض فأوت إلى كهف ولدته فيه وتركته ثمة وهى تدعو ، فبقى ثلاث عشرة سنة لا يرى الشمس على رواية بعض الكتب ، ومكث فى الكهف أقل من ذلك على روايات الأخرى ، وأرسل الله جبريل يرعاه فجعل الطفل يمتص أصابعه فيرضع منها ويكبر قبل الأوان . وخرج من الكهف ليلا وهو فى الثالثة فرأى النجوم فقال : هذه هى الأرباب ، فلما أشرقت الشمس قال : كلا بل هذه هى الرب ، فلما أفلت وظهر القمر قال : بل هو هذا ... فلما أفل قال : ما هذه بأرباب . إنما الرب المعبود هو الذى يدبرها ويسيرها ويبديها ويخفيها .

وفى بعض الكتب أن أمه خرجت تتفقده بعد عشرين يوما حيث تركته فوجدت فى طريقها صبيا ناميا ...

على مثل هذه الأساطير الإسرائيلية اعتمد المفسرون والإخباريون المسلمون ، وقد يكون لهم بعض العذر فما كانت الأحافير قد كشفت النقاب بعد عن ذلك العصر القديم الذى مضى عليه ألف سنة قبل أن يكتب اليهود تاريخهم فى المملكة الإسرائيلية أو فى بابل فى أيام الأسر .

ظهر من الأحافير فى اليمن أن العرب كانوا يعبدون القمر (الموقاة) وكان الإله الأب ، والشمس (ذات حميم) وكانت الأم ، والزهراء (عشتر) وكان الابن .

وظهر من الأحافير فى العراق أن العرب الذين أسسوا مملكة بابل قد جعلوا إلٰه قبيلتهم مردوخ وكانوا يرمزون إليه بالمشترى رب الأرباب ، وجعلوا القمر فى المرتبة الثانية بعد الكوكب ، والشمس فى المرتبة الثالثة

بعد القمر .

كانت عبادة الكوكب والقمر والشمس ديانات لها شعائر ومراسيم وكانت لها هياكل وأبراج ، ولم تكن المسألة أمر أم حملت فأوت إلى كهف وضعت فيه طفلها ومكث فيه لا يرى الشمس ، فلما جن الليل وخرج منه رأى كوكبا فقال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، بل كانت عبادة الكوكب والقمر والشمس ديانات فى بلاد ما بين النهرين ، وقد رأى إبراهيم هذه الديانات وفكر فيها ثم رفضها جميعا قبل الرسالة : ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين﴾ ثم هداه الله إلى الدين القيم إلى عبادة الله الواحد القهار ولم تكن المسألة خروج طفل من كهف وتقليب وجهه فى السماء ثم إنكار ألوهية الكوكب والقمر والشمس وانتهاء الرسالة فى ليلة واحدة !

والمتواتر والمعروف أن هاجر مصرية وأنها جارية سارة ، أما أنها مصرية فقد ورد ذلك فى التوراة وجاء فى حديث شريف عن أبى ذر أن رسول الله — ﷺ — قال : إذا افتتحتم مصر ، أو أنكم مستفتحون مصر ، فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لهم ذمة ورحما . ورواه ابن إسحاق عن الزهرى وقال : قلت للزهرى : ما الرحم التى ذكر ؟ قال : كانت هاجر أم إسماعيل منهم .

وقال الإخباريون والمؤرخون العرب إن هاجر من الفرما ، وعذرهم فى ذلك أن ملك مصر أهدى هاجر إلى سارة فى أواريس ، فظنوا أن أواريس مسقط رأسها .

ذكرت أن هاجر من منف وأنها أميرة من أمراء الفراعنة ، ولم يكن ذلك وحى خيال فقد اعتمدت فى ذلك على ما كان بين عمرو بن العاص

لما ملك مصر والمقوقس عظيم القبط .

قال الطبرى : إن عمرو بن العاص لما ملك مصر أخبرهم بوصية النبى — ﷺ — بهم ، فقالوا هذا نسب لا يحفظ حقه إلا نبى لأنه نسب بعيد ، وذكروا له : إن هاجر كانت امرأة لملك من ملوكنا ، ووقعت بيننا وبين أهل عين شمس حروب كانت لهم فى بعضها دولة ، فقتلوا الملك وسبوها ومن هناك تسيرت إلى أبيكم إبراهيم .

وكان حمورابى الملك البابلى هو الذى رفع مردوخ فوق الآلهة جميعا وجعله رب الأرباب ، وكان يرمز لمردوخ بالكوكب ، وأكاد أجزم أن إبراهيم قام بدعوته فى ذلك العصر اعتمادا على ما جاء فى القرآن الكريم من تسلسل العبادة أيام خليل الرحمن ، فقد كان الكوكب فـوق الآلهة جميعا ، فالقمر فالشمس .

ويقرر العلماء المشتغلون بدراسة الكتاب المقدس أن تاريخ إبراهيم يقع حوالى عام ١٧٥٠ قبل الميلاد ، وهو تاريخ قريب من عهد حمورابى .

ويذهب Emory Bogardus فى كتابه The Development of Social Thoughts إلى أن حمورابى هو أقدم حكام بابل المعروفين ، ويرجح أنه هو نفس إمرافيل المذكور فى العهد القديم وهو الذى حاربه إبراهيم .

وكانت مصر فى ذلك العصر فى حالة ضعف مكنت القبائل العربية التى نزلت شرق الدلتا للرعى من الوثوب على الحكم وتأسيس مملكة الهكيسوس .

كانت المناوشات مستمرة بين الرعاة أو العمالقة الذين حرجوا من تهامة واتخذوا أواريس عاصمة لهم وأخضعوا الدلتا ، وبين الفراعنة الذين كانوا فى الجنوب ، ومن هنا رجحت أن تكون هاجر أميرة من أميرات

منف وقعت فى الأسر وحملت إلى أواريس ، ومن ثم وهبها ملك الهكسوس إلى سارة .

وجاء فى الإصحاح السادس من العهد القديم أن سارة لما لم تلد قالت لإبراهيم : « هو ذا الرب قد أمسكنى عن الولادة ، فادخل إلى جاريتى لعلِي أرزق منها بنين » وقال يوسفوس المؤرخ اليهودى إن سارة قدمت هاجر إلى إبراهيم لما أمر الله بذلك ، وقد أخذت بهذه الرواية .

وجاء فى الإصحاح الحادى والعشرين بعد أن وهب الله لسارة إسحاق : « ... ورأت ابن هاجر المصرية يمزح ... فقالت لإبراهيم : اطرد هذه الجارية وابنها لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابنى إسحاق ، فقبح الكلام جدا فى عينى إبراهيم ... » .

وقد أخذ المفسرون والإخباريون المسلمون بهذه الرواية فى تفسير خروج هاجر وإسماعيل من الشأم إلى مكة ، ولكنى لم آخذبها لظهور ضعفها فبين مولد إسماعيل ومولد إسحاق ثلاث عشرة سنة ، وقد جاء فى صحيح البخارى عند الحديث عن ترك إبراهيم هاجر وإسماعيل بواد غير ذى زرع عند البيت المحرم « ... وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا ما نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى ... » ومن هذا يتضح أن إسماعيل خرج إلى مكة وهو رضيع ، ولم يكن يعرف بعد كيف يمزح أو يسخر من أخيه ، كما أن تصوير سارة بصورة المرأة الغيور من الزوجة الثانية لا يتفق مع جلال سارة ، كما أن زواج إبراهيم من هاجر لم يكن بدعا فقد كان زواج أكثر من روجة هو النظام المألوف فى تلك الأيام ، تزوج ناحور أخو إبراهيم أكثر من زوجة ، وتزوج يعقوب راحيل وجوارى كثيرات ، ولم

يثر مفسرو الكتاب المقدس تلك الثورة المحمومة العارمة التى ثاروها على زواج إبراهيم هاجر .

خرج إبراهيم بهاجر وإسماعيل بناء على أمر الله وأسكنهما فى مكة لتتحقق إرادة الله لا استجابة لغيرة سارة ولا إطاعة لأوامرها . قالت هاجر لإبراهيم لما تركها وحيدة هى وولدها فى أرض لا زرع فيها ولا أنيس : آلله أمرك بهذا ؟ قال نعم ، قالت : فإذًا لا يضيعنا .

واستهوت فكرة غيرة سارة من هاجر الواردة فى التوراة من ولعوا بوضع أحاديث لا عقل لها نسبوها إلى النبى — ﷺ — فوضعوا أطول خبر عن إبراهيم نقله رواة الحديث :

« قال ابن عباس : قال النبى — ﷺ — يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم ! وقال : لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم علينا معينا . قال : فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك : لا تخافوا الضيعة فإن هذا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وأن الله لا يضيع أهله . وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله . فكان كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين عن طريق كذا ، فنزلوا فى أسفل مكة فرأوا طائرا عائفا فقالوا إن هذا الطائر ليدور على ماء ، لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء ، فأرسلوا جريا أو جريين ، فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا .. قال : وأم إسماعيل عند الماء فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ قالت نعم .

قال ابن عباس : قال النبى — ﷺ : قالت ذلك أم إسماعيل وهى تحب الأنس ، فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم . وأعجبهم حتى شب .

فلما أدرك زوجوه امرأة منهم . وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه ، فقالت : خرج يبتغى لنا رزقا ، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت نحن بِشرّ ، نحن فى ضيق وشدة ، وشكت إليه . قال فإذا جاء زوجك أقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه . فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئا فقال : هل جاءكم من أحد ؟ قالت : نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسأل عنك فأخبرته ، وسألنى كيف عيشنا فأخبرته أنا فى جهد وشدة . قال : فأوصاك بشىء ؟ قالت : نعم . هو يقرأ عليك السلام ويقول غيِّر عتبة بابك . قال إسماعيل ذاك أبى وقد أمرنى أن أفارقك فالحقى بأهلك ، فطلقها وتزوج من امرأة أخرى . وغاب عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم فلم يجد إسماعيل فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت : خرج يبتغى لنا الرزق ، قال : كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بخير وسعة ، وأثنت على الله فقال ما طعامكم ؟ قالت اللحم ، قال فما شرابكم ؟ قالت الماء ، قال اللهم بارك فى اللحم والماء ، قال فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ومريه أن يثبت عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل قال هل أتاكم أحد ... » .

و لم آخذ بكل ما جاء فى هذا الحديث لأنه ظاهر الاختراع . فمن غير المعقول أن يأتى إبراهيم من الشأم إلى مكة ولا ينزل عن راحلته . وقد فسر المفسرون عدم نزوله بأن إبراهيم استأذن سارة أن يأتى هاجر فأذنت له وشرطت عليه ألا ينزل كأنما كان إبراهيم ألعوبة فى يد سارة . وإن كان قد أطاعها فى أول مرة حتى لا يثير غيرتها فلماذا لم ينزل فى المرة الثانية ما دامت هاجر التى تغار منها قد ماتت كما جاء فى الحديث الموضوع ؟

المشهور أن هاجر ماتت بعد سارة وأنها حضرت بناء الكعبة ، وأنها كانت على قيد الحياة لما ذهب إبراهيم إلى جبل ثبير بإسماعيل ليذبحه بعد النفرة من عرفات .

وجاء فى هذا الحديث أن إسماعيل تعلم العربية من العرب الذين نزلوا مع هاجر عند بئر زمزم، وذكر الإخباريون المسلمون أن إسماعيل كان عربيا وأن إبراهيم كان أعجميا ، وقد رفضت هذا الرأى فقد كان إبراهيم يتكلم العربية وإن لم تكن العربية التى نزل بها القرآن أو التى نتكلمها اليوم . كانت اللغة فى اليمن والعراق ومصر والحجاز لغة واحدة وإن اختلفت لهجاتها كما تختلف لهجات الأمم العربية فى هذه الأيام ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ .

﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم ﴾ .

ويؤيد هذا الرأى ما كشفت عنه الحفريات . يقول ألبرايت فى كتابه عن أحافير فلسطين : « تتقارب اللغات السامية (العربية) القديمة — عدا الأكادية — فى الأجرومية والنطق بحيث تشترك كل لهجة وما جاورها ، ولا يلحظ الانتقال من لهجة إلى لهجة إلا كما يلحظ مثل هذا الانتقال اليوم بين اللهجات الفرنسية والجرمانية ، ولما بدأ عصر الآباء العبريين عند مطلع الألف الثانية قبل الميلاد لم يكن الفرق بين اللغات يزيد على الفرق بين اللهجات العربية الأصيلة فى هذه الأيام » .

ويلاحظ أن الكتاب الأوربيين يستخدمون كلمة « سامية » للدلالة على الأقوام العرب الذين كانوا يهاجرون من آن لآخر من الجزيرة العربية ويستقرون على حدود الأراضى المزروعة ، حتى إذا اشتد ساعدهم وثبوا على الملك كما حدث فى العراق وسورية ومصر .

واستعملت كلمة سامية للدلالة على لغات هؤلاء الأقوام العرب وأجناسهم . ويرجع استخدام كلمة سامية للدلالة على بعض اللغات ثم على بعض الأقوام إلى عام ١٧٨١ عندما استخدمها العالم الألمانى شلويتسر للتدليل على لغات الذين ينسبون إلى سام بن نوح ، الذين كانوا يعيشون فى بلاد العرب وبلاد النهرين وسورية وفلسطين ، ثم انتشرت بعد ذلك إلى الحبشة ومصر وشمال إفريقية وغيرها ، وكلها قديمها وحديثها متصلة بعضها ببعض ، بل ومشتقة من أصل عام واحد . وقد آن الأوان أن نستخدم كلمة عربية بدلا من سامية ليكون للكلمة حقيقة مدلولها .

ولم يأت فى التوراة ذكر لذهاب إبراهيم إلى الحجاز . سكتت المصادر اليهودية سكوتا متعمدا عن علاقة إبراهيم بالجزيرة العربية ومكة وبناء الكعبة . وإنه لمن الغريب أن يتجه إبراهيم إلى سورية وفلسطين ومصر وإلى الجنوب حتى قادش وجرار ولا يتجه إلى الجزيرة العربية . وبلاد العرب هى الجار الغربى للعراق وليس ثم حواجز طبيعية تعوق الاتصال غير البادية التى كانت القوافل تقطعها فى الغدو والرواح .

ولم تسكت المصادر اليهودية عن ذهاب إبراهيم إلى الجزيرة العربية ذلك السكوت المتعمد فحسب ، بل سكتت عن كل النهضات الدينية فى جزيرة العرب .

لم تذكر شيئا عن هود أو صالح لأنهما من أبناء العرب كأنما لم تكن عاد وثمود هنالك على مقربة من فلسطين . حدد بطليموس فى أطلسه موقع عاد وثمود ، وكشفت الحفريات عن مدائن صالح ، وعثر على بعض الخطوط الثمودية فى ثمود وفى الطائف . كانت عاد حقيقة واقعة ، وكانت ثمود حقيقة واقعة ، وكان ذهاب إبراهيم إلى مكة وإقامة القواعد من البيت حقيقة واقعة ، وإلا فمن الذى بنى الكعبة إن لم يكن إبراهيم ؟

كان كهان اليهود يحسون منافسة دينية من العرب فضلا عن المنافسة الدنيوية ، وكانوا ينفسون عليهم أن صار لهم بيت محرم منذ أيام إبراهيم بينا لم يصبح لهم هيكل فى بيت المقدس إلا فى أيام سليمان بن داود ، وكانوا يخشون خطر المنافسة فى النسب والمنافسة فى العقيدة فسكتوا ذلك السكوت المتعمد الذى يدل على الشيء الكثير !

كان إسماعيل ابنا لإبراهيم . ذلك واقع لا يمكن إنكاره أو الفرار منه ، لذلك تعمد كهان اليهود أن يخرجوا أبناء إسماعيل من حقوق الوعد الذى تلقاه إبراهيم من ربه ، فراحوا يخترعون أكذوبة أن بنى إسرائيل هم شعب الله المختار ويؤكدون ذلك فى كتابهم المقدس .

سكتت كتب العهد القديم عن علاقة إبراهيم بالكعبة ، ولو أن إبراهيم لم يبن بيت الله للناس ببكة لما كانت له رسالة ، فما ورد عنه فى العهد القديم لا يجعله من أصحاب الرسالات ولا من أولى العزم من الرسل . إنه رجل يتجول فى مصر وسورية ليست له دعوة محددة ، كل همه أن يحافظ على حياته وإن ضحى بشرفه . ففى الإصحاح الثانى عشر جاء : « ... وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لسارة امرأته : إنى قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر ، فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه

امرأته فيقتلوننى ويستبقونك . قولى إنك أختى ليكون لى خير بسببك وتحيا نفسى من أجلك » .

وجاء فى الإصحاح العشرين : « ... وانتقل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب وسكن بين قادش وشور وتغرب فى جرار ، وقال إبراهيم عن سارة امرأته هى أختى . فأرسل أبيمالك ملك جرار وأخذ سارة ، فجاء الله إلى أبيمالك فى حلم وقال له ها أنت ميت ... » .

ومن أسف أنه قد جاء فى الكتاب المقدس أن ملك مصر وبخ إبراهيم ، وأن ملك جرار وبخه كذلك على فعلته الشنعاء . أو تكون هذه هى الرسالة ؟ أينسب مثل هذا الهوان إلى إبراهيم أبى الأنبياء ، ويسكت عن بناء بيت الله المحرم لأن ذلك البناء سيرفع من شأن أبناء عمومتهم ، أبناء إسماعيل ؟ وما حدث من إبراهيم حدث من إسحاق ، فقد جاء فى الإصحاح السادس والعشرين : « ... وسأله أهل المكان عن امرأته فقال : هى أختى ، لأنه خاف أن يقول امرأتى لعل أهل المكان يقتلوننى من أجل رفقة ، لأنها كانت حسنة المنظر ... » .

ووضع المولعون بوضع الأحاديث النبوية حديثا تأييدا لما جاء فى العهد القديم : « لم يكذب إبراهيم النبى — ﷺ — قط إلا ثلاث كذبات : اثنتين فى ذات الله قوله : إنى سقيم ، وقوله بل فعله كبيرهم هذا . وواحدة فى ذات سارة فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة وكانت أحسن الناس ، فقال لها إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتى يغلبنى عليك ، فإن سألك فأخبريه أنك أختى ... » .

وراح رواة الأحاديث يروونه ويفسرونه على مر الأيام ، وكذب واضع هذا الحديث وصدق إبراهيم ، إنه كان صديقا نبيا ، وما كان الله

ليتخذ من إنسان غير كامل خليلا .

ولم يكتف كهان اليهود إذ أحسوا من العرب منافسة دينية ومنافسة دنيوية بأن يحرموا أبناء إسماعيل حقوق الوعد الذى تلقاه إبراهيم من ربه ، بل أرادوا أن يسلبوا إسماعيل كل فضل فزعموا أن الذبيح هو إسحاق ، فقد جاء فى الإصحاح الثانى والعشرين : « وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم فقال له يا إبراهيم فقال هأنذا ، فقال خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحاق واذهب إلى أرض المريا وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذى أقول لك » .

وعلى الرغم من وضوح الاختراع فلم يكن إسحاق فى يوم ما وحيد إبراهيم ، وكانت التقاليد تقضى بتقديم الابن البكر قربانا لله ، وعلى الرغم من أن ذلك معترف به حتى فى التوراة إذ حاء فى الإصحاح الثانى والعشرين فى سفر الخروج : حرم على بنى إسرائيل أن يعطوا أبكار أبنائهم قربانا إلى الله .

على الرغم من وضوح الاختراع فقد راح بعض الإخباريين والمفسرين الذين كانوا يؤمنون بأن التوراة التى ترجمت إلى العربية هى كتاب منزل من عند الله ، راحوا يضعون الأحاديث وينسبونها إلى النبى لتأكيد أن الذبيح إسحاق .

وكان من أثر ذلك أن صار هناك أحاديث نبوية تؤكد أن الذبيح إسماعيل ، وأحاديث أخرى تؤكد أنه إسحاق . وسأكتفى بإيراد حديث مس كلا النوعين :

حدثنا أبو كريب قال : حدثنا زيد بن الحباب بن الحسن بن دينار عن على بن زيد بن جدعان عن الحسن عن الأحنف ىن قيس عن العباس بن

عبد المطلب عن — النبى ﷺ — حديث ذكر فيه : ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ قال هو إسحاق .

هذا هو الحديث الأول وفيه أن الذبيح إسحاق . وإليك الحديث الثانى الذى يدل على أنه إسماعيل :

حدثنا عمر بن عبد الرحيم الخطابى عن عبد الله بن العتبى عن ولد عتبة ابن أبى سفيان عن أبيه قال : حدثنى عبد الله بن سعيد عن الصنابحى قال : كنا عند معاوية بن أبى سفيان فذكروا الذبيح إسماعيل أو إسحاق فقال : على الخبير سقطتم . كنا عند رسول الله — ﷺ — فجاءه رجل فقال : يا رسول الله عد على مما أفاء الله عليك يابن الذبيحين ، فضحك رسول الله — ﷺ — فقيل له : وما الذبيحان يا رسول الله ؟ فقال : إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله لئن سهل الله أمرها له ليذبحن أحد ولده قال : فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله وقالوا : افد ابنك بمائة من الإبل ففداه بمائة من الإبل (ففداه بمائة من الإبل ففداه بمائة من الإبل) ، وإسماعيل الثانى .

وقال الحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير فى ترجمة إسماعيل : وهو الذبيح على الصحيح ومن قال إنه إسحاق فإنه تلقاه مما حرفه النقلة من بنى إسرائيل .

ليس من الغريب أن ينسب أحبار اليهود كل فضل إلى بنى إسرائيل ما داموا هم الذين كتبوا الكتاب بأيديهم ، وليس من الغريب أن يدعوا أن كل العادات الحسنة نشأت فيهم وأنهم هم الذين نشروها على العالمين .

وقد أفاض اليهود فى الختان وزعموا أن ختانهم يختلف عن ختان الأمم قبلهم ، فالختان عندهم له دلالة دينية ، وقد اقتفى أثرهم كثير من

الإخباريين المسلمين الذين اغترفوا من كتبهم دون حذر ، وجعلوا للختان أهمية قد تدنو من أهمية الإيمان .

إن كان إبراهيم أول من ختن إسحاق وإسماعيل ثم اختتن ، فما كان إبراهيم من بنى إسرائيل وما كان يهوديا ، ولكن الختان عادة قديمة ، فقد قال هيرودوت إنه رأى قدماء المصريين يختتنون .

وقد جاء الدكتور إسرائيل ولفنسون أستاذ اللغات السامية بدار العلوم فى عام ١٩٢٧ ، ليؤكد فضل بنى إسرائيل لا فى الختان فحسب ، بل ليوضح أن « ملة إبراهيم » لها علاقة وثيقة بالختان اليهودى .

يقول الدكتور إسرائيل : « لا شك أن عادة الختان لم تسر من اليهود إلى العرب لأنها كانت شائعة عند قبائل مختلفة فى الجزيرة العربية منذ عصور عابرة ، ويستدل العالم ويلهوزن بوجود قبائل متوحشة حتى فى إفريقيا كانت تألف هذه العادة .

ولست أنكر هذا الرأى لأن التوراة توضح لنا أن بنى إسرائيل قد جاءوا بالختان من موطنهم الأصلى فعلى ذلك يحتمل أن هذه العادة كانت شائعة عند قبائل أخرى مجاورة لبنى إسرائيل فى الصحراء .

غير أن هناك اعتبارا آخر لم يمعن العلماء نظرهم فى فحصه ربما يرشدنا إلى اكتشاف تأثير اليهود على العرب فى عادة الختان ، كان الاصطلاح « ملة إبراهيم حنيفا » شائعا عند العرب قبل ظهور الإسلام ، وقد اشتهر بهذا اللقب أفراد من مفكرى العرب لم تكن عبادة الأوثان تعجبهم وكانوا يرون أن التقرب إلى الله بالحجارة أمر لا قيمة له .

لا أريد أن أعود إلى أقوال مفسرى القرآن فى هذه العبارة ، ولكن أجتهد فى أن أصل إلى تفسير جديد لهذا الاصطلاح :

يعرف العضو التناسلى بعد ختانه فى العبرية باسم ملة ، كما أن له اسما قبل ختانه وهو غرلة .

وبما أن الختان من أصول الدين الإسرائيلى فقد عبر الناموس الدينى عن كل من اختتن أنه دخل فى ذمة إبراهيم الخليل وعهده .

ومن هنا أطلق اليهود على من اختتن التعبير « ملة إبراهيم » وهذا اللفظ يقوله العاذر للطفل عندما يعذره (يختنه) .

ولكن حيث إن الختان وحده لا يؤدى إلى الإيمان باليهودية لأن هناك شروطا أخرى لا بد من توفرها كإعلان الدخول فى الديانة التوحيدية الإسرائيلية واتباع ما تأمر به التوراة واجتناب ما تنهى عنه ، فقد أطلق اليهود على كل من يختتن دون أن يعتنق اليهودية اسم حنيف ، غير الصالح ، أى الختان غير الوافى بالشروط اليهودية ، وقد جاء فى لسان العرب : وكان فى الجاهلية يقال من اختتن وحج البيت حنيف ... الفراء الحنيف من سنته الختان ... الجوهرى الحنيف المسلم وقد سمى المستقيم بذلك ، كما سمى الغراب أعور وتحنَّف الرجل أى عمل عمل الحيفية ويقال اختتن ... » .

وخرج الدكتور إسرائيل من ذلك ببرهان قاطع على أن عادة الختان قد سرت إلى العرب من اليهود ، وأرى أن ما أورده الدكتور ليس ببرهان قاطع ولا غير قاطع ، إنه يحوى فى طياته معتقدات اليهود التى تسكت عن إبراهيم وذهابه إلى الحجاز ، فما دام إبراهيم هو الذى ختن إسحاق فهو الذى ختن إسماعيل وما كان إبراهيم يهوديا ، فإن كان للختان معنى دينى فقد أخذ العرب واليهود هذه العادة الدينية عن أبيهم إبراهيم . ولا يضيع هذه الحقيقة أن بنى إسرائيل سجلوا تاريخهم فى كتاب وأن العرب لم

يسجلوه أو أن ما سجلوه قد ضاع ، فإن فقد شهادة الميلاد ليس دليلا على أن صاحب الشهادة لم يولد ، وإن محاولة إرجاع المصطلحات العربية إلى أصلها العبرى فيه افتئات على اللغة العربية ، فقد كانت العربية هى الأصل فى أيام إبراهيم ، وكانت العبرية لهجة من لهجاتها ، وقد ذكر « نولدكه » أن كلمة حنيف من أصل عربى هو « تحنف » على وزن تبرر .

وقد وقفت طويلا عند الأخذ برواية من الروايات المختلفة التى وردت فى بناء الكعبة ، كانت هناك أساطير كثيرة تقرر أن الملائكة أول من بناها ، وأحاديث أخرى تروى كيف ساها آدم . وكان رأى العرب أن إبراهيم أول من بناها ، وكدت آخذ بهذا الرأى لولا أنى وقفت حائرا أمام ما حاء فى القرآن ﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ﴾ إن إبراهيم يذكر البيت المحرم قبل أن يؤمر بإقامة القواعد من البيت .

قرأت تفسيرات كثيرة لهذه الآية ولكن قلبى لم ينشرح لها ، فعاودت البحث والتنقيب حتى اهتديت إلى رأى أنار لى سبيلى واطمأن إليه عقلى . وجدت أن الصابئة يوقرون الكعبة ويعتقدون أن إدريس عليه السلام بناها وأنها بيت زحل أعلى الكواكب السيارة ، وأن للصابئة كتابا مقدسا يسمونه « كنزة » فرحت أبحث عن تاريخ إدريس .

ولد إدريس فى منف قبل نوح وقبل عصر الأسرات فى مصر وكان صديقا نبيا : ﴿ واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا ﴾ .

وحدث إدريس قدماء المصريين عن الله الواحد وعن البعث بعد الموت وعن التواب والعقاب والميزان ، وما جاء فى عقائد المصريين من

لمحات عن الله الواحد واعتقادهم فى البعث بعد الموت والحياة الآخرة .

وجمعت ما كتب عن إدريس فوجدت أنه أول من خط بالقلم ، وأول من خاط الثياب ولبس المخيط ، وأول من نظر فى علم النجوم والحساب ، وأول من علم الناس الزراعة . وذكرنى ذلك بما كتب عن أزريس إلـٰه المصريين ، فرجعت إلى المراجع الفرعونية فإذا بها كلها تذكر أن أزريس كان ملكا فى الأرض قبل عصر الأسرات ، وهو أول من علم الناس الكتابة ، وأول من علم الناس الزراعة ، وأول من لبس الثياب ، وأول من علم الناس الحساب ، وأول من عرف مواسم الفيضان وبذر الحبوب .

كان إدريس من منف وكان أزريس من منف ، وقد قام أزريس بكل ما قام به إدريس ، وبدأت أقتنع أن أزريس إن هو إلا إدريس وقد نسجت حوله الأساطير .

وبقيت مسألة علاقة أزريس بإيزيس وحوريس . فعكفت على دراسة هذه العلاقة فوجدت أن حورس ورد من اليمن و لم ينجبه أزريس . وإنما الأسطورة التى نسجها الكهنة هى التى جعلته أبا لحور .

جاء فى كتاب « دراسات فى تاريخ الشرق القديم » للدكتور أحمد فخرى :

« ... ولكن من هو الإلـٰه حورس ؟ وما أصله ؟ الجواب على ذلك أن هذا الإلـٰه لم تكن له فى الأصل أية صلة بعبادة الشمس وأنه كان رمزا اتخذته إحدى القبائل لمعبود لها على هيئة الصقر وأنه جاء مع الفاتحين ، وفى نصوص الأهرام (وهى أقدم المراجع الدينية وأهمها ٢٥٠٠ — ٢٢٥٠ ق . م) يصفون هذا الإلـٰه تارة بكلمة « أختى » وتارة بكلمة

« أبتى » و « أبت » معناها الشرق و « أخت » معناها أفق الشمس ، وكلا الكلمتين تشير إلى المشرق .

ورجعت إلى كتاب « فجر التاريخ » لبرستد فعرفت منه أن أزريس لم يكن له أية علاقة بعبادة الشمس ، وأن كهنته لما اشتد ساعدهم سلبوا صفات الآلهة الآخرين ومنحوها له وجعلوه شريكا لرع « إلـٰه الشمس » .

كانت وظيفة أزريس محاكمة الموتى ، قاضى الموت ، بعد أن صار إلـٰها وارتفع من الأرض إلى السماء ، وقد رفعت الأساطير إدريس إلى السماء تفسيرا لقول الله تعالى : « ورفعناه مكانا عليا » .

قد يقول قائل : إن كان إدريس هو أزريس وإن كان الصابئون يعتقدون أن إدريس هو أول من بنى الكعبة ، فهل جاء فى التاريخ أو فى الأساطير أن أزريس ذهب إلى بلاد العرب ؟ وإن كان قد ذهب إليها فهل قدس القدماء المصريون هذا المكان ؟

ذكر المؤرخ ديودور الصقلى أن الإلـٰه أزريس أحد آلهة مصر ذهب إلى مدينة تدعى (Nisa) وهى من مدن العربية السعيدة ، فرأى فيها الكرمة لأول مرة ، فتعلم منها زراعتها وشرب النبيذ ، وأنه ذهب إلى الحبشة فأقام هناك سدودا لخزن المياه وتنظيم السقى والارتواء ثم ذهب إلى بلاد العرب ومنها إلى الهند . وذكر الزعم القائل بوجود تمثال لأزريس فى بلاد العرب .

وجاء فى كتاب مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة للأستاذين أدولف أرمان وهرمان راتكه: وقد كان المقصود من «الأرض المقدسة» فى الأصل الشرق فقط حيث كان يظهر الإلـٰه وهو رع كل يوم ، وكان هذا

التعبير يدل أيضا فى الحياة اليومية على الصحراء الجبلية بين النيل والبحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء ، **وكذلك على وجه التحقيق الجزء الشمالى والمتوسط من بلاد العرب .**

ومن كل هذا قوى الاعتقاد عندى أن إدريس من ولد فى منف وعلم المصريين الكتابة والزراعة وأول من بنى البيت المحرم هو أزريس ، إمام شهداء السلف كما قال هيرودوت ، ومن أصبح « دينوسيس » عند الإغريق .

فإذا ما نفضنا الأساطير التى نسجها الكهنة عن أزريس وجدنا أن إدريس وأزريس إن هما إلا شخص واحد ، وأرجو ألا يكون قد جانبنى التوفيق فى ذلك الاستقراء .

وقبل أن أختتم هذا التذييل أحب أن أدون ما طاف بذهنى عن الاستشراق والمستشرقين ، وعن أصحاب البعوث للكشف عن الآثار الذين يحاولون فك رموز لغات الشرق الأوسط بأبجدية لاتينية تقصر عن أن تحل محل كثير من حروف الأبجدية العربية كالضاد والقاف والحاء والخاء والعين .

لقد أدى هؤلاء المستشرقون وأصحاب البعوث للكشف عن الآثار أجل الخدمات للكشف عن تاريخ الشرق الأوسط أو على ما أطلق عليه برستد اسم « الهلال الخصيب » . وقد كان هدف أغلب هؤلاء العلماء إماطة اللثام عن وجه الحقيقة ، غير أن بعضهم كان صاحب هوى وكان يؤدى نفس الدور الذى لعبه أحبار اليهود وكهانهم أيام كانوا يدونون التاريخ الدينى لبنى إسرائيل ، فحاولوا أن يطمسوا كل ما قد يرفع النقاب عن مجد العرب أو اخترعوا مصطلحات أضفوا عليها صبغة علمية

ليجرفوا أنظار العرب بعيدا عن ماضيهم التليد .

كانت حضارة بابل عربية وحضارة العموريين عربية وحضارة الكنعانيين عربية وحضارة سيناء عربية وحضارة ثمود عربية ، وقد اكتشفت هذه الحضارات وعرف أنها حضارات عربية خالصة ، ولكن بعض العلماء رأوا أن ينسبوها إلى جد أعلى حتى لا يلقوا الأضواء على مجد أقوام نافسوا بنى إسرائيل منذ أيام خليل الرحمن إبراهيم ، فأطلق العالم الألمانى سلوبنسر فى عام ١٧٨١ على هذه الحضارات العربية اسم السامية نسبة إلى سام بن نوح ، وصادف ذلك هوى فى نفوس الآخرين فأخذوا يتحدثون عن الأقوام السامية والحضارات السامية منذ ذلك التاريخ ، وتبعهم فى ذلك الكتاب العرب .

قلت إن الحروف الأبجدية اللاتينية تقصر عن أن تحل محل كثير من حروف الأبجدية العربية وأضيف إلى ذلك أن الأعلام العربية كثيرا ما يصيبها التحريف حتى لتكاد أن تبعد كثيرا عن أصلها ، ولنضرب مثلا بما هو واقع فى العصر الحديث ؛ يطلق ألبو على حلب وكايرو أو لكير على القاهرة أو نحو ذلك فى اللغات الأخرى غير الإنجليزية والفرنسية ، وإن من يقرأ اسم ابن سينا أو ابن رشد فى اللغات الأجنبية ليحسبهما من علماء الألمان أو الفرنسيين .

ومن الأسف أننا نتابع هؤلاء الأجانب فى تحريف أسماء الأعلام العربية ، فإذا ما تكلمنا بالإنجليزية قلنا أهمِد بدلا من أحمد ومهمِد بدلا من محمد .

ولا شك أن بعض التحريف قد أصاب أسماء الأعلام العربية القديمة عندما فكت رموز تلك اللغات العربية بأحرف لاتينية ، وعلى سبيل المثال تتحدث بعض كتب التاريخ عن الأموريين وبعضها عن العموريين

حتى ليخال المرء أحيانا أن الأموريين شعب آخر غير العموريين ، وبعض الكتب تكتب اسم رب الأرباب فى بابل مردوخ ، وبعضها يكتبها مردوك .

وأعتقد أن وضع الحروف المتحركة فى الأبجدية اللاتينية مكان الفتحة والضمة والكسرة ثم ترجمة هذه الكلمات إلى اللغة العربيــة ووضع حروف المد مكان الحركات قد أفسد الاهتداء إلى أصل هذه الكلمات العربية ، وسأسوق على سبيل المثال بعض الكلمات العربية التى كانت مستعملة فى بابل وذكرتها فى الجزء الأول كما كتبها علماء الآثار العرب الذين نقلوا الكلمات عن الحروف اللاتينية التى استخدمت فى فك رموز الكتابة البابلية العربية : المسكينو .. العاميلو .. الحريماتو .. وإنى أتساءل لماذا لا يكون أصل هذه الكلمات : المسكين والعاملون والحريم وقد أفسدها وضع الحروف المتحركة فى الأبجدية اللاتينية مكان الحركات فى اللغة العربية ؟

وإنى لأرجو وقد أصبح عندنا علماء أجلاء متخصصون فى اللغات العربية القديمة أن يهجروا الترجمة والأخذ عن الأجانب الذين كان لهم فضل عظيم فى الكشف عن آثار بابل وفلسطين وسورية وجزيرة العرب وعن اللغات العربية التى كانت سائدة فى فجر التاريخ ، وأن يقوموا بفك الرموز البابلية والأشورية والثمودية والسريانية والآرامية والكنعانية بحروف عربية وحركات عربية ، وأعتقد أننا لو فعلنا ذلك فسنصل إلى كشف جليل يستحق ما يبذل فيه من جهد وعرق ، وأنا على ثقة أننا فاعلون فإننا قادمون على عهد عظيم للعرب والعروبة ، وسنصل إن شاء الله مجد الحاضر بمجد الماضى التليد .

المراجع

القرآن الكريم
الكتاب المقدس
صحيح البخارى
السيرة النبوية — لابن هشام
تاريخ الطبرى
تاريخ ابن خلدون
البداية والنهاية — لابن كثير
أبو الأنبياء — عباس محمود العقاد
تاريخ العرب قبل الإسلام — الدكتور جواد على
قصص الأنبياء (العرائس)
دراسات فى تاريخ الشرق القديم — للدكتور أحمد فخرى
فجر التاريخ — لهنرى برستد
جمهرة نسب قريش وأخبارها — للزبير بن بكار
مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة — أدولف أرمان وهرمان راتكة — ترجمة الدكتور عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال
تاريخ اليهود فى جزيرة العرب — الدكتور إسرائيل ولفنستون
شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام — الحافظ أبى الطيب تقى الدين محمد ابن أحمد بن على الفاسى المكى المالكى
وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى — للسمهودى

محمد رسول الله والذين معه

فى ٢٠ جـزءا

١	ــ إبراهيم أبو الأنبياء	أكتوبر ١٩٦٥
٢	ــ هاجر المصرية أم العرب	مارس ١٩٦٦
٣	ــ بنو إسماعيل	سبتمبر ١٩٦٦
٤	ــ العدنانيون	فبراير ١٩٦٧
٥	ــ قريش	مايو ١٩٦٧
٦	ــ مولد الرسول	يوليو ١٩٦٧
٧	ــ اليتيم	أكتوبر ١٩٦٧
٨	ــ خديجة بنت خويلد	يناير ١٩٦٨
٩	ــ دعوة إبراهيم	مارس ١٩٦٨
١٠	ــ عام الحزن	يونية ١٩٦٨
١١	ــ الهجرة	سبتمبر ١٩٦٨
١٢	ــ غزوة بدر	نوفمبر ١٩٦٨
١٣	ــ غزوة أحد	يناير ١٩٦٩
١٤	ــ غزوة الخندق	مايو ١٩٦٩
١٥	ــ صلح الحديبية	يونيه ١٩٦٩
١٦	ــ فتح مكة	نوفمبر ١٩٦٩
١٧	ــ غزوة تبوك	فبراير ١٩٧٠
١٨	ــ عام الوفود	مايو ١٩٧٠
١٩	ــ حجة الوداع	نوفمبر ١٩٧٠
٢٠	ــ وفاة الرسول	ديسمبر ١٩٧٠

رقم الإيداع ٥٩٥٨ الترقيم الدولى ٣ ــ ٣٢٥ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧



مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الثمن ٣٥٠ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه